ديراو داتسيدا
حينما
يختلط الدم بأحمر الشّفاه
رواية
النسخة الإلكترونية
ماروشكا فتاة لعوبة، نزهة الأحلام جاسوسة، إدواردو قاتل مأجور، سيباستيان عالم بيولوجي، مروان رجل أعمال فاسد
عبد الجليل مقاتل، أنخيل ملازم أول بالقوات الخاصة في الجيش المكسيكي، فيليب ملازم أول بالقوات الخاصة في الجيش الغواتيمالي
أمال أم نزهة الأحلام، مهدي زوج ماروشكا، الزعيم قائد منظمة سرية.

حينما يختلط الدم بأحمر الشفاه

نوع العمل: رواية
اسم العمل: حينما يختلط الدم بأحمر الشفاه
اسم المؤلف: ديراو داتسيدا
تصميم الغلاف: زكرياء رقاب
الترقيم الدولي: ١-٧٢١-٧٩-٩٩٤٧-٩٧٨
النسخة الإلكترونية: جويلية ٢٠٢١

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن منه.

حينما يختلط الدم بأحمر الشفاه

رواية

دير او داتسيرا

الإهداء:

إلى كل من يؤذي صحته لينسى آلام روحه...

إلى كل من يقضي شهورا في الغربة ثم يرى أحبابه أسبوعا...

إلى كل من يتمنون لنا الفشل... لقد فشلنا، امضوا قدما!

تنويه:

إن الوصية الواردة في الصفحات ٢٣٧-٢٤٢ هي وصيتي بعد الموت، فإن فارقتكم يوما ما فأرسلوها لهم!

الفصل الأول:

تينكوانا، عاصمة الفساد!

سَتسمعُ أَزيزَ الطَّائراتِ يَا عَدوِّي...

سَتسمعُ الصَّوتَ...

سَنهدِّمُ جُدْرانَ السّكينةِ...

وَسَنكسرُ الصَّمتَ...

لَا يُهمّنَا مَنْ أَنتَ... أَوْ كَيفَ كُنتَ... أَوْ كَيفَ صِرتَ...

فَنحنُ جَزائريونَ...

لَا نَخافُ الْحربَ، وَلَا نَخشَى الْموتَ...

نَحنُ الجَيشُ الوَطنيُ الشَعبيُ فِي بَريّةِ الصَّحراءِ نَخافنَا الوُحوشْ...

وَفِي أَرضِ المَعاركِ، تَهابنَا العِصاباتُ وَالجُيوشْ...

لِأنَّ مَوتكَ يَا عَدوِّي سَيأتيكَ حَتمًا...

قبلَ أَنْ تُغلِقَ وَتَفتحَ الرُّموشْ!

(١)

كان المطر يتهاطل بغزارة، مبللا زجاج سيارة «Sandero Stepway» التي كانت تنطلق من الجزائر العاصمة باتجاه ولاية أم البواقي، عبر الطريق السيار شرق ـ غرب؛ كان «عبد الجليل» يطل من زجاج النافذة، حينما بادره أشرف قائلا:

ـ «ماذا ترى يا أخي؟ لا يوجد في الخارج سوى سيارات وزفت وإسمنت! لما لا تنام قليلا؟ التعب باد على محياك!».

ـ «أنا لا أرى سيارات ولا زفتا ولا إسمنتا يا أخي الصغير؛ أنا لا أرى سوى الجثث والدماء!».

ـ «آه! كفاك يا عبد الجليل! أنت تخيفني بهذا الكلام! أنا أعلم أن صديقك قد مات أمام عينيك، لكن هذا قدر من الله، سوف تنسى ذلك قريبا، لا تفكر في ذلك فقط».

ـ «ارحمني يا إلهي أرجوك!».

في الحقيقة، لم يكن عبد الجليل يتذكر صديقه فقط، بل كان يسترجع كل تلك المواقف الصعبة التي عاشها في المكسيك، والمعارك التي خاضها رفقة إخوته في السلاح، والتي أبت أن تفارق ذاكرته! لقد كان يظن أنه قد أتى من الجحيم، لكنه في الواقع قد وفد مع الجحيم!

خمس ساعات مرت، وأشرف يحاول أن يفتح موضوعا مع أخيه، لكن عبد الجليل كان يكتفي إما بالإيماء بوجهه، أو بالإجابة بجمل قصيرة.

صرخ أشرف قائلا: «ها قد وصلنا إلى أم البواقي! ستفرح بك أمنا كثيرا!».

ركن السيارة أمام باب المنزل، حمل حقيبة أخيه ودخل البيت بسرعة قائلا: «أمي! احزري من أحضرت معي؟».

ـ «صديقة أخرى كعادتك!».

ـ «آه! كلا يا أمي! ولما تقولين ذلك بصوتٍ عالٍ! لو كنت قد أحضرت صديقة جديدة حقا لكشفتني أمامها! أنت دائما هكذا! لا يهم، أنظري إلى هذه المفاجأة! هيا الآن!».

دخل عبد الجليل وهو ينظر إلى أمه بابتسامة ملؤها

الألم، لم تستطع الأم أن تصدق أن ابنها قد عاد إليها أخيرا بعد غياب دام تسع سنوات! كانت لتسقط أرضا لولا أنه هرع إليها بسرعة واحتضنها، ثم شرع الاثنان معا في البكاء.

ـ «الحمد لله أنك قد عدت إلي سالما يا بني! خفت أن أموت قبل أن أراك مرة أخرى!».

ـ «لا تقولي ذلك يا أماه! أنا الآن معك ولن أغادر مجددا أبدا!».

اتصل أشرف بالعائلة، وأتى الجميع مذهولين، يقبلونه ويحتضنونه بشوق؛ جلسوا بعد ذلك في قاعة الاستقبال، وهم ينظرون بفضول إلى هذا الشاب الناضج الذي لم يروه منذ أكثر من تسع سنوات، كانوا يسألونه وهو يجيب، أدرك الجميع أن شيئا ما فيه قد تغير، لم يكن التغيير مجرد اختلاف فيزيائي، بل في كلامه، في تصرفاته، في طريقة جوابه المقتضبة؛ كانوا يسألونه العديد من الأسئلة حول المكسيك، وكيف قضى سنواته هناك، وكانت إجاباته كلها تصب في قالب واحد: «الحياة جميلة، السماء زرقاء والعصافير تزقزق!».

قال أبوه «بشير» موجها كلامه لأفراد العائلة: «كفاكم أسئلة! الابن متعب جدا! دعوه ينال قسطا من الراحة، لن يستطيع أن يحكي لكم تسع سنوات في يوم واحد!».

انتبه الجميع لذلك واعتذروا منه، دخل غرفته التي لم يتغير فيها شيء منذ أن خرج منها، لقد رفضت الأم أن تمس أي غرض فيها حتى يعود ابنها؛ وضع رأسه على الوسادة وغط في نوم عميق.

في الصباح، انتظره الجميع كي يستيقظ ليمطروه بالأسئلة لكنه لم يفعل، اتفقوا مساءً على أن يوقظوه، دخلوا إلى غرفته فوجدوه يتحرك ويتحدث بكلام غير مفهوم، طلبت الأم من أشرف أن يوقظه بسرعة لأنه يعاني من كوابيس مرعبة على ما يبدو، قام أشرف بذلك، ففتح عبد الجليل عينيه، وقفز من سريره وهو ينظر إلى أفراد عائلته والخوف يعتريه، ثم صرخ قائلا: «ليلعنكم الله! سيقتص الله لي منكم! أيها المجرمون الأوغاد! تبا لكم! سأقتلكم فردا فردا كما قتلتموني! آه إني أختنق! ما هاته الرائحة الكريهة!».

كان الجميع ينظرون إليه بذهول، وما إن سقط أرضا حتى اتجه الجميع إليه، قام أشرف وأخوه «تيم» بحمله ووضعه على السرير، بينما شرعت أمه وأختاه بالبكاء والنحيب شفقة عليه؛ كان عبد الجليل يعاني من حمى شديدة، مما جعل أشرف يأخذه بسرعة إلى مستشفى «محمد بوضياف»، أين تم وضعه تحت العناية المشددة؛ خرجت الطبيبة من غرفة المستشفى وقالت: «ابنكم يعاني من ارتفاع خطير في

درجة الحرارة، نحن نحاول كل ما بوسعنا كي لا يدخل في غيبوبة، لقد أجرينا تحاليلا لدمه ووجدنا مادّة لم نتمكن من معرفتها بعد، ألا يتعاطى ابنكم أي دواء مخدر؟».

نظر الجميع إلى بعضهم البعض نظرة تساؤل وحيرة، ثم نطق أشرف أخيرا قائلا:

ـ «لقد كان أخي في الغربة لسنوات عديدة، ولم يأت سوى البارحة إلى هنا، لذلك فنحن لا نعلم حقا إن كان يتعاطى أدوية أم لا».

ـ «لكنك أخبرتني أنك قد كنت معه في الجزائر العاصمة، ألم تلاحظ عليه شيئا حينما استقبلته في المطار، أو حينما ذهبتما لرؤية تلك الفتاة في بابا حسن؟»، قالت أمه «بديعة» بقلق.

ـ «كلا، لم يتعاط أي شيء أمامي، ولم يبد عليه أي أمر مريب، كان حزينا وتائها، ولم يتكلم كثيرا».

مرت بضع ساعات قبل أن يستيقظ عبد الجليل، كان في كامل صحته وعافيته لدرجة أن الطبيبة صعقت لذلك، كانت جميع التحاليل التي أجرتها سلبية، فقامت بإعادتها مجددا ومجددا؛ قالت بحيرة: «يا إلهي! ما هذه المادة التي تظهر وتختفي كالشبح!».

رجع عبد الجليل إلى المنزل، وقضى مع عائلته أياما كانت كفيلة بأن تجعلهم يدركون أن هذا الإنسان ليس هو نفسه الشخص الذي غادرهم في شهر أوت من عام أحد عشر وألفين، وأدركوا أيضا أن تلك النوبات التي كانت تصيبه ليس لها علاقة بمرض جسدي معين، لقد وجدوا أنفسهم أمام مريض نفسي يعاني من الخوف والتوجس والهلوسة، شخص يكسر الأطباق عند كل نوبة قلق مفاجئة، يكلم أشخاصا غير موجودين، يبكي بألم في منتصف الليل، رجل لا بد وأنه يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة!

شرع عبد الجليل في العلاج لدى طبيب نفساني، وبعد عدة جلسات قال له: «لقد عالجت الكثير من المحاربين أمثالك يا بني وكلهم تماثلوا للشفاء، أما أنت، فحالتك مستعصية جدا، أنا لا أعلم فعلا ماذا حدث لك في المكسيك، وأي مافيا كنت ضمن شبكتها، وماذا فعلوا بك، الشيء الوحيد الذي أدركه هو أنك إن أردت العلاج حقا، فعليك أن تعود من حيث أتيت، ستجد الجواب حتما هناك!».

ـ «من المستحيل أن أعود إلى المكسيك! لن أفعل ذلك أبدا!»، قال عبد الجليل بنبرة شخص يعزم على فعل أمر ما وهو يعلم أنه خاطئ، فيحاول أن يترجى الطرف الآخر كي يثنيه عن عزمه بنظرة مستجدية؛ لكن الطبيب خذله قائلا:

«المكسيك هي حلّك الوحيد يا بني!».

قام عبد الجليل بتوضيب حقيبته، لم تثنه دموع أمه عن عزمه، أخبرها أنه معذب جدا مذ رجع إلى الجزائر، وأن عليه العودة إلى حيث بدأ عذابه علّه يجد الحلَّ والسبيل إلى الخلاص؛ بعد محاولات عديدة، تمنت له أمه حظا موفقا، بينما قال له أشرف: «أتظنني غبيا مثل أمي؟ لا بد أنك ستعود من أجل إحدى المكسيكيات! خذني معك إليهن أرجوك!».

ضحك عبد الجليل لأول مرة منذ عودته إلى الجزائر، ثم قبل أخاه الصغير؛ اتجه إلى المطار، ومنه إلى البلاد التي يدمنها كلُّ من يزورها، وما إن أقلعت الطائرة، حتى أحس براحة نفسية لا مثيل لها؛ صرخ قائلا: «تبا ماذا يحدث لي! أيمكن أن يدمن الشخص مكانا ما كإدمانه على المخدرات! ماذا فعل لي المكسيكيون الأوغاد! سأكتشف ذلك، وسأنتقم منهم شر انتقام! تبا لك يا تيخوانا، يا عاصمة الفساد!».

(٢)

كان القلق باديا على «الزعيم»، وهو يجوب مكتبه جيئة وذهابا، كان يدخن بشراهة، وينفث سحابات الدخان في كل مكان من الغرفة؛ دق الباب فجأة ودخل «رودولفو» قائلا:

ـ «سيدي! سيدي! لقد عاد عبد الجليل! لقد أخبرتك مرارا أن الأمر سينجح!».

ـ «ليباركك الرب أيها الذكي! لقد ظننت لوهلة أن خطتنا قد فشلت، قم بتعميم التجربة على باقي الأفراد، لن يغادر أحد ربوع وطننا المجيد!».

ـ «أمرك سيدي! عبد الجليل أدخل!».

ولج عبد الجليل مكتب الزعيم الذي رحب به ودعاه إلى الجلوس، ثم اتّكئ على الأريكة وخاطبه قائلا:

ـ «مرحبا بك عندنا مجددا، لقد اشتقنا إليك كثيرا، خلنا أنك لن تعود!».

ـ «كيف لا أعود يا سيدي؟ كيف لا أرجع إلى البلاد التي يسري حبها في فؤادي؟ كيف أترك المكسيك التي منذ أن وطأتها قدماي، وأنا حي سعيد بحياتي؟ كيف لا أَأُوب إلى بندقيتي التي منذ أن فارقتها، وأنا أحس أن روحي قد فارقت جسدي؟ كيف أبتعد عن رائحة البارود التي تنعش أنفاسي، وأختنق كلما ابتعدت عن عبيرها؟!».

ـ «ها هو ذا عبد الجليل الذي أعرفه! لقد اشتقنا إليك كثيرا أيها المقاتل الصنديد، أنا أعلم أنك قد تأثرت بموت صديقك، لكنني أدرك الآن أنك فخور به! لقد مات من أجل الولايات المتحدة المكسيكية، وهذا حلمنا جميعا أليس كذلك؟ بفضله أنتم اليوم أحياء؛ الرجال يحتاجون إليك يا عبد الجليل، سأقوم بترقيتك، وسأعطيك مكتب سيف، لأنني أعلم أنك تستحق حقا ذلك المنصب!».

ـ «شكرا جزيلا لك يا سيدي! أريد أن أبدأ العمل اليوم! أنا مشتاق كثيرا إلى هضاب المكسيك وسهولها!».

مكث عبد الجليل ساعات في غرفته وهو غارق في أفكاره: «ما الّذي يحدث لي بحق الجحيم؟ ماذا أفعل هنا؟

لما لا أعيش حياة عادية؟ ما الدافع الذي جعلني أختار هذه المهنة؟ لما لم يكتب لي الله أن أكون أستاذا مثلا؟ أُدرِّس التلاميذ خلال اليوم، وفي المساء أعود إلى زوجتي وأطفالي أداعبهم وألاعبهم، وفي عطلة نهاية الأسبوع آخذهم في نزهة إلى الحديقة، أو إلى أي منتجع سياحي آخر؟ ما هذا الإدمان على حياة القسوة؟ أهي سادية وحب للسيطرة والنفوذ؟ أم أنها مازوشية ورغبة في التألم والعذاب؟ أظن أن كروموزوم الإجرام يسري في دمائي! فما أنا سوى مجرم يحميه القانون!».

بينما كان عبد الجليل يحارب هذه الفكرة وتلك، إذا بالباب يدق بقوة، هرع لفتحه ليجد رودولفو حاملا في يده رسالة: «لقد أرسلك الزعيم في مهمة يا سيدي، هنالك زعيم عصابة استولى على فندق «Palacio Azteca»، وحجز رهائن هناك، والمطلوب هو استرجاع الفندق، وتحرير الرهائن، والقضاء على العصابة عن آخرها».

وهكذا كان الحال في مدينة تيخوانا، مجموعة من العصابات تمتلك المدينة، وكل عصابة تود توسيع نطاق حكمها، فتستولي على أملاك عصابة أخرى؛ لقد كان عبد الجليل يدرك جيدا أن الفندق الذي سيحرره ملك لزعيم عصابة ما، أي أنه ليست هنالك أي قضية شريفة في الأمر، لكن حب الهجوم الذي تولد بداخله، جعله لا يفكر في

الأسباب والدوافع، المهم أن هنالك معركة ستندلع، وسيكون هو ضمنها، ليس ضمنها فقط، بل سيكون قائدها!

قام عبد الجليل بارتداء بذلته، حمل سلاحه، نادى رجاله وصاح فيهم قائلا:

«بالأمس كنت قائدا لمجموعة صغيرة منكم، وهي بينكم الآن، الجميع يعرفني ويعرف سلوكي في المعارك والحروب، أنا لست من النوع الذي يأمرك بأن تتقدم نحو العدو، وهو يقف خلفك ليشاهدك كيف تموت، ولست من يحيط رجاله به لكي يؤمِّن حياته حينما يحمى الوطيس، ولست من يدخل القتال دون خطط محكمة تحرز له ولأفراده النصر الأكيد، أنا ذلك القائد الذي يتقدم على رأس رجاله في ساحات الوغى، المغوار الذي يحمي مقاتليه بصدره حينما يمطر الرصاص، المخطط المدبر الذي لا يقتحم المعارك الخاسرة!

مهمتنا اليوم مهمة سهلة، سهلة بقوتنا وشجاعتنا، بانضباطنا وحزمنا، بذكائنا وخبرتنا؛ سنقوم باقتحام فندق «Palacio Azteca» ، نقتل العصابة عن آخرها ونحرر الرهائن الأبرياء! أجيبوني من نحن؟!» صرخ الكل بصوت واحد:

ـ «نحن قوة جمهورية المكسيك العظمى!».

ركب الجميع في خمس سيارات رباعية الدفع، وانطلقوا بسرعة نحو الفندق، كان منظرهم مخيفا ببدلاتهم الخضراء، ووجوههم الملثّمة، وجسدهم المدجّج بالسلاح، فهذا مسدس مثبت على الرجل اليمنى، وذاك خنجر مثبت على الرجل اليسرى، وتلك أسلحة كلاشينكوف متكئة على أكتافهم، وذلك بريق في عيونهم: بريق الأسود حينما تهاجم طرائدها!

ما إن اقترب الفريق من الفندق، حتى بدأ الرصاص يتهاطل على سياراتهم المدرعة، قام الجميع بفتح تشكيلهم القتالي، وقفز كل مقاتل منهم من عربته نحو ساتر معين؛ صرخ عبد الجليل بكل قوته: «خوليو! التطويق!».

انطلق خوليو بسرعة البرق، واثبا من جدار إلى آخر، ومن شجرة إلى أخرى، وفريقه يتبعه بنظام يدل على احترافية مذهلة، وتدريب عالي المستوى؛ انقسم فريقه إلى قسمين، وقاموا بتشكيل تطويقٍ خانقٍ للفندق، صرخ قائلا: «انتبهوا للتعليمات!».

ـ «أوسكار ١٥! أوسكار ١٥ من ريكارد ٢!».

ـ «أوسكار ١٥ في الاستماع، أرسل يا ريكارد ٢!».

ـ «نفذ تايلاند ٢٠٠!».

صرخ خوليو في رجاله: «تايلاند ٢٠٠!»، وبدأ الجميع في إطلاق النيران دفعة واحدة بجانب أبواب ونوافذ الفندق، للتغطية على المجموعة الأخرى المعنيّة باقتحام المبنى، صرخ عبد الجليل في رجاله: «فهد ١!»، وهجم الجميع هجمة واحدة نحو واجهة الفندق، كانوا يحتلون سطرا واحدا، ويتقدمون بسرعة وبحذر، وما إن وصلوا إلى الجدار، حتى قام كل واحد فيهم برمي خطاف نحو شرفة الطابق الأول، وبدأوا بتسلّقه باستخدام حبل الخطّاف، وماهي إلا ثوانٍ معدودات، حتى وصل الجميع إلى نوافذ الطابق الأول، واستند كل مقاتل فيهم إلى جانب من جوانب النافذة؛ تمنى عبد الجليل من صميم فؤاده لو أن المعركة لم تكن فيها رهائن، فقد كان يود أن يرمي قنابلا هجومية يفتّت بها أجساد المجرمين! صرخ من جديد: «القنابل الدخانية!»، قام الأفراد المعنيون بكسر زجاج النوافذ، ورمي قنابل دخانية، ارتدوا الأقنعة الواقية، واقتحموا الغرف السفلية، وهنا بدأت العملية التي يعشقها كل مكسيكي أصيل، ألا وهي عملية التطهير!

بدأ الجميع يتقدمون ببطء من غرفة إلى أخرى، ومن رواق إلى آخر، يتبادلون إطلاق النار مع العصابة التي كان أفرادها يتساقطون الواحد تلو الآخر، فهم لم يكونوا جاهزين،

كونهم ظنوا أن فريق عبد الجليل سيتفاوض معهم، وسيعطيهم فدية لتحرير الرهائن، هم لم يعلموا أن المكسيكيين لا يتفاوضون مع المجرمين! المكسيكيون يقتلون كل من تسوّل له نفسه المساس بأمن وطنهم المجيد!

تمكن أغلب الرهائن من الهرب حينما بدأ الاشتباك، وتمكن الفريق من قتل جميع أفراد العصابة ماعدا زعيمهم ونائبه، التقى أحد رجال عبد الجليل بالنائب أمام السلالم المؤدية إلى الطابق الثالث، رمى هذا الأخير سلاحه ورفع يديه عاليا: «أنا أستسلم يا سيدي، الأمان! الأمان!»، قام المقاتل بأخذه إلى عبد الجليل:

ـ «سيدي، لقد استسلم، سآخذه إلى الخارج لاستجوابه».

ـ «ومن أنت لتقرر عني يا هذا؟! هل علي أن أعلمك دروس المرحوم سيف من جديد؟! لو أراد الاستسلام لفعل ذلك قبل اشتداد المعركة! هذا جبان! فرفاقه على الأقل ماتوا مقاتلين، أسلموا أرواحهم وهم يحتضنون بنادقهم؛ أنا لا أحترم من يرمي سلاحه، ويرفع يديه أمام عدوه! لما لم تقتله؟ هل تظن أن القنوات الإخبارية اللعينة تقاتل معنا، وتقوم في نفس الوقت بتصويرنا؟».

ـ «لا يا سيدي ولكن منظمة حقوق الإنسان تنص

عـلى....».

لم يكمـل الرجـل جملتـه، حتـى قـام عبـد الجليـل بإمسـاك المجـرم مـن شـعره، ووضـع خنجـره تحـت أذنـه، ثـم ذبحـه مـن الوريـد إلى الوريـد؛ قـام برميـه عـلى الأرض، ونظـر إلى الرجـل قائـلا: «تبـا لـك! وتبـا لحقـوق الإنسـان!».

اندهـش المقاتـل مـن تـصرف سـيده، لقـد أدرك أنـه ليـس أمـام نفـس القائـد الـذي عرفـه مـن قبـل، ذلـك الشـخص الـذي كان يؤنـب رجالـه إن هـم أسـاؤوا معاملـة جثـة!

تقـدم الجميـع نحـو الغرفـة الأخـيرة أيـن كان يختبـئ زعيـم العصابـة، قـام عبـد الجليـل بكـسر البـاب، ودخـل ليجـد الزعيـم ممسـكا فتـاة في ربيـع عمرهـا بيـد واحـدة، وواضعـا سـكينه عـلى رقبتهـا بيـده الأخـرى، صرخ قائـلا: «تقـدم خطـوة واحـدة وسـأطعن رقبتهـا الغضـة بخنجـري الحـاد!».

ـ «أطلـق سراحهـا وإلا جعلـت دماغـك المتسـخ يتناثـر عـلى السـجادة النظيفـة أيهـا الوغـد!».

ـ «لا بـأس إن تناثـر دماغـي مختلطـا بدمائهـا، ارمـوا أسـلحتكم وإلا ذبحتهـا!»، قـال زعيـم العصابـة ذلـك، وتعمـد جـرح الفتـاة كـي يـدرك الفريـق أنـه يتكلـم بجديـة، سـالت الدمـاء مـن الفتـاة التـي كانـت تبكـي وتـصرخ طالبـة الرحمـة:

«أرجوكم نفذوا ما يقول! لا أريد أن أموت!».

قام الجميع بخفض أسلحتهم ما عدا عبد الجليل، لقد كان يتذكر كل ما دربه عليه الزعيم في مثل هذه الحالات: «إذا كانت الطلقة الأولى هي الطلقة الأخيرة، فعليك ألا تضيعها وإلا حدثت الكارثة! ولفعل ذلك، عليك ألا تضغط بأصبعك على الزناد، عليك أن تضغط بروحك عليه!».

سدد عبد الجليل سلاحه جيدا نحو رأس زعيم العصابة، دعا الله أن يسدد خطاه، وقام بكل جوارحه بالضغط على الزناد، انطلقت الرصاصة من ماسورة سلاحه بسرعة، واستقرت بين العينين مباشرة، سقط زعيم العصابة قتيلا، بينما هربت الفتاة بسرعة، وارتمت تبكي بين أحضان عبد الجليل.

(٣)

اسمي ماروشكا، وأنا فتاة عادية في مقتبل العمر، أسكن بالجزائر العاصمة، وبالتحديد في بلدية «بابا حسن» بمقاطعة «الشراقة»، أعمل كمحاسبة في شركة أجنبية، متزوجة، ولدي طفلة صغيرة جميلة أسميتها «سهى».

حالتي المادية لا بأس بها، أو لنقل حالة والداي المادية، لأن حالتي سيئة جدا، وقد ازدادت سوءا منذ ذلك اليوم المشؤوم.

قبل زواجي، كانت علاقاتي الغرامية مضطربة جدا، وهذا حال أي فتاة جميلة في مقتبل العمر، كان جميع الشبان يعاكسونني، ويطلبون رقم هاتفي، لكنني لم أرتبط سوى بثلاثة رجال في حياتي: كريم، سيف، ومهدي!

لندع مهدي جانبا، ولنتحدث عن الرجلين الأولين،

وسأحدثكم بأمر خطير حولهما:

تعرفت على سيف قبل سنوات قليلة، وأحببته من صميم فؤادي، أحببت روحه وجسده، وأقسمنا معا على الوفاء، كان صديقي وحبيبي وكل شيء في حياتي، لكنه كان كأغلب الرجال الجزائريين: متسلطا!

لقد كان يتضايق دوما من طريقة لباسي وتصفيفة شعري، يمنعني من ارتياد المقاهي والصالونات، يعنفني إن قضيت يومي مع أحد أصدقائي وزملائي في الدراسة، ويحاسبني على أوقات دخولي وخروجي من المنزل!

وبما أنني ماروشكا، فقد كانت ردة فعلي أنني لم أتوقف عن ارتداء الألبسة القصيرة، ولم أضع غطاء على رأسي، وارتدت كل صالونات «دالي إبراهيم» و «الشراقة»، وقضيت معظم أوقاتي مع أصدقائي، وخرجت صباحا كيفما شئت ودخلت كيفما اتفق!

لا أدري ما خطب رجالنا حقا! يتركون المتحجبة، ويختارون من لا ترتدي الحجاب، ويفرضونه عليها! يتجنبون الماكثة في البيت، وينتقون العاملة ليوقفوها عن العمل! يبتعدون عن الرشيقة، ويفضّلون البدينة ليفرضوا عليها حمية غذائية!

لـديّ الكثـير مـن الصديقـات ممـن يرتديـن الحجـاب الشرعـي، وبعضهـن يمارسـن الرذيلـة مـن أجـل المـال، وأملـك صديقـات لا يرتدينـه مثـلي، وأغلبهـن عفيفـات طاهـرات.

أنـا لا أرتـدي الحجـاب، وهـذا هـو اختيـاري وقـراري، ولا أقبـل مـن أي شـخص آخـر أن يقـرر مـا عـلي أن ألبسـه بنـاء عـلى معتقداتـه الشـخصية، ففـي الأخـير سـيرقد كل بـشر فينـا داخـل قـبره وحيـدا!

إذن فجـوابي كان الرفـض، ورده كان الإصرار، وبـما أن الرجـال يقعـون في حـب تلـك التـي تقـول لهـم «لا»، ويتركـون مـن تقـول «نعـم» تنتحـب وراءهـم، فقـد قـرر سـيف التقـدم لخطبتـي، وذلـك مـا تـم؛ وبـما أن رياحنـا ضعيفـة، وسـفننا ذات خشـب مهـترئ وأشرعـة تالفـة، فقـد رفضـت أمـي فكـرة زواجنـا رفضـا قاطعـا، ومنـذ ذلـك الوقـت تغـير حبيبـي إلى الأسـوأ.

كان سـيف مقاتـلا، وكان كغـيره مـن المقاتلـين بعيـدا عـن أهلـه وحبيبتـه، كنـا نتراسـل بشـتى الطـرق والوسـائل، فبعـد أن كان يمطـرني حبـا وغـزلا، صـارت رسـائله مـلأى بالهواجـس والشـكوك، خاصـة وأنـه صـار يتعاطـى المخـدرات، والتـي تجعـل مدمنهـا يتخيـل أمـورا لا تحـدث، ويقنـع نفسـه بهـا، فصـار يتخيـل أننـي أخونـه مـع صديقـي كريـم، ويشـتمني ويعايـرني بكلـمات لا تصفنـي!

سيف يغار كثيرا من كريم، لأنه يعلم أنه قد كان حبيبي، ورغم انفصالنا، فقد بقينا صديقين، وسيف لا يؤمن بالحب الذي يستحيل إلى صداقة، رغم أنه الشخص الذي كان دوما يخبرني أن الحياة ليست منطقية، وأن المنطق ليس حياة!

بعد أن اكتشفت أن ما كان بيني وبين سيف قد تهدم، وأنه لا يمكن بناؤه مجددا، قررت أن أسلك طريقي الوحيد كي أنساه: أن أتزوج الرجل الوحيد الذي كان بجانبي طيلة الوقت: صديقي كريم!

كان كريم شابا كثير المال، ينتمي إلى الطبقة البورجوازية، وأكثر ما كان يعجبني فيه بعد أناقته، هو تفكيره المتفتح، فقد كان يحترم طيلة فترة علاقتنا قراراتي وأسلوبي في الحياة، وهذا ما كان يعوز سيف كثيرا؛ الشيء الوحيد الذي كان يمنع زواجنا هو الحب!

كنا نفتقد لشرارة الحب، تلك التي كنت أتشاركها مع سيف، ابتسامة اللقاء ولوعة الفراق، خفقان القلب، ارتجاف القدمين وقشعريرة الصدمة، كل شيء لذيذ في الحب حتى الألم! ومع كريم، كان كل شيء رتيبا، لا ثورة، ولا تضحية ولا جراح قلب !

اختفى سيف بعدها تماما من حياتي، بعد أن أذاقني الويل من حبه الغريب المتناوب، فتارة أحبني، وتارة كرهني، كان يخونني ثم يتهمني بالخيانة، كان يكذب علي في أمور كثيرة، كان يكلم دوما أختا له اسمها «منيرة» كما أخبرني، لأكتشف بعد اختفائه ألا أخوات له! لقد صدمني... ثم تركني!

إذا، فقد قررت الزواج، لكنني لم أستطع الارتباط بكريم لسببين: الأول لأنني لن أحبه، والثاني لأنه سيذكرني دوما بحبيبي الأبدي!

أخيرا تقدم إلي مهدي، وقرر أن يخطبني دون أن يراني، وسمى ذلك بـ «الزواج التقليدي»، وأخبرني أنه الحل الوحيد للاقتران، لأن آباءنا تزوجوا بنفس تلك الطريقة؛ كان سعيدا جدا ومؤمنا بما يقول، كما أنني كنت أوافقه الرأي نوعا ما، لأن الزواج التقليدي قد ستر الكثير من الشواطئ اللواتي ما كن ليرتبطن لولا أن رجالا ساذجين قد آمنوا بالقضية، وارتبطوا بهن دون علمهم بماضيهن، لذلك فسذاجة مهدي جعلتني أقول «نعم» دون أي تردد!

بعد أشهر من الزواج حدثت الكارثة، وأتى شاب كان يعمل مع سيف ليخبرني أنه قد استشهد في إحدى المعارك، كنت أظنه مقلبا قام به هذا الرجل حتى يرى ردة فعلي،

ويعلم بها صديقه كي يزيد من غروره، لكنني لم أدرك أنه قد كان يتكلم بجدية إلا حينما انصرف بفضاضة، حينها صرخت: يا إلهي! وسقطت مغشيا علي!

نهضت بعدها في مستشفى «مصطفى باشا» على صوت زوجي يناديني:

ـ «ماروشكا حبيبتي تكلمي قولي شيئا!».

ـ «سـ ...سيـ...ف... سيـ...ف».

ـ «أي سيف؟ لقد سقطت في مقهى، ولم تطعني بسيف!».

نظرت إليه مليا، واختلط الشعور داخلي بين التأسف على حبيبي الذي لم يفارق حبه فؤادي، والرثاء لحال زوجي الذي لا يعلم أنني لا أشاركه حبه، والتحسر على نفسي لأنني لم أستفسر من صديق سيف كيف مات وأين دفن، لذلك فقد أجهشت بالبكاء، وكم كان نحيبي مريرا!

مكثت في المستشفى أسابيعا أقنعَت زوجي بأنني هالكة لا محالة، أمسك يدي ذات يوم قائلا: «أطلبي أي شيء يا زوجتي العزيزة، كلّفيني بأي أمر قد يجعلك تتماثلين للشفاء وسأنفذه لك على الفور!».

نظرت إليه بدلال ممزوج بخبث: «أي شيء؟».

أجابني: «أجل حبيبتي أي شيء!».

نظرت إلى السماء لثوانٍ معدودة، ثم صوبت نظري نحوه بحزم قائلة: «إذن فلنسافر».

ـ «إلى أين يا حبيبتي؟».

ـ « إلى حيث تمكث روحي يا زوجي العزيز... إلى الولايات المتحدة المكسيكية!».

(٤)

حرر عبد الجليل جميع الرهائن، وأحصى جثث القتلى، ثم وضعهم مع رجاله داخل عرباتهم، وقفلوا راجعين نحو معسكرهم، كان سائق العربة الأولى يدخن بشراهة، وهو يقود بسرعة جنونية، لكن عبد الجليل لم يأمره بخفض السرعة كما اعتاد أن يفعل، بل أخذ يحدق نحو السماء بنظرة ثاقبة، الله يعلم ماذا كان يفكر، لكن وفي كل الأحوال، فقد قطعت الفتاة حبل أفكاره حين طلبت من السائق سيجارة، استدار هذا الأخير وتفحصها جيدا ثم قدم لها سيجارة وولاعة، قامت بإشعالها، أخذت نفسا عميقا ثم قالت:

ـ « اسمي نزهة الأحلام!».

ـ «ومن سألك عن اسمك؟» قال عبد الجليل والضجر باد عليه.

ـ «وأنا جزائرية من ولاية عنابة، أنت جزائري أيضا أليس كذلك؟».

ـ «ما دمت قد أتيت إلى تيخوانا، وتقطنين في ذلك الفندق، فلا يشرفني أنك جزائرية».

ـ «أنا لست شاطئا يا هذا! أنا ابنة مستثمر جزائري يمتلك هذا النزل، وفنادق أخرى كذلك!».

ـ «إذا فأنت ابنة لص».

ـ «لا تتّهم أبي بما لا يليق به!».

ـ «هاها، ابنة لص تتسول سيجارة!».

نظرت نزهة الأحلام بحنق نحو عبد الجليل، وآلمتها نظرة الازدراء التي رمقها بها، قامت برمي سيجارتها من النافذة قائلة: «شاطئ، وابنة لص تتسول سيجارة وترمي عقبها من النافذة لأنها عديمة التربية، ليكن كذلك!»، ثم وضعت سماعة الأذنين، وشرع المغني يصرخ خارج مجال السماعة بكلمات لن ينساها عبد الجليل:

«الأحلام الحلوة مصنوعة من هذا...

من أنا حتى أخالف الرأي؟

أسافر العالم والبحار السبع...

الجميع يبحث عن شيء ما!

بعضهم يريد أن يستغلك...

والبعض الآخر يريدك أن تستغله!

بعضهم يريد إيذاءك...

والبعض الآخر يريد أن يتأذى!».

دخل عبد الجليل إلى المعسكر برفقة رجاله والفتاة الغريبة نحو الزعيم، تمعّن فيها هذا الأخير بخبث قائلا: «نزهة الأحلام، ستمكثين معي، أفكر أن آخذك في نزهة بينما تأخذينني في أحلام!»، رد عبد الجليل بحزم: «هي ضيفتي يا سيدي، ولن تمكث معك أبدا!».

ـ «هاه؟ ومن تكون يا هذا حتى تعصي أوامري؟».

ـ «أنا لا أعصي أوامرك يا سيدي، أنا أذكّرك فقط بأنك لو أردت أن تأخذها، فسيكون ذلك على جثتي!».

ـ «حسنا! حسنا! لا تنفعل! الأمر بيدها، هي من ستختار برفقة من ترغب بالمكوث، ما رأيك يا سيدتي؟ هل تبقين معي لتنالي رغد العيش؟ أم تختارين صحبة هذا

المتوسط الحال؟».

نظرت نزهة الأحلام مليا نحو الرجلين ثم قالت مبتسمة: «أختار رفقتك أيها الزعيم!».

أنا أعلم ـ أيها القارئ الكريم ـ أنك قد كنت تظن أنها ستختار عبد الجليل، أنا أيضا كنت أتوقع ذلك، بل حتى قطي «كارلوس» خال أنها ستختاره، لكن الواقع دائما يسير عكس خيالاتنا، فالواقع يعبد المال، والمرأة ابنة الواقع!

نظر عبد الجليل إليها باستخفاف قائلا: «سلعة رخيصة أزيحت عن كاهلي».

اتجه بعدها إلى غرفته، قام بتفكيك سلاحه وشرع في تنظيفه، وفجأة، بدأ شريط حياته يمر أمامه بسرعة: جبال سييرا مادري، سيف، ماروشكا، الجثث المحترقة والدماء، أشرف، الوالدة، أم البواقي، الجزائر العاصمة، نزهة الأحلام، الموت من جديد!

«تبا! سينفجر رأسي! علي الترفيه عن نفسي!»، قام بتشغيل بيانات هاتفه، ودخل إلى تطبيق الفايسبوك، أخذ يتفحص بملل المنشور تلو الآخر، ووجد كالعادة الموضوعين الأكثر تداولا: «الكرة والدين»، حيث تشير الإحصائيات أن جميع العرب خبراء عالميين في كرة القدم، وعلماء دين،

مهمتهم الأولى إصدار الفتاوي، وتكفير من يخالفهم الرأي في تلك القضايا التي تعلموها أبا عن جد وتعصّبوا لها، وهم يشعرون اليوم بالخطر لأن الجيل الجديد أذكى منهم، أذكى بكثير من أن يؤمن بها!

أغلق عبد الجليل التطبيق بسرعة، وحين شرع بتغييره، سمع طرقا على الباب، قام بفتحه ليتفاجأ بأحد رجاله يدخل غرفته بقوة والشرر يتطاير من عينيه:

ـ «سيدي! علي أن أذهب إلى منزلي الآن!».

ـ «لكننا في مهمة أيها المقاتل، نحن ندافع عن الوطن!».

ـ «أريد أن أدافع عن شرفي! زوجتي تخونني الآن مع رجل آخر يا سيدي! زوجتي التي حرمت نفسي من الطعام والشراب واللباس سنوات لأدخر مبلغا من المال يكفيني لأتزوجها! زوجتي التي أتغرب من أجلها، وأعرض نفسي للموت كل يوم، ولقطع رجلي في كل مهمة لعينة! هي تخونني الآن مع من يمتلك سيارة أفضل من سيارتي، ويرتدي ثيابا أغلى من ثيابي! لما ندافع عن الوطن يا سيدي؟ أ من أجل ألا يأخذ العدو نساءنا غصبا عنا؟ ذلك يحدث لنا في كل مرة! ففي الوقت الذي نذود فيه عن أرضنا، يأتي الصديق ليسلب زوجاتنا عنوة! أريد أن أقتله يا سيدي! أريد أن أبطش

بـه وأفتـك بهـا! أي قلـب تمتلكـه هـذه المـرأة؟! كيـف تخـون رجـلا يخاطـر بحياتـه مـن أجلهـا، ومـن أجـل أبنائهـما؟! كيـف يسـتطيع رجـل مـا أن يقبـل بالدخـول في علاقـة مـع امـرأة متزوجـة؟! ألا يخـاف أن ينتقـم الـرب منـه، ويذيقـه مـن نفـس الـكأس التـي جعلنـي أشرب منهـا؟ وهـل سـينتقم الـرب منـه فعـلا؟ أم سـيتركه يفـر بفعلتـه كـما يفعـل أمثالـه كل يـوم؟ آسـف يـا سـيدي! لا أظـن أن الـرب سـينتقم لي! بـل إننـي لا أظـن أن الـرب موجـود أصـلا لكـي يحقـق العـدل! سـأذهب بنفـسي إليـه، وسـأنتقم منهـما حـالا!».

نظـر عبـد الجليـل بحـزن إلى هـذا الرجـل المحطـم، وتعجب كيـف أنـه يمكـن للمـرأة أن تدمـر رجـلا بهـذا الشـكل؟! هـل اكتفـت منـه؟ لمـا لم تطلـب منـه الطـلاق إذا؟ لمـا تعذبـه بخيانتهـا لـه؟ تجعلـه يفقـد إيمانـه بخالقـه، تتركـه في حالـة يـأس تتخطـى مرحلـة المـوت بمراحـل! لقـد أمـضى عبـد الجليـل سـنوات في المكسـيك، ورأى الكثـير مـن الحـالات المشـابهة، الكثـير مـن حـالات الانتحـار كان سـببها زوجـات خائنـات، ومـا أشـد طعنـة الخيانـة التـي تجعـل مـن صاحبهـا قتيـلا، أو قاتـلا أو كاتبـا!

وقـف عبـد الجليـل، ونظـر إلى رَجلـه البائـس وقـال بحـزم: «إن كنـت تريـد منـي المواسـاة فسأواسـيك كـما يفعـل النـاس مـع بعضهـم البعـض، أمـا إن كنـت تنشـد منـي الحقيقـة

فالخطأ خطؤك أيها الرجل الساذج! أتعلم من يضحي يا هذا؟ إنهم الأغبياء! التضحية هي كلمة خيالية تستخدم في الأفلام والمسلسلات والروايات يا صديقي! أما الواقع... الواقع سيء جدا وقاس! الكل يبحث عن أفضل فرصة له، والمرأة التي تجد حضنا أدفأ من حضنك، ستلجأ إليه عند أول فرصة تتاح لها! وستطير كالفراشة نحو من يمتلك مالا أكثر مما تملك، ونفوذا أقوى من نفوذك! المرأة التي لا تخون زوجها هي امرأة لم تجد فرصة لذلك فقط أيها الغبي! وإن أردت ألا تتعرض للخيانة، فعليك أن تنسى مصطلح «الثقة»! الثقة للمغفلين يا أخي! عليك أن تراقبها، وتراقب هاتفها، وتراقب صديقاتها وتراقب من يراقبها!

النساء لا يقعن في الحب مثلنا يا صديقي، النساء يقعن في حب المال والسلطة والنفوذ، هل رأيت كيف تتفاخر النساء برجالهن؟ إنهن يتفاخرن براتبهم، ومهنهم، وسياراتهم، ومنازلهم! لم أر يوما في حياتي امرأة تفتخر برجلها كونه وفيٌّ صادق، أو لأنه يهتم بها!

هل تريد أن تنتقم منها؟ هل تريد أن تقتلها كما قتلتك؟ طلّقها! ولا تكتف بذلك! تزوج امرأة أصغر منها سنا، وأجمل منها! إنها الطريقة المثلى لإرسال امرأة إلى الجحيم!».

تأثر الرجل كثيرا بما قاله قائده، قام بتحيته شاكرا إياه

على النصيحة، ثم خرج متثاقلا، وأغلق الباب وراءه بحزن، تذكر عبد الجليل صديقه سيف، وكيف ضحى هذا الأخير بحياته من أجل ماروشكا، وفي الأخير خدعته مع رجل آخر لأنها لم تحتمل بعده عنها.

تذكر صديقه عماد، ذلك الشاب الذي حرم نفسه من ملذات كثيرة، وادخر أموالا ليتزوج صديقته خولة، وفي ليلة عرسهما اكتشف أنها لم تكن عذراء، وتألم كثيرا لأنها لم تكن صريحة معه في البداية، مما جعله يعاني من أزمة قلبية جعلته يفقد عمله، ثم بعد ذلك زواجه.

تذكر رشيد، ذاك الشاب الذي كان سعيدا بزواجه، إلى أن وصلته صور غير محتشمة لامرأته على تطبيق «فايبر»، نسيم الذي اكتشف أنه ليس الوالد البيولوجي لأبنائه، رحيم الذي أبلغه جيرانه أن زوجته تستقبل حبيبها كلما ذهب إلى العمل، وكثير من الرجال الذين وثقوا، فتعرضوا للخيانة من طرف نساء لا عهد لهن ولا ذمة ولا ضمير، وهل للنسوة عهود وذمم وضمائر؟!

أحس عبد الجليل بالضيق الشديد، فقرر النزول إلى شوارع تيخوانا، ارتدى ثيابه، ونزل السلالم الممتدة من غرفته نحو ساحة المعسكر، انتقل بعد ذلك إلى موقف السيارات، أين ركب سيارته، واتجه نحو شوارع مدينة الفساد!

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، أين أوقف السيارة أمام حانة «Pub UNI»، وهي حانة شهيرة ببيع الكحول فقط دون الأطعمة، جلس على الكرسي بجانب المنضدة، طلب كأس مارتيني، وقام بشربه بسرعة فائقة، ثم طلب كأسا آخر كان له نفس مصير صاحبه، ثم آخر فآخر، إلى أن سمع صوتا بجانبه: «أظنك تنوي أن تثمل الليلة أيها الوغد!».

استدار ليجد أمامه فتاة رشيقة بثوب أحمر يكشف عن سيقانها الجميلة، عينان سوداوان تحملان نظرة جريئة، وشعر أسود طويل، رطب وكثيف؛ صرخ قائلا: «نزهة الأحلام!».

ـ «أجل بلحمها فقط! لأنني لا أمتلك شحما!».

ـ «ماذا تفعلين هنا؟».

ـ «ماذا تفعل أنت هنا؟».

ـ «واضح جدا أنك جزائرية، فأنت تجيبين عن السؤال بسؤال آخر مشابه!».

ـ «وواضح بأنك جزائري، لأنك تصلي وتتعبد داخل الجزائر، وتسكر وتعربد خارجها!».

نظر إليها عبد الجليل بنظرة شديدة، ثم استدار

نحـو كأسـه غـير مبـال بهـا، قامـت بطلـب كأس هـي الأخـرى وأخـذت ترتشـفه ببـطء، نظـرت نحـوه بفضـول وقالـت: «هـل تجيـد الرقـص أيهـا المحـارب؟ أم أن كل مـا تجيـده هـو القتـل؟».

ـ «أجيد الرقص وأحبه، لكن ليس معك!».

ـ «لنختبرك إذا!».

قامـت بجذبـه عنـوة مـن يـده بحركـة خفيفـة، وأخـذت ترقـص بجنـون عـلى أنغـام أغنيـة «Dance monkey» للمغنيـة «Toni Watson»؛ وجـد عبـد الجليـل جسـده فجـأة في منتصـف الحانـة، فلـم يتمالـك نفسـه، وأخـذ في مجـاراة نزهـة الأحـلام في جنونهـا، وشرع الاثنـان في الرقـص بجنـون، في حـين بـدأ الجميـع ينضـم إليهـما تدريجيـا، لتنتقـل حانـة «Pub UNI» البسـيطة إلى ملهـى ليـلي بفضلهـما!

الوحيـدان اللـذان لم ينضـما إليهما همـا: أليخانـدرو وإدواردو، كانـا يجلسـان بهـدوء عـلى طاولـة بعيـدة نوعـا مـا عـن منضـدة الحانـة، قـام أليخانـدرو بإشـعال سـيجارة، وأخـذ منهـا نفسـا عميقـا، ثـم قـام بإطـلاق سـحابة دخانيـة كثيفـة مـن فمـه، واسـتدار نحـو صديقـه قائـلا: «هـل سـتتمكن مـن فعـل ذلـك حقـا؟»، أجابـه إدواردو مسـتنكرا: «وهـل أخطـأ أبوهـا يومـا مـا في حكمـه؟!».

(٥)

اسمي نزهة الأحلام، وعمري اثنان وعشرون سنة، ولدت بمدينة عنابة بالجزائر، أمي أستاذة لغة إيطالية، وأبي رجل أعمال ناجح، كنت محظوظة بالسفر خارج البلاد، وزيارة العديد من البلدان، وهذا نظرا لطبيعة عمل أبي، واضطراره للسفر مرة واحدة على الأقل كل ستة أشهر.

السفر وزيارة دول أخرى هو بمثابة الخروج من الظلام إلى النور، فحين تختلط بثقافات مغايرة لثقافتك، وديانات تختلف عن دينك، وعادات تتنافى مع عادات قبيلتك، حينها فقط تستطيع أن تتكلم بموضوعية عن الدين والعادات والثقافات.

اكتشفت من خلال زيارتي للعالم أننا نمتلك عادات خاطئة وأخرى جيدة، فقمت بالمحافظة على كل ما هو جيد، ونبذت الخاطئ واستأصلته من نفسي، غير عابئة بما غرسَته

في طفولتي أستاذتي المسكينة التي لم تر طيلة حياتها أكثر من قريتها.

انتقلت مؤخرا إلى المكسيك، حيث يملك والدي سلسلة من الفنادق هناك، أخبرني أبي أنه سيقوم بتوظيفي، لكنه لم يُعلمني عن نوعية الوظيفة إلا بعد أن وصلنا إلى الفندق، كان والداي في المكتب، حيث بدا أبي منزعجا من أمي، بينما كانت هي تصرخ في وجه رجل، وتكلمه باللغة الإيطالية، وكأنها تلومه على أمر ما؛ أمرني أبي أن أخرج من المكتب كما اعتاد أن يفعل كلما كانت هنالك مشاكل تخص العمل، ذهبت إلى غرفتي، وجهزت نفسي للدخول إلى الحمام، لكنه دلف إلى الغرفة مسرعا والقلق باد عليه، نظر إلي بتوجس ثم قال:

«ابنتي العزيزة، أنت تعلمين أن أباك يمتلك الكثير من المال والجاه، لكن هذا الأخير لم يسقط علي من السماء يا حبيبتي، لقد عملت بكد... بكد لدرجة أنني انخرطت في كل الجمعيات، وفي جميع المنظمات، وأنا الآن في منتصف الطريق، ولا أستطيع سوى المضي قدما.

خلاصة القول هي أنني أعمل مع أشخاص خطيرين، مجرمين يريدون إيذائي وإيذاءك وإيذاء أمك، لقد كنت قويا لأمنعهم من ذلك، وكانت أمك أيضا شجاعة لتصدّهم،

وذلك بمشاركتها لي في أعمالي، وأريد منك أن تكوني أنت أيضا شديدة مثلنا!».

ـ «هل تقصد...».

ـ «أجل يا صغيرتي، يجب أن تشاركينا في العمل حتى تحمي نفسك، كما أنني أريد أن أسند لك مهمة لا أثق بغيرك في تنفيذها!»، نظر إلي بحزم وقال: «أريدك أن تعملي كجاسوسة بغطاء عاملة تنظيف في الفندق، وتمديني بجميع المعلومات السرية حول ضيوفنا الخاصين!».

يمكنني أن أخبركم أن الفترة التي تلت هذه المحادثة كانت هي مرحلة نضوجي، حيث وجدت نفسي بعدها في عالم لم أكن أظن أنه موجود حقا في الواقع! كان التخطيط لتنفيذ جميع الاغتيالات السياسية ينفذ في الفندق، وكنت جزءا لا يتجزأ من كل عملية، لقد كان ضميري يؤنبني كلما قُتل شخص ما، وكانت أمي تعزيني دائما بأنهم أشرار، ويستحقون ذلك؛ نحن من نحقق العدل للفقراء والمساكين ونقتص لهم ممن ظلموهم، هكذا قالت أمي، وهكذا قال لها أبي، لكن لنكن صريحين، فعائلتي ليست «روبين هود» كما كنت أعتقد، لقد اكتشفت بعد مدة وجيزة أننا لسنا سوى عصابة أخرى من عصابات هذا العالم القاسي، وأن الشر والخير أمران نسبيان يحددان بالإجماع، وبما أننا أجمعنا على أن

سفك الدماء خير، وبررناه معا، فليكن كذلك! المهم أنني أستمتع بمهنتي!

على الرغم من ذلك، فأبي لم يكن يمدني بجميع المعلومات حول عملياتنا، فحتى بعد عملية الفندق الأخيرة، والتي ضحى فيها بمجموعة كبيرة من المقاتلين في سبيل اختبار شاب جزائري يدعى «عبد الجليل»، لم يمدني قط بمعلومات دقيقة، لقد قال فقط أنه لو نجح حقا في اقتحام الفندق، وقتلِ الجميع، وتحرير الرهينة المزعومة ـ أنا طبعا ـ فهذا يعني أن الشائعات صحيحة، وأن عبد الجليل سيكون مفتاحنا لصنع جيل جديد من المقاتلين الأشداء، لم أفهم ما علاقة هذا بذاك، ولم يعطني أبي معلومات كثيرة حول هذا الموضوع، خلاصة القول أنني قد كلفت بمراقبته عن كثب، وانتظار التعليمات لتنفيذها، كنت أظن أن مهمتي ستكون اغتياله، إلى أن صدمت حينما أُمرت أن أتحصل على عينة من دمه! كيف سأفعل ذلك بحق الجحيم؟! خاصة وأن هذا الشاب متكبر وعنيد، وهو كأغلبية الشبان الجزائريين، يظن نفسه من طينة أسمى من طينة العالم أجمع!

على كل حال، فقد ترصدته جيدا، ولحقت به إلى إحدى الحانات التيخوانية، اقتنصت فرصة كونه مخمورا، ومارست سحري الأنثوي عليه، دعوته إلى الرقص ورقصنا! تبا! كم

أعشق الرقص! أحس أنه الوتد الذي نتشبث به حينما نغرق!
ويؤسفني... يؤسفني أن أعترف لنفسي، ولكم، ولكافة هذا العالم اللعين، أنني حقا أغرق!

(٦)

نظر مهدي إلى ماروشكا بدهشة، وصرخ قائلا: «أتقصدين المكسيك!».

ـ «أجل، المكسيك يا حبيبي!».

ـ «وماذا نفعل هناك بحق الجحيم!».

ـ «أريد زيارة هذا البلد، خذني إليه أرجوك، أو دعني أتلاشى.... ثم أموت!».

ـ «لا تقولي هذا من فضلك! أفضل الموت مائة مرة على أن تصابي بخدش يا أميرتي! سنذهب إلى المكسيك فورا، وإلى المريخ إن أردت ذلك! أنا أحبك يا ماروشكا! أحبك حبا طاهرا لا تشوبه شائبة! أحبك حب الزوج لزوجته، وهو حب مقدس يفوق حب الحبيب طهارة وصدقا ونقاء!

أحبك، حيث لا أستطيع أن أرفض لك أمرا، أين تكمن سعادتي في تلبية رغباتك، وتنفيذ أوامرك بحذافيرها؛ سعادتك تسعدني، وراحتك تشعرني بالرضا، وحماسك يبث الروح في جسدي!

لقد كانت سعادتي فيما مضى تكمن في شراء معطف جديد يقيني لسعات البرد القارسة، أما بعدما أحببتك، صارت تتجسد في شراء معطف لك كي يدفئك، لا يهمني إن لسعني البرد، فأنا لا أحس به ما دامت حبيبتي دافئة!

ابتسمي يا حبيبتي، أرني ثغرك الباسم، فهو روحي وحياتي ورغبتي وآمالي!».

نظرت ماروشكا نحوه نظرة عميقة وابتسمت، كانت ابتسامتها خارجية فقط، لأنها كانت تحس بالشفقة نحو هذا الرجل الملائكي، كانت تدرك أنه يستحق امرأة أفضل منها، زوجة تحبه بنفس القوة، ونفس الشغف! لا امرأة قلبها معلق بحب رجل آخر، أنثى فقدت عذرية قلبها قبل سنوات، وما ارتباطها بمهدي اليوم سوى إتمام لسنة الحياة الشقية!

خرج الاثنان من المستشفى، واتجها نحو سفارة المكسيك في «بن عكنون»، أتما إجراءات السفر، وانتقلا إلى المطار، ومن هناك نحو المكسيك عبورا بالمحيط الهادي؛ كانت ماروشكا

تشاهد زرقة المياه من نافذة الطائرة، وأخذت تتخيل ما يتخيله جميع ركابها لكنهم لا يعترفون به: نداء من قبطان الطائرة يصرح فيه أن هنالك خللا تقنيا فيها، ويدعو الركاب إلى التحكم بأعصابهم إلى أن يتم التعامل مع المشكل؛ بعد ذلك تبدأ الطائرة في الاهتزاز يمينا وشمالا منذرة بعدم الاستقرار، يليها انفجار في المحرك الأيمن، وحالة هلع قصوى بين الركاب، بينما تبدأ في السقوط بسرعة نحو سطح البحر تحت تأثير الجاذبية، تشاهد ماروشكا من النافذة نارا تلتهم الجناح الأيمن، تراقب مياه المحيط فتراها تقترب أكثر فأكثر، ثم فجأة، يحدث الاصطدام! يرتطم جسم الطائرة بسرعة بسطح البحر فتنفجر جميع المحركات، ويشتعل غاز الكيروزان ليحرق ماروشكا، ومهدي، وقبطان الطائرة، ومضيفة الطيران، وجميع الركاب البائسين!

انتبهت فجأة على صوت القبطان: «سنبدأ بالنزول في مطار «مكسيكو سيتي»، على جميع الركاب ربط أحزمتهم جيدا، والتقيّد بشروط الأمان»، شرعت الطائرة في الهبوط تدريجيا إلى أن وصلت إلى أرضية المطار، نزل الركاب، واتجه الزوجان نحو فندق «Ibis»، أين استأجرا غرفة لمدة يوم واحد؛ نظرت ماروشكا نحو مهدي نظرة تملؤها السعادة وقالت: «هل تعلم أنني جميلة الجميلات؟»، أجاب مهدي: «أجل يا حياتي! وأكثرهن إغراء!».

قضى الزوجان ليلتهما هناك، وكانت هذه هي ليلتهما الأولى مع بعضهما فقط منذ أن رُزقا بابنتهما «سهى»، لقد تركتها ماروشكا لدى أمها في الجزائر لأنها تمتلك مهمة تسترعي كل انتباهها: ألا وهي البحث عن عبد الجليل؛ كونها علمت بعد اتصالات هاتفية عديدة أنه قد رجع مجددا إلى المكسيك، وهي تريد أن تستعلم منه عن توأم روحها سيف، وإن كان قد توفي حقا، أما إن كان حيا يرزق، فأين هو الآن؟

استيقظت في الصباح الباكر، ارتدت ثيابها، ونزلت مسرعة نحو شوارع المدينة، اقتضى منها الأمر نصف يوم و ثلاثة آلاف بيزو مكسيكي رشوة لمصالح الأمن والسفارة، لتعرف أن عبد الجليل يتواجد في ولاية «باخا كاليفورنيا»، وبالتحديد في مدينة «تيخوانا»، عادت إلى الفندق متحمسة، فوجدت مهدي قد استيقظ، نظر إليها نظرة استنكار ودار بينهما الحوار التالي:

ـ «أين كنت يا حبيبتي؟ لقد أفزعني غيابك المفاجئ، اتصلت بك مرات عديدة، لكنك لم تردي على أي من مكالماتي».

ـ «لقد كنت أبحث عن مدينة جميلة لنزورها، وقد وقع اختياري على مدينة تيخوانا».

ـ «ماذا؟! تيخوانا؟! هل أنت مجنونة؟!».

ـ «هل تعرفها؟».

ـ «ومن لا يعرف مدينة الشيطان؟! إنها أكبر مرتع للإيدز والشذوذ والمخدرات! إنها مكان اللصوص والمجرمين، حيث لا وجود للدولة إطلاقا! حتى أنها قد حققت رقما قياسيا في موسوعة غينيس للأرقام القياسية كالمدينة الأكثر إفسادا وفسادا بالعالم! كما أن كافة الدول تحذر من الذهاب إليها!».

ـ «أنا لا أعرفها، لكنني أنوي ذلك، سنذهب إليها بالطائرة لأنها بعيدة جدا عنا الآن، وسنقضي تجربة رائعة هناك!».

ـ «أبعدي هاته الفكرة عن رأسك حالا، لأننا لن نذهب أبدا إلى تلك المدينة! أنا زوجك وأنا من أقرر! وقد عزمت على أن نقضي العطلة في مكسيكو سيتي، ونرجع بعد أسبوع إلى الجزائر! هذا قراري الأخير ولا رجعة فيه!».

***

نزلت الطائرة مجددا على أرضيتها الملساء، ولكن هذه المرة في مطار تيخوانا الدولي، كانت ماروشكا تهرول بسرعة ممسكة يد زوجها الذي بدا على وجهه عدم الرضا، كانت

تبتسم له بين الحين والآخر، وهو يرد عليها بابتسامة مقتضبة، ففي الأخير تفعل القطة ما تشاء، وقد كانت هي قطة من النوع الأعند!

ذهبا بعدها إلى فندق «Pueblo Amigo»، أين حجزا غرفة هناك؛ قامت ماروشكا بطي ثيابها وتوضيبها داخل الدولاب، بينما شغل مهدي جهاز التلفزيون وأخذ يشاهد قناة النجوم «El Canal de las Estrellas»، التابعة لمجموعة «تيليفيزا» المكسيكية، نظر إلى ماروشكا قائلا: «ألا يتكلم أي منهم الفرنسية؟»، أجابته: «للأسف، لا يوجد عملاء فرنسا في حكومتهم!»، استدار نحو التلفاز وقال بحزن: «حسنا، سأشاهد بعض الأغاني الأجنبية في قناة أخرى علّي أفقه شيئا ما!».

ابتسمت ماروشكا وهي تشاهد هذا الطفل الكبير، تذكرت فجأة أنها لم تأت إلى هنا من أجل أن تشاهد التلفزيون، أو لتستمتع بمسبح الفندق أو بملهاه الليلي، هي الآن هنا للبحث عن عبد الجليل، ولن تترك تيخوانا إلى أن تجده!

قامت بالاستحمام، ثم خلدت إلى النوم، وفي الصباح الباكر هرعت إلى شوارع الفساد؛ المدينة هنا خطرة، وأي حركة خاطئة قد تؤدي إلى هلاكها، كانت النسوة أشد صرامة وفسادا من الرجال، لذلك فقد كانت تخشى الاحتكاك بهن؛

اقتربت منها إحدى شواطئ الشارع وقالت لها: «أيتها الأجنبية، لا بد أنك مثلية، خمسون بيزو وسأكون من نصيبك الليلة!»، استدارت ماروشكا نحوها لترى مأساة في جسم فتاة: شعر باهت مصبوغ بالأصفر، عينان مريضتان بجفون زرقاء متهدلة، بشرة متآكلة تميل إلى الاصفرار، وساقان نحيلتان تنمّان عن سوء التغذية، بهما آثار زرقاء لاعتداءات سابقة!

أحست بالشفقة اتجاهها، فأعطتها عشرين بيزو قائلة: «تفضلي يا آنسة، أنت جميلة جدا! لا أريد شيئا، شكرا لك».

ـ «لكن ماذا تريدين في المقابل؟ مخدرات؟».

ـ «كلا، لا أريد شيئا، اعتني بنفسك فقط».

ـ «ولكن... هذا غير معقول!».

استدارت ماروشكا، ابتسمت لها، وذهبت في صمت! أما فتاة البغاء، فقد ثبتت في مكانها محاولة فهم ما حصل، فهي لا تعلم أنه يمكنها أن تنال شيئا ما دون مقابل في هذه الحياة، وهذا الدرس قد أتعب تفكيرها؛ وضعت الأموال في جيبها متمتمة: «فتاة مجنونة!».

في نفس الوقت، توقفت سيارة كاديلاك سوداء اللون، ونزل منها شاب قوي البنية، بوشوم كثيرة في كتفه ورقبته،

ومـا إن رأتـه الفتـاة حتـى أخرجـت الأمـوال مجـددا مـن جيبهـا وأعطتـه إياهـا، حمـل النقـود بيـد وحملـق فيهـا، ثـم قـام بصفعهـا بقـوة بيـده الأخـرى، وقـام بإمسـاكها مـن شـعرها، وأخـذ يجرهـا نحـو الطريـق قائـلا: «هـل هـذا كل مـا جمعتـه أيتهـا القـذرة! إن كان جسـدك لا يصلـح للبيـع مجـددا فالأجـدر أن أُقطّعـه وأرميـه إلى الـكلاب!»، أخـذت الفتـاة تبكـي وتـصرخ متوسـلة: «أرجـوك يـا سـيدي، اغفـر لي! سـأحاول جمـع مـال أكثـر، لا تقتلنـي أرجـوك، ابنتـي تتضـور جوعـا، وليـس لديهـا مـن يعيلهـا سـواي!».

ـ «أحضريهـا إذن لتعمـل مكانـك، لعلهـا تعوضنـا عـن الخسـارة التـي كبدتنـا إياهـا!».

ـ «لكنهـا صغـيرة يـا سـيدي! هـي لم تتجـاوز الثانيـة عـشر مـن عمرهـا!».

ـ «لا بـأس يـا شـاطئ! هنالـك الكثـير مـن الزبائـن ممـن يشـتهون اللعـب مـع فتيـات في ذلـك العمـر، أحضريهـا إلي، أو إننـي أعـدك أنهـا لـن تـراك مجـددا أبـدا!».

قـال ذلـك، وقـام بدفعهـا بقـوة، ترنحـت ثـم سـقطت عـلى الأرض وهـي تبكـي بحرقـة، نظـرت إلى السـماء وصرخـت قائلـة: «أيـن أنـت أيهـا المخلـص؟ إن كانـت هنالـك عدالـة في السـماء فلـما لا تنـزل؟!».

(٧)

أكمل عبد الجليل ونزهة الأحلام رقصتهما، ثم رجعا مجددا إلى المنضدة، قالت له متصنّعة التعب: «أظن أن الوقت قد تأخر، وقد نالت مني السكرة مبلغها، ولا أظن أنه يمكنني أن أقود السيارة، هل تستطيع أن توصلني إلى المنزل؟».

ـ «كلا لا أستطيع ذلك».

ـ «سأطلب من رجل آخر إذا».

ـ «أجل، افعلي ذلك».

كانت جميع خططها الأنثوية تفشل فشلا ذريعا أمام لامبالاة عبد الجليل بها، واختلافه عن باقي الرجال، نظرت إليه مليا ثم قالت: «ما رأيك بخمسين بيزو إذا؟»، أجابها مبتسما: «هنالك حلان بسيطان لهذه الحياة، الويسكي والمال، وقد تشرفتِ يا سيدتي بتقديم إحديهما!».

قام بتشغيل سيارته، وانطلق بها سالكا طريق العودة باتجاه «الزعيم»، لكن نزهة الأحلام طلبت منه تغيير الوجهة إلى الفندق، نظر إليها باستنكار متهكما:

ـ «هل رماك إلى الشارع؟».

ـ «الأمر لا يهمك، خذني إلى فندقي اللعين!».

ضحك عبد الجليل باستهزاء، وقام بزيادة السرعة على الطريق السيار، وفجأة، ارتمت الفتاة على مقود السيارة، وقامت بجذبه بقوة نحو اليمين، صرخ قائلا: «ما الذي دهاك يا شاطئ! سوف تقتلينا!»، بدأت السيارة بالانحراف يمينا وشمالا، حاول جاهدا السيطرة عليها لكنه فشل في ذلك، انحرفت في الأخير نحو عمود كهربائي، واصطدمت فيه بقوة، ارتطم رأسه بالمقود حين توقفت السيارة، وتوقف معها وعيه عن الإدراك.

استيقظ ليجد نفسه في مستشفى «Angeles»، كان مستلقيا على السرير وسط العديد من الأجهزة الطبية التي كانت مرتبطة بجسده الجريح، نظرت إليه الممرضة مبتسمة، وقالت بسعادة:

ـ «حمدا لله على سلامتك يا سيدي».

ـ «ماذا حدث؟ أين نزهة الأحلام؟».

ـ «أنا لا أعرفها يا سيدي، كل ما أعلمه هو أنه قد تم العثور عليك داخل سيارتك المحطمة في وقت متأخر من الليل، كانت الطريق فارغة تماما، ولولا أن سائق إحدى الشاحنات قد عثر عليك قبل اشتداد النزيف، لكنت الآن في عداد الموتى لا سمح الله!».

ـ «لكن نزهة الأحلام.... هنالك فتاة... قد كانت معي... وقد...».

ـ «لقد كنت وحيدا في السيارة يا سيدي، إنه اضطراب ما بعد الصدمة، وهو يحدث لجميع من يستيقظون بعد حادث ما، لا بد أن الأمور قد اختلطت عليك فقط!».

كان عبد الجليل يدرك أن ما يتذكره واقع وليس خيالا، لقد كان برفقة تلك الفتاة الشقية، وقد قامت بجذب مقود سيارته، مما سبب له هذا الحادث، لكن، لماذا فعلت ذلك؟ وإن أرادت قتله مثلا، فلما عرضت حياتها أيضا للخطر؟ أين هي الآن؟ وماذا حدث لها؟ تبا! هل يعقل أن الخمر قد لعب بعقله حقا لدرجة أنه تخيل كل ذلك؟!

استغرق مليا في التفكير، ولم يقطع حبل أفكاره سوى رجل الشرطة الذي خاطبه قائلا: «سيدي، لقد أظهرت

التحاليل وجود نسبة كحول في دمك تفوق النسبة القانونية المسموح بها، أنت رهن الاعتقال بتهمة القيادة في حالة سكر، وتعريض حياتك وحياة الآخرين للخطر، سيتم أخذك إلى مركز الشرطة بعد معالجتك، أتمنى لك الشفاء العاجل، إلى اللقاء!».

قضى عبد الجليل أياما في المستشفى، أين اعتنت به الممرضة كأخ عزيز لها، وهذا حال جميع الممرضات في العالم، مما يميزهن كثيرا عن الطبيبات اللواتي يستقبلنك بوجوههن العابسة، كأنهن حبيباتك السابقات!

بعد شفائه، انتقل إلى مركز الشرطة، ثم بعد ذلك إلى المحكمة، أين خرج منها بكفالة تقدر بألفي بيزو دفعها الزعيم عنه، استدعاه بعدها ووجه له اللوم قائلا:

ـ «هل أنت غبي أم مغفل؟ تركت في يوم واحد شاطئا كادت أن تقتلك، وقاضيا فاسدا كاد أن يسجنك! هل أنت مراهق يا هذا؟! أين هي فراستك بحق الإنجيل! لقد قمت بطرد تلك الشاطئ بعد يوم واحد من مكوثها معي لأنني أدركت في الحين أنها جاسوسة لعصابة ما، أما أنت فتراقصها وتأخذها في جولة في سيارتك اللعينة! أنت في تيخوانا يا سيد ولست في الفاتيكان! لا أحد يعرف الرحمة هنا سوى المجانين! عليك أن تشك في كل شخص وترتاب

مـن كل كائـن! العصابـات هنـا تـأكل بعضهـا البعـض، ولا سـبيل للسـيطرة عليهـا إن أنـت أغمضـت عينيـك، ووثقـت بمـن يمـشي عـلى رجلـين! أنـت قائـد يـا عبـد الجليـل، ومقاتـل فـذ، أنـت مـن تحمـل السـلاح وتقطـع الهضـاب والجبـال! لـو كنـت أحـد المختشـين الذيـن يعملـون في المكاتـب، وكلهـم غـرور بمنصبهـم الـذي يخجـل منـه كل رجـل حقيقـي لقبلـت منـك تصرفـا كهـذا! لرضيـت أن تغافلـك امـرأة، وتحـاول قتلـك لـولا سـماحة الـرب! عـلى كل حـال، سـأخصم الكفالـة التـي دفعتهـا بالتقسـيط مـن راتبـك، وعليـك أن تعمـل بكـد وإلا تخليـت عنـك، تذكـر جيـدا يـا هـذا ألا أحـد مهـم في هـذه الحيـاة، وأن العمـل يسـتمر بـك أو مـن دونـك!».

خـرج عبـد الجليل مـن مكتـب الزعيـم والأسـئلة والهواجس تلتهـم رأسـه: لمـا أرادت تلـك الفتـاة قتلـه رغـم أنـه هـو مـن أنقذهـا مـن المـوت المحتـوم؟ ومادامـت لا تمتلـك أي دافـع لقتلـه، فمـن دفعهـا لفعـل ذلـك؟ وأيـن اختفـت بعـد الحـادث؟ كل مـا يعرفـه هـو أنـه يجـب عليـه أن يجـد نزهـة الأحـلام ويسـتجوبها، لأنـه لا يسـتطيع العيـش بـكل تلـك العلامـات الاسـتفهامية في حياتـه.

(٨)

كانت نزهة الأحلام مستلقية على فراشها، وعيناها مستقرتان على ثريّا الغرفة، وبجانبها أمها تقوم بتغيير الضمادات العديدة التي كانت تملأ جسمها، كانت تنظر إليها بشفقة حينما دار بينهما الحوار التالي:

ـ «بنيتي! ما كان عليك أن تفعلي هذا بتلك الطريقة، كدت أن تودي بنفسك إلى التهلكة!».

ـ «المهم أنني فعلتها، العمل قبل كل شيء، هكذا علمتموني».

ـ «هكذا علمك أبوك! لا شيء قبلك يا صغيرتي! تبا للعمل الذي يؤذي فلذة كبدي!».

ـ «لا أعلم حقا لما أراد مني أبي أن أفعل ذلك، لقد قال أن الأمر في شدة الخطورة، لذلك وجب علي أن أكون عند

حسن ظنه، ماذا يقصد بالتهجين المكسيكي يا أمي؟».

ـ «أين سمعت بهذا المصطلح!».

ـ «لقد سمعت أبي يحدث أحد الرجال في مكتبه، كان يبدو عالما ما، لقد كانوا يتحدثون عن التهجين المكسيكي، وقال أبي أنه يعتمد علي كثيرا في ذلك الموضوع، ودعا ذلك الرجل الله كثيرا كي أنجح في مهمتي، على كل حال، سأنتظر قدومه، علّي أستقصي منه معلومة تريح فضولي».

أمضت نزهة الأحلام يومها تتعافى في غرفتها، تحت رعاية أمها التي ما انفكت تغير ضماداتها، وتعطيها الأدوية في أوقاتها اللازمة، وتتصل بالطبيب لزيارتها كلما ألّمت بها حمى مفاجئة، كانت الاثنتان تنتظران رب البيت كي يعود من مهمته التي أخذت منه أكثر من أسبوع، وفي نهاية الأسبوع الثاني، عاد الأب إلى المنزل مجددا، قام بتقبيل ابنته واطمأن على حالها، ثم قال لها والسعادة تملأ عينيه: «لقد كنت محقا في ظنوني يا ابنتي العزيزة، لا تظني أن مخاطرتك بحياتك قد ذهبت سدى، بالعكس! لقد فتحت الباب لأعظم حقبة في تاريخ الإنسان، وستكون سنة عشرين وألفين الانطلاقة الأولى لجنس جديد من البشر، وكل هذا بفضلك! أجل كل هذا!»؛ كان الأب يتحدث بحماس شديد، واضطراب لم تعهده ابنته في كلامه، وحركات يده، وإيماءاته؛ أما هي، فقد كانت تنظر

إليه بدهشة، بثغر مفتوح، مقطبة حاجبيها؛ سكت أبوها قليلا ثم استطرد قائلا: «أنا أعلم أنني لم أطلعك على ما نحن مقبلون عليه، وهذا لا يعني عدم ثقتي بك، بالعكس! أنا أثق بك جدا يا حبيبتي، كل ما في الأمر أنني كنت أريد أن أتأكد قبل أن أتفوه بأي كلام غير منطقي، كما أنك الآن جزء من البرنامج الجديد، وأنت تستحقين أن تفهمي هذا الموضوع، وإليك بيانه بالتفصيل:

منذ نشأة الإنسان وهو يحاول أن يطور نفسه، ويصمّم آلات تذلل صعوبات الحياة، وقد تمكّن من تصنيع ماكينات من مختلف الأنواع: سيارات، طائرات، آلات لصنع الألبسة والأطعمة، حواسيب وهواتف نقالة، تطبيقات وغيرها...، وفي كل يوم يتم تطويرها من جديد، لتصبح أكثر حداثة وتماشيا مع متطلبات العصر، الشيء الوحيد الذي فشلنا في تطويره هو الإنسان، فنحن لم نتمكن من إضافة أي شيء من شأنه أن يزيد من قدراته الحركية أو الذهنية بكمّ ملحوظ.

وقد شاءت الصدفة والحظ معا أن أكون حاضرا في اجتماع لمسؤولين رفيعي المستوى، حيث ناقشوا فيه قضية الولاء، وقال أحد الجنرالات أن جيشه يمتلك أسلحة متطورة جدا، لكنه خسر العديد من المعارك بسبب خيانة أفراده وتابعيه، وانتقد بشدة التطور العلمي في مجال تطوير البشر،

حيث طلب بشكل مباشر من العلماء أن يبحثوا عن إنزيم معيّن يجعل الإنسان وفيا لجهة ما وفاء الكلب لصاحبه، حتى يضمن ولاء الجيش، وبذلك النصر الأكيد!

بعد ذلك تم الشروع في العملية المسماة «التهجين المكسيكي» في إحدى المختبرات السرية في ولاية باخا كاليفورنيا، أين تم تجريب الإنزيم على مواطنَين أجنبيَين يعملان في إحدى المنظمات الحربية السرية، أحدهما مات في كمين إرهابي، أما الآخر فقد انشق عن المنظمة، ورجع إلى بلاده الأم، وكان ذلك بمثابة الإعلان الرسمي عن فشل التجربة، لذلك فقد قررت الدولة التوقف عن تمويل المشروع، وتم التخلي عن الفكرة بصفة دائمة.

كان هذا قبل أن يحدث ما لم يكن في الحسبان، حيث ظهرت على المواطن الأجنبي أعراض المرض حين عاد إلى بلاده، ولم يتمكن من العيش هناك، فعاد مجددا إلى المكسيك، وطلب الانخراط مجددا في المنظمة الحربية، وأخبر قائده أنه لا يستطيع التواجد في أي مكان آخر ما عدا المكسيك، وأنه يرغب فقط بالقتل والتنكيل!

هل تعلمين ماذا يعني هذا يا ابنتي العزيزة؟ إنه يدل على نجاح تجربة التهجين المكسيكي! وبما أن الدولة قد توقفت عن تمويل المشروع، فقد قررت أن أقوم بتمويله

سرّا على نفقتي، وذلك بحقن آلاف المقاتلين بذلك الإنزيم، وعندها يصبح لديّ نفوذ على الجيش، وفي المستقبل القريب على العالم أجمع!

لقد تأكدت من أن تلك المادة لا زالت تسري في دماء ذلك الشخص، لذلك أرسلتك إليه، وطلبت منك أن تستخرجي عينة من دمه، و قد قمنا الآن باستخراج ذلك الإنزيم، والقيام بصنع كميات كبيرة منه، وسنبدأ عملية الحقن قريبا لنسيطر على هذا العالم المليء بالمآسي!

أجل يا ابنتي! عبد الجليل هو ثاني شخص تم حقنه بتلك المادة بعد صديقه سيف، لذلك فإنني أهنئك على تقديم العالم لنا على طبق من ذهب! سنصنع معا جيشا لا يقهر! وسنسيطر على كل بقعة في كل دولة لعينة!».

توقف الزمن لبرهة أمام نزهة الأحلام، لأنها ولأول مرة في حياتها ترى وجه أباها الحقيقي: رجل شرير يستغلّ البشر ليحولهم إلى آلات قتل! «ما أبشع ذلك وما أوحشه!»، قالت ذلك في نفسها: «كيف يمكن للإنسان أن يتجرد من الإنسانية إلى هذا الحد؟! لماذا نبحث جميعا عن الكيفية الأمثل لقتل بعضنا البعض؟ لما لا نسمو بأرواحنا، ونتبادل الحب والتسامح؟ لما نسمح للأديان بتفريقنا؟ للغاتنا بتشتيتنا؟ لأصولنا بتدميرنا؟ لما لا نتخلى عن كل ما يدعو للحرب

والقتل وسفك دماء البشر، ونضع أيادينا في أيادي بعض، لنعيش معا بحب وسلام؟».

لقد شاركت الفتاة في اغتيالات عديدة لأنها كانت تظن أنها تقتل الأشرار، وأنه بموتهم سيسود السلام العالم أجمع، وسيحب الجميع بعضهم البعض؛ لكنها اليوم، وفي هذه اللحظة بالضبط، أدركت أنها تخدم الشيطان ذاته، وأن الشر موجود ولن يزول، وأن الكل يبحث عن العنف متى تسنت لهم الفرصة، وأن الخير صورة علنية لآثام كثيرة تحدث في الخفاء، وأن الأشرار الذين نعرفهم هم أجود الناس معدنا لأنهم يعلنون شرهم، عكس أولئك الأوغاد الذين يتزينون بثياب القداسة، ثم يمارسون مختلف الخطايا سرا في مخادعهم!

أمضت الفتاة بعد ذلك أسابيعا في منزلها تتعافى تدريجيا من الإصابة، وبعد أن اطمأنت أمها لحالتها الصحية، سمحت لها بالخروج أخيرا، ركبت سيارتها، أدارت المحرك، ثم انطلقت إلى المستشفى والدموع تملأ مآقيها، قامت بركن السيارة في الموقف، واتجهت فورا إلى ركن الاستقبال، سألت الموظفة هناك عن مريض يدعى «عبد الجليل»، فتشت الأخيرة في قائمة طويلة لمدة دقائق معدودة، ثم أعلمتها أن المريض قد خرج من المستشفى بأمر قضائي، ولا بد أنه يمكث الآن في السجن، خفق قلبها بقوة، وأحست بالندم

الشديد، ونذرت لنفسها بأن تعوضه خيرا جراء ما فعلته به، ثم انطلقت تبحث عنه مجددا لدى الشرطة.

بعد مدة من البحث والتفتيش، ومبلغ كبير من الرشوة، حمدت الله كثيرا حين علمت أنه بخير، أرادت الاعتذار له، فانتظرته في مقهى أمام مكان عمله، جلست على كرسي في حديقة تابعة للمحل، قامت بإشعال سيجارتها، وأخذت تدخن وهي شاردة، ولم يكسر ذلك الشرود سوى موسيقى الفلامينكو التي كانت تملأ الأجواء إلهاما بكلماتها العميقة:

«حينما أسمع دماء أسلافي تغني وتبكي إذ تتذكر قرون الرعب الماضية...

أشعر بأن الرب يعطر روحي...

فأمضي في العالم أغرس الورود بدل الألم!».

(٩)

أمضت ماروشكا أياما عديدة تبحث عن عبد الجليل، لكنها لم تجد له أي أثر، بدأت تفقد الأمل تدريجيا إلى درجة أنها عزمت على أن تتوقف عن البحث وترجع إلى الجزائر، أخبرت زوجها بذلك فقال لها: «هل أنت ماروشكا العنيدة التي وقعت في حبها؟ أم أنك امرأة أخرى لا أعرفها؟ أين هو عنادك؟ أين هي محاربتك للدنيا حينما ترغب بمعاكستك فتأبين إلا مواجهتها؟ أتعلمين ما يميزك عن أغلبية الناس؟ إنه تصميمك وإرادتك وعزيمتك التي يفتقر إليها أغلب الرجال، جنسنا يا حبيبتي ـ أعني الرجال ـ يدعي القوة والصلابة، لكنه في الحقيقة الجنس الأجبن بين البشر، فنحن نخاف كل شيء! نجبر نساءنا على ارتداء الحجاب والمكوث في المنزل خوفا من بعضنا البعض، نرضى أن يتم إذلالنا في العمل من طرف رؤساء عملنا خوفا من أن يتم طردنا من منصبنا، نجبر أطفالنا على الرضوخ للقوانين خوفا من

فشلهم في الحياة!

أما أنتن معشر النساء، فمعظمكن قطط جريئة، لا تخشون شيئا إن لم يكن بالطبع إحدى الزواحف! ترتدي معظمكن الحجاب إرضاءً لمخاوف آبائكن وإخوتكن ـ تقديرا وليس خوفا ـ، تحرقن العالم لو أن شخصا ما أهانكن، تقدّمن عزة النفس على وظيفة تافهة لعينة، تسمحن لأطفالكن بعيش الحياة التي يريدونها، ولا تهبن مصائب القدر ونكباته!

وأنت يا حبيبتي... أنت أكثر النساء شجاعة وعنادا، أنت قطة على شكل إنسان، ترفضين إطاعة الأوامر، تحاربين كل يوم من أجل أن تنالي ما تريدين، وهذا هو ما يعشقه الرجل في المرأة حتى وإن لم يصرح بذلك، فالرجل يختار المرأة الضعيفة ليحس برجولته أمامها، يخبرها أنه يحبها، لكنه في الواقع لا يحس سوى بالشفقة اتجاهها، أما تلك التي تتحدى رجولته بشخصيتها وأنوثتها، فسيهيم حبا وعشقا وهياما بها، حتى لو أخبرها بأن تصرفاتها تزعجه، لكنه في الحقيقة يستلذ عنادها، ويغريه تحديها!

لهذا السبب أحبك! أحبك لأنني أعلم أنك أقوى مني، وأنني كلما شعرت بالضعف ستقوّين من عزيمتي، تماما كما كانت تفعل زوجات قادة الحروب قديما لرجالهن؛ أنت قوية يا ماروشكا وعنيدة، ورغم أنني لا أعلم عما

تبحثين عنه تحديدا في المكسيك، إلا أنني أدرك أن هذه الأخيرة قد قامت بتحديك، وأنك لن تخرجي منها حتى تفوزي بهذا التحدي!».

ارتمت ماروشكا في أحضان زوجها، وعانقته بكل ما أوتيت من قوة، أجهشت بالبكاء على صدره، وهي تردد بصوت مختنق: «شكرا لك يا زوجي، أنت سندي في هذه الدنيا، لقد بثثت الأمل في روحي مجددا، ليحفظك الله لي أبد الدهر».

كان الغد بالنسبة لها يوما جديدا، وبذلك فرصة جديدة أمضتها في التنقل من حانة لأخرى، ومن فندق لآخر دون أن تجد له أثرا، وفي إحدى المرات، وبينما كانت تقوم بشراء بعض اللوازم من متجر بالقرب من فندقها، صعقت حين رأت شابا يحملق فيها بتعجب، وصرخ الاثنان معا: «ماروشكا!»، «عبد الجليل!».

وهكذا هو القدر، يتسلى بالسخرية منا كلما سنحت له الفرصة لفعل ذلك، فنحن لا نجد ما نبحث عنه إلا حين نتوقف عن التفتيش، سواء كان بحثنا عن شخص أم حيوان أم أي شيء آخر؛ ليس القدر فقط من يسخر منا، بل حتى التاريخ كذلك، فهو يحب أن يعيد نفسه، لذلك فقد وجد عبد الجليل نفسه مجددا مع ماروشكا على طاولة المقهى،

وكلاهما ينظر إلى الآخر بشيء من التوتر!

«ما الذي أحضرك إلى هنا يا امرأة؟»، قال عبد الجليل بازدراء، لأن هذه الفتاة قد جعلته يتذكر رفيق سلاحه سيف، ذلك البطل المغوار الذي توفي قبل مماته بأشهر عديدة، وكان سبب قتله هذه الشاطئ!

سكتت ماروشكا مليا ثم استرسلت في الحديث بحماس، أخبرته عن سوء التفاهم الذي حصل بينهما، وأنها حين علمت بحقيقة الأمر سقط مغشيا عليها، ثم ذهبت إلى المستشفى، أين تلقت العناية هناك، ثم أتت إلى المكسيك بحثا عنه، لأنها تريد أن تعرف الحقيقة كاملة.

قام عبد الجليل بسرد القصة لأول مرة منذ تلك الحادثة الأليمة، كان يتجنب دوما الخوض في هذا الموضوع الذي يمزق قلبه تمزيقا، لكن مجيء ماروشكا أعاد له كل تلك الذكريات البائسة، إنها الذكريات الأليمة التي تقبع داخل كل واحد فينا، ولا نستطيع مهما فعلنا أن ننساها، قد نستطيع تجاهلها أحيانا، لكنها تظهر من جديد كلما كنا وحيدين، أو كلما اجتمعنا مع شخص يجعلنا نشعر بالوحدة، أو كلما أتى من يذكرنا بتلك الحادثة التي تجعلنا نتمنى لو أننا نغرس سكينا في عقولنا لننتزعها، أو لو أن الله يلطف بنا فيجعلنا نتعرض لحادث ما يفقدنا الذاكرة، أو يفقدنا الحياة لو تطلب

الأمـر ذلـك!

سرد لهـا تلـك المهمـة بالتفصيـل، وكيـف تعرضـوا لكمـين جبـان، وكيـف ضحـى سـيف مـن أجـل إنقـاذ زملائـه؛ أخـذ يصـف لهـا دقائـق احتضـاره، ووصايـاه لـه، ثـم كيـف أسـلم روحـه لبارئـه، وكيـف شـيّعت جنازتـه.

أخبرهـا كـم كان يحبهـا، وعـن صورتهـا التـي كان يحتفـظ بهـا في جيـب بذلتـه، عـن الرسـائل التـي كان يعاملهـا ككتـاب مقـدس؛ نظـر إليهـا بغضـب قائـلا: «هـل تعرفـين المثـل القائـل بأنـه حينـما يتـزوج المقاتـل يفـرح جـاره في السـكن؟ هـذا المثـل لم يـضرب هبـاء، إنـه نتيجـة لسـنوات مـن الخـبرة، رجـال هاجـروا بعيـدا عـن زوجاتهـم وحبيباتهـم مـن أجـل العمـل، فقمـن بخيانتهـم مـع رجـال آخريـن، مسـتعملات بيـت الرجـل وفراشـه لذلـك الفعـل الـدنيء! كـم مـن رجـل تحطـم قلبـه وأظلمـت حياتـه جـراء امـرأة لم تتـق الله فيـه، فقامـت ببيعـه بثمـن بخـس، ولوّثـت شرفـه بسـعادة وراحـة بـال!

أنتـن خائنـات، لا عهـد لكـن ولا ميثـاق، لا يتزوجكـن سـوى الأغبيـاء، وقليلـو التجربـة، والمغفلـون، والحمقـى؛ أنتـن وبـاء عـلى الرجـال ونكبـة عليهـم، لا تفتـأن منـذ ارتباطكـن بالرجـل تأكلـن مالـه، وصحتـه، وموهبتـه، وقوتـه، وأحلامـه! أنظـري إلى جميـع الرجـال قبـل الـزواج وبعـده، هـل رأيـت أي

تحسن فيهم؟ فالرياضيون ينقطعون بعد الزواج عن ممارسة الرياضة فتختفي عضلاتهم، وتبرز بطونهم، وتكثر فيها الشحوم جراء طهوكن المليء بالدهون، والكتاب يتوقفون عن التأليف لانشغالهم بقضاء الوقت معكن، وذوو الجاه تصيبهم الفاقة نتيجة مصاريفكن اللامتناهية، وكثير من الأمثلة الأخرى التي لا يسعفني الوقت لوصفها لك سيدتي، ولا يمكنك رؤيتها إلا إن كنت رجلا، تعيشين وسط الرجال وترين بداية أفول نجومهم بعد الزواج!

أنظري إلي يا سيدة، أنا بخير لأنني أعزب، لا امرأة تنغص حياتي، ولا أطفال يعاتبونني لأنني ألقيت بهم إلى هذا العالم الفظيع! آلة الغسيل تغسل ثيابي، والموقد يطهو غذائي، وإن احتجت يوما ما أن أُضَم بقوة، فهنالك أماكن عديدة أقصدها لأجد فيها ما أشاء! لقد كفر كل من لم يؤمن بالشيطان لأنه لم يره، فالشيطان موجود في كل مكان، أنتن الشياطين، وأنا أتعوذ بالله منكن!».

كان عبد الجليل يتحدث، والشرر يتطاير من عينيه، واللعاب يتسرب من فمه، وأسنانه تصطك، وأنفه يزمجر؛ كان منفعلا مع كل كلمة يقولها، وكل صفة يَنعت بها، أما ماروشكا، فقد كانت تنظر بأسف إلى هذا الأسد الجريح، لقد كانت تدرك أن كلاما كهذا لم يخرج من فمه جزافا،

بـل إن هنالـك قصـة مـا يخفيهـا، قصـة لم يرويهـا لأحـد، كان هـو ضحيتهـا، فكلامـه كلام متـألّم، لا شـخص مسـبب لـلألم!

وقفـت ماروشـكا ببـطء، نظـرت نحـوه وقالـت: «هـذه المرة عـلى حسـابي»، قامـت بدفـع الحسـاب، وخرجـت مـن المقهـى لا تلـوي عـلى شيء، سـيف قـد مـات حقـا، وجثتـه الآن تقبـع تحـت الـتراب، ولا سـبيل للرجـوع في الزمـن، تخيلـت لوهلـة لـو أنهـا تسـتطيع حقـا فعـل ذلـك، كانـت لتنـزل أمامـه عـلى ركبتيهـا، وتطلـب منـه الصفـح عـلى كل خطـأ ارتكبتـه في حقـه؛ وهكـذا هـو حـال جميـع البـشر، نقـوم بإيـذاء بعضنـا البعـض كل يـوم، ولا نحـس بالذنـب إلا حينـما يـواري مـن كنـا نؤذيـه الـتراب، حينهـا نحلـم بالرجـوع إلى الـوراء، وتصحيـح كل شيء، وهـذا أمـر مسـتحيل ولـن يحـدث، عـلى الأقـل في وقتنـا الراهـن!

رجعَـت إلى الفنـدق، ومـا إن رأت زوجهـا حتـى ارتمـت في حضنـه، وعانقتـه بقـوة، وأخـذت تطلـب منـه العفـو والمغفـرة عـلى كل مـا اقترفتـه في حقـه، ضمهـا بحنـان، وأخبرهـا أنهـا عمود حياتـه وروحهـا وعبقهـا، وأنـه لا داعـي لأن يسـامحها لأنهـا لم تقـترف أي شيء يسـتوجب ذلـك، أبلغهـا مجـددا كـم يحبهـا، وكـم يعشـقها، وأخـذ يتفنـن في مغازلتهـا، حتـى طلبـت منـه التوقـف عـن ذلـك، وهـذا أمـر طبيعـي في المـرأة، فهـي تريـد مـن رجلهـا أن يكـون رومنسـيا في حـدود معينـة، وخـارج تلـك الحـدود، تريـد

بعض الصرامة التي تجعلها تحس برجولته، وللأسف الشديد، لم تتوفر تلك الصرامة في مهدي إطلاقا!

تناول الزوجان العشاء معا ثم خلدا إلى النوم، وفي الصباح الباكر اتجها نحو المطار أين حجزا تذكرة إلى الجزائر، وفي المساء كانت الطائرة تقطع المحيط الهادي من جديد، لتحط أخيرا في مطار الجزائر الدولي، كانت عائلة ماروشكا بانتظارهما، ومعهما الصغيرة «سهى»، عانقت ماروشكا ابنتها بقوة، وبكت كثيرا وهي تحتضنها، أما باقي أفراد العائلة فقد بدأوا باستجواب مهدي باستنكار، ظنا منهم أنهما تشاجرا في السفر، وهذا حال الأزواج العرب في أغلب الأحيان، فالزوج منذ خروجه في نزهة مع زوجته لا ينفك يمطرها لوما وتقريعا على الكبيرة والصغيرة، إلى أن تلعن هذه الأخيرة اليوم الذي خرجت فيه معه في نزهة!

بعد ذلك، عاد الزوجان إلى منزلهما بـ «بابا حسن»، أين أمضت ماروشكا يومها تحدّق في سقف غرفتها، وتلوم نفسها على كل شيء، بينما قضى مهدي يومه مع أصدقائه، يخبرهم فيه عن مغامراته العديدة في المكسيك، رغم أنه لم يعش أي مغامرة، ولم ير في تلك البلاد سوى الفندق، ومسبح النزل، وغرفة الموتيل!

تذكرت ماروشكا أيامها مع سيف، وكيف كان يناديها

بمجعدة الشعر اللعينة التي لا تجيد حتى سلق بيضة، كيف كانا يتشاجران معا، وكيف كانت تستفزه بغنج ودلال.

تذكرت كيف كان يقص عليها حوادث يومه، ويعرّي لها عن مشاعره العميقة، رغم أنه كان باردا صلبا مع رجاله.

تذكرت أيامهما معا، منذ أن أتاها زبونا إلى المكتبة التي كانت تعمل بها، مرورا بذهابه إلى المكسيك، وصولا إلى نهاية علاقتهما الغير معقولة!

نظرت إلى السماء وقالت: «لماذا أخذته بعيدا عني يا إلهي؟! لما لم تهبني فرصة أخرى أعوض فيها عن كل زلة زللتها، وكل هفوة هفوتها؟ لقد كنا زوجا مثاليا، كانت حظوظنا مشرقة لنعيش معا في سعادة وهناء، وفجأة... فجأة تلاشى كل شيء وكأنه لم يكن! ذهب الحبيب والرفيق والصديق والصاحب والمؤنس، ذهب الأمل والرجاء والحلم والحياة! ذهبت الروح والنفس والنفيس والمتنفس! كيف لي أن أعيش مطمئنة بعدما عرفت أنه قد مات بسببي؟ حتى ولو أقنعت نفسي بأنني لم أقتله، فسأبقى دوما جزءا لا يتجزأ من معادلة موته! هل سيغفر لي يوم الحساب يا ترى؟ وهل سيسامحني مهدي إن أدرك أنني تزوجته عن غير حب، وأن قلبي معلق بغيره إلى الأبد؟ ماذا عنك يا الله؟ هل ستصفح عني أيضا؟ لأني والله لن أعفو عن نفسي، ولن أشفع لها ما حييت!».

(١٠)

أمضت نزهة الأحلام أغلب اليوم في المقهى تترقب الفرصة للتحدث مع عبد الجليل، كان جميع المقاتلين يدخلون ويخرجون من مقر المنظمة دون ظهور أثر له، فحتى الزعيم قد دخل وخرج حوالي أربع مرات، كما أنها قد حدقت مرارا في سيارته علها تجده برفقته، لكنه بدا وكأنه قد اختفى عن الوجود تماما، لذلك فقد قررت الرجوع إلى البيت لتنال قسطا من الراحة، تحركت من المقهى باتجاه سيارتها المركونة في الشارع المقابل، أحست أن شخصا ما يلاحقها فأخذت تسارع الخطى، كانت تعبر زقاقا ضيقا خال من المارة حين أحست باقترابه، فاستدارت بسرعة مخرجة رذاذ الفلفل من حقيبتها، وما إن رأت غريمها حتى صرخت قائلة: «إدواردو! ماذا تفعل هـ....»، لم تكمل سؤالها حتى أحست بألم حاد خلف رأسها، ثم دوار شديد، ثم .... لا شيء!

استيقظت لتجد نفسها مقيدة على كرسي حديدي في غرفة ضيقة، أحست بالخوف، وأرادت أن تصرخ علّها تستيقظ من هذا الكابوس المزعج، لكنها اكتشفت أنه قد تم تكميم فمها بقماشة، وربطها بشدة حول رقبتها، كانت يداها مقيدتان إلى الخلف، ورجلاها على أعمدة الكرسي، كانت الغرفة رطبة جدا ومتسخة؛ أخذت الدموع تنهمر من عينيها المتعبتين وهي تتذكر بصعوبة ما حدث لها قبل حالها هذه، هل يعقل أن يفعل إدواردو ذلك؟ هل يعقل أن يخونها بعد كل ما فعلته من أجله؟

أمضت حوالي ساعتين على ذلك الحال، بدتا لها وكأنهما حولان كاملان، بعد ذلك، بدأت تسمع صوت خطوات رتيبة في رواق خارج الغرفة، كانت تلك الخطوات تقترب بسرعة نحوها، وقلبها يخفق مع كل وقع لها على الأرضية الصلبة، كان الصدى يرافق كل صوت، مما جعلها تدرك أن المكان الذي تتواجد فيه خال من أي أثاث أو أفرشة تمتصه؛ فُتح الباب، وظهر إدواردو أمامها بوجهه المعهود: وجه لاعب البوكر!

كان إدواردو رجلا وسيما بملامح مكسيكية رجولية، طويل القامة، كثيف الشعر، قوي العضلات، ويملك وشما في كتفه الأيمن بصورة امرأة جميلة؛ نظر إلى نزهة الأحلام

بـبرود قائـلا: «ظننـت أنـك قـد تخلصـت منـي أليـس كذلـك؟ لقـد أخبرتـك أن الدنيـا سـجال، يـوم لـك ويـوم عليـك!».

أرادت أن تتكلـم لكنهـا لم تسـتطع ذلـك، فقـام بفـك ربـاط فمهـا أيـن صرخـت قائلـة: «إدواردو! مـاذا تفعـل؟! هـل جننـت؟! سـيقتلك أبي!»، نظـر إليهـا بسـخرية وقـال: «أظـن أنـه سـيقتلك أنـت يـا عشـيقة عبـد الجليـل!».

ـ «عشيقة من؟ ماذا تقول؟».

ـ «أنـا عـلى علـم بـكل شيء يـا عزيـزتي، ولسـوء حظـك، فـإن أبـاك يثـق بي أكثـر منـك، لقـد وكّل إليـك مهمـة مراقبـة عبـد الجليـل، وأسـند إلي مهمـة مراقبتـك، وحـين أدرك أنـك سـتخونينه، أمـرني بـأن أتـصرف كـما يحلـو لي لمنعـك مـن إفشـاء الـسر، وهـا أنـا ذا أتـصرف كـما يطيـب لي تمامـا!».

صعقـت نزهـة الأحـلام لـكل كلمـة قالهـا، وأحسـت بغبائهـا، وقلـة حنكتهـا، وتأكـدت مـن جديـد أن أباهـا هـو شـيطان العـصر الجديـد، وأن أهدافـه الشريـرة بالنسـبة لـه أثمـن مـن عائلتـه بكثـير، انتقلـت بعـد ذلـك إلى التفكـير في حالتهـا ومصيرهـا، فلـم تجـد جوابـا مقنعـا، كل الاحتـمالات تقـول إن النهايـة سـتكون رهيبـة، خاصـة وأنهـا تعـرف إدواردو جيـدا، وتعلـم تمامـا مـاذا بإمكانـه أن يفعـل!

لم تكن مواجهة الشابين مجرد مواجهة بين جاسوسة وقاتل مأجور، بل كانت بين شاب وفتاة يحملان قصة عظيمة مؤلمة للروح والعقل والبدن، كانت تدرك جيدا أن إدواردو يحمل حقدا وكراهية كبيرة اتجاهها؛ إنني أجزم أن أعظم حقد وكراهية في هذا العالم، هما اللذان كانا عشقا وغراما فيما مضى!

كان الشابان على علاقة غرامية سابقا، لكن الأمور لم تسوى بينهما بعد انفصالهما، لذلك فقد جمعهما القدر مجددا داخل غرفة مغلقة، ليضعا النقاط على الحروف، وليختتما كل ملف مفتوح، وليرسما نهاية لكل أمر غير مكتمل.

أحضر إدواردو كرسيا آخر، ووضعه بالمقلوب باتجاه الفتاة، جلس مقابلا لها وأخرج سيجارة، قام بإشعالها، وسألها قائلا:

ـ «هل ترغبين بسيجارة؟».

ـ «أجل بشدة!».

ـ «لكنها مضرة بالصحة؟ ألا تخافين على صحتك؟».

ـ «لا يخاف على صحته سوى الجبان، والفتيات التافهات اللواتي يحلمن بالزواج والإنجاب، جميعنا سنموت في الأخير

يـا صديقـي!».

ـ «هاها! طباعك لم تتغير أبدا!».

قـام بفـك يديهـا، أعطاهـا سـيجارة وقـام بإشـعالها لهـا، أخـذت تدخـن بشراهـة، وهـي تحـاول صرف نظرهـا عليـه، فقـد كان الرجـل الوحيـد الـذي لا تسـتطيع التحديـق في عينيـه مبـاشرة دون أن تسـدل عينيهـا إلى الأسـفل!

ـ «ماذا تريد مني!».

ـ «لا شيء، أنا أتبع أوامر القائد فقط!».

ـ «كفـاك تلاعبـا يـا إدواردو، أنـا أعلـم بـما يـدور في ذهنـك، أنـت ترغـب بإيذائـي لأن هنالـك أمـورا شـخصية بيننـا، لـو كان العكـس لمـا أتيـت، كنـت تسـتطيع أن تكلـف أليخانـدرو فقـط بذلـك، فأنـت أعـلى رتبـة منـه، أنظـر إلى طريقتـك في النظـر إلي، أنـت تسـتمتع بتعذيبـي!».

ـ «مـا هـذا الـذي تتهمينني بـه يـا آنسـة! أنـا أقـوم بعمـلي فقـط، كـما أنـك مخطئـة في قولـك إنني أسـتمتع بتعذيبـك، لأنني لم أبـدأ بذلـك بعـد لأعـرف إن كنـت سأسـتمتع أم لا!».

ـ «أبي! أنقذني من هذا المجنون!».

ـ «لا أحد يسمعك يا صغيرتي، أنت في منشأة تحت الأرض، فيها أنا وأنت والرب فقط، يمكنك أن تستجديه كي يساعدك، لكنني لا أظن أنه سيكون في صفك!».

ذهب إدواردو إلى خزانة صغيرة متموضعة بجانب باب الغرفة، فتح الرف، وأخرج منها حقيبة مليئة بسكاكين حادة، وأدوات متنوعة للتعذيب، ترك كل شيء جانبا، وأحضر ماكينة حلاقة، ثم نظر إليها بخبث قائلا: «استنادا إلى معرفتي العميقة بك، أظن أن هذه هي أداة التعذيب الوحيدة التي ستترك ألما في روحك على المدى الطويل!».

قام بشدها بعنف، وأخذ يجز شعرها جزا، وهي تصرخ قائلة: «توقف أيها السادي اللعين! سوف أقتلك! أقسم بالله أني سأقتلك!».

ـ «سأبدأ بتقطيع شعرك قبل أطرافك، أنظري إلى نفسك الآن، أنت أبعد ما يكون عن الجمال!».

في الواقع، كان إدواردو كاذبا، فهو لم يرغب بأن يؤذيها رغم مشاعر الكره التي كانت تسيطر عليه اتجاهها، كان يدرك جيدا أنه لن يستطيع جرحها أو تعذيبها بآلات حادة، كان غير قادر على رؤية الدماء تنساب منها، كان عاجزا عن انتزاع أظافرها من أصابعها، لذلك فإن كل من لا يعرف

الحب يظنه سحرا، لأن الحب حتى ولو زال تماما، حتى ولو انقلب إلى كراهية شديدة، فهو سيجعلك ضعيفا دوما اتجاه الحبيب، تريد أن تراه يتأذى، لكنك لا تستطيع إيذاءه!

جلس إدواردو مجددا على الكرسي ونظر إلى نزهة الأحلام قائلا: «لا يمكنك خيانتي مجددا، لأن لا أحد ينجذب لفتاة صلعاء!».

ـ «تبا لك أيها الحقير! أنا لم أخنك في الماضي، لكنني أتمنى اليوم لو فعلت! أنت شبه رجل، أنت مخنث ووغد!».

ـ «لم تخونيني! هاها! مرحى! وصورك مع ألفونسو في الملهى؟ ماذا كنتما تفعلان هناك؟ آه كنتما تعملان، أنا آسف! أنا المخطئ، نسيت أنكما لا تستطيعان العمل في المكتب، الملهى الليلي هو أحسن مكان للعمل!».

ـ «أجل لقد ذهبنا سويا إلى هناك، كنت أريد الترفيه عن نفسي فقط، أين هي الخيانة في الأمر؟ هل نسيت صديقاتك اللواتي كنت تلهو معهن؟ نيري وإزلي؟ ألم تذهب معهن كذلك حيث ذهبت معه؟».

ـ «أجل فعلت ذلك، لكنني لم أخنك معهن! كنت أريد أن أثير غيرتك فقط! لم أتوقع أنك سترديني بالمثل، ومع من؟ مع ألفونسو الغبي! لقد خذلتني كثيرا يا نزهتي! ما كان

عليك فعل ذلك أبدا!».

ـ «آه! هذا رائع! لدينا مثل في الجزائر يقول «حلال عليا وحرام عليك»، وهذا ينطبق عليك تماما! أنت تجيز لنفسك الذهاب مع الشواطئ إلى الملاهي والاستمتاع مثلما يحلو لك، وتمنع عني ذلك وتراه أمرا جللا! أتعلم يا إدواردو؟ إن جميع الرجال متشابهون حقا! فمهما اختلفت دياناتكم، وعاداتكم، وثقافاتكم، إلا أن جميعكم تظنون أنكم أفضل من المرأة! وأنه يحق لكم ما لا يحق لها! تستغلون رقتها وميلها إلى اللين والسلمية لممارسة العنف عليها، والتحكم بها كيفما شئتم، ومثلما بدا لكم؛ لقد هجرت بلادي لأن الرجال هنالك يستغلون الدين لاستعباد المرأة، ويقنعونها منذ طفولتها أنها ناقصة، وأن الرجل هو الكامل، وأنه أذكى وأحكم منها، وها قد أتيت إلى المكسيك لأرى رجالا لا يختلفون عن رجالنا كثيرا في استعبادهم لها، الفرق الوحيد هو أنكم لا تستخدمون الغطاء الديني لفعل ذلك!

أنا حرة يا إدواردو، امرأة قوية ومستقلة! أنا كيان مستقل بذاته، أملك قراراتي، وشخصيتي، وكبريائي! أنا لا أسمح، ولن أسمح لأي رجل بأن يفرض علي شيئا، ولو كان مصيري الموت الزؤام!».

سمع إدواردو كل كلمة قالتها، ثم وقف بتأني واقترب

نحوها ببطء، قام بتقييد يديها مجددا على الكرسي، وقام بتكميم فمها قائلا: «لم يخطئ القديس بول حين قال: «ابقِ المرأة صامتة!»».

خرج من الغرفة، وقام بإغلاق الباب بإحكام، سمعت نزهة الأحلام صوت خطواته يتباعد شيئا فشيئا إلى أن اختفى تماما، هنالك شرعت في البكاء، وندمت ندما شديدا لأنها كلمته بصرامة بدل أن تتوسل إليه، وتتضرع له كي يخلي سبيلها، ثم تذكرت أنها امرأة قوية، ولن تسمح لرجل بغيض مثله أن يكسرها، لذلك فقد قررت الموت في بركة دمائها على أن تتذلل له، قامت بشتم إدواردو، وشتم أبيها، وشتم جميع رجال العالم، ثم تذكرت فجأة عبد الجليل، وتساءلت أين يكون؟ وماذا حدث له؟ وهل هو بخير؟ وما لبثت أن تذكرت أنه رجل كذلك، فقامت بشتمه هو أيضا!

الفصل الثاني:

مظليون مغاوير

كَمْ أُحسُّ بالفَخرِ وَالاعْتزازِ حِينَمَا أَرَى أَبناءَ وَطنِي فِي السَّماءِ
يُداعبونَ الحِبالْ...

يُراقبونَ مِنطقةَ الإِنزالْ...

مُستعدّونَ لِلنِّزالْ...

يَرونَ عَظمةَ أَنفسِهِم...

وَصِغرَ الأَشجارِ وَالجِبالْ...

جَاهزونَ لِلقتالْ...

وَالاسْتماتةِ... وَالاستبسالْ!

حِينَمَا يُفتحُ البَابُ، وَيَسمعونَ قَرعَ الأَجراسِ...

تَمتزجُ مَشاعرهمْ بالفَرحةِ، وَالتَّرقّبِ، وَالحَماسِ!

يَقتربونُ نَحوَ الأَبوابِ كَالرّصاصِ...

يَنطلقونَ فِي الجَوِّ كَقذائفِ النُّحاسِ...

وَيُحلِّقونَ فِي عَلياءِ السَّماءِ كَصقورٍ...

خَبيرةٍ فِي القَنصِ وَالاقْتناصِ!

(١)

اسمي إدواردو، وعمري ثلاثون سنة، ولدت سنة تسعين وتسعمائة وألف بمدينة تيخوانا بولاية باخا كاليفورنيا، أبي يهودي وأمي ملحدة، وأنا مزيج بين هذا وذاك، أعمل ضمن عصابة من عصابات المكسيك العديدة، وأتعذر عن ذكر اسمها لدواع أمنية.

هنا في تيخوانا، يوجد منصبا شغل فقط، إما أن تكون تاجر مخدرات أو فرد عصابة، وقد اخترت الثانية لأنها ضليعة في التجارة المحرمة أيضا.

أمضيت طفولتي وأنا أشاهد أبي يخون أمي، وأمي تخون أبي، والأصدقاء يخونون بعضهم البعض، والعمال يخونون الأمانة، والشعب يخون الدولة، والدولة تخون الشعب، لذلك فقد نشأت خائنا لكل شيء، بلا مبادئ ولا قيم!

بـدأت بتعاطـي المخـدرات في مراهقتـي، وأدمنتهـا حـد النخـاع، في الحقيقـة، لازلـت مدمنـا عليهـا إلى يومنـا هـذا، ولسـت نادمـا عـلى ذلـك، ولا أنـوي الإقـلاع عنهـا، لأننـي أؤمـن أن الـرب كـما خلـق عشـبة الرشـاد لتنظيـف الجسـم مـن السـموم، فقـد خلـق عشـبة الماريخوانـا لتنقيـة الـروح مـن الأوجـاع!

لـدي العديـد مـن المشـاكل مـع رجـال الشرطـة، وقـد دخلـت السـجن مـرات عديـدة، ولسـت نادمـا عـلى ذلـك أيضـا، الـشيء الوحيـد الـذي ندمـت عليـه هـو هـذا الوشـم عـلى كتفـي، ليـس الوشـم بعينـه هـو مـا ندمـت عليـه، بـل الصـورة التـي رسـمتها، وهـي صـورة لإحـدى الشـواطئ، والتـي كانـت يومـا مـا حبيبتـي!

كنـت مراهقـا حينـما تعرفـت عليهـا، كانـت ابنـة رئيـس عمـلي، وهـو رجـل أجنبـي مـن دولـة الجزائـر، يعمـل كرئيـس عصابـة كـبرى في تيخوانـا بغطـاء مسـتثمر أجنبـي، وبـما أننـي كنـت مـن الرجـال الذيـن يعتمـد عليهـم، فقـد عرفنـي بكامـل أفـراد عائلتـه، ومـن بينهـم ابنتـه «نزهـة الأحـلام»، تلـك الفتـاة التـي أغرتنـي بملامحهـا الأمازيغيـة ولكنتهـا الإسـبانية المميـزة، واختلافهـا عـن الفتيـات السـطحيات اللـواتي عرفتهـن في حيـاتي، واشـتراك كلينـا في شيء أسـاسي: التمـرد عـلى كل قانـون وتقليـد وعـادة لعينـة!

كنا نكره الخضوع والخاضعين ونزدريهم، كنا نراهم أزمة هذا العالم وبؤسه، أناس كالروبوتات، يتم إدخال بيانات في عقولهم عند طفولتهم، ليكبروا شبانا يدافعون عن تلك المعلومات باستماتة! تبا لهم! ما الفرق بين الإنسان والآلة إن لم يكن بشخصيته متمردا، رافضا لكل ما يجبر عليه؟!

لذلك، فقد وجدت فيها كل ما أرغب به لدى أنثى، ووقعت في شباكها، أخبرتني أنها تحبني أيضا، وبما أنني كنت قليل خبرة، فقد ظننت أنها قد وقعت في غرامي حقا، ولما لا تفعل؟ وأنا الشاب الذي وقعت في غرامه العديد من الفتيات! بعد تجربتي مع نزهة الأحلام أدركت أنني كنت على خطأ، وأن النساء لا يقعن في حب الرجل، بل يقعن في حب شيء متعلق به، فإن غاب ذاك الشيء غاب معه الحب!

كانت حياتنا سعيدة في بدايتها، حياة كل زوجين مرتبطين حديثا، أحببتها لأنها لم تكن الفتاة التي تجبرني على الإقلاع عن تعاطي المخدرات، بل كانت تلك التي تتعاطاها معي! دَخنّا معا، ثملنا معا، ضعنا معا، وما أحلى الضياع في بلاد أكثر منا ضياعا!

كنا نعمل دوما جنبا إلى جنب، فكانت هي صاحبة المهمة، وكنت أنا حارسها الشخصي، وكم من مهمة قمت بإفسادها لأنني أصبت بالغيرة حين رأيتها تغري شخصا ما

قبل القضاء عليه!

أخبرتني يوما ما أن الحب ينحصر في إسعاد حبيبنا، حتى ولو كان ذلك في السماح له باللهو بين الحين والآخر، لم أستطع تقبل ذلك لأنني كنت شخصا متملكا، نزهة الأحلام ملكي، ولن تكون لشخص آخر سواي!

بدأت أقع في حبها أكثر فأكثر، حتى أنني قمت بوشم صورتها على كتفي، وكلما ازداد حبي لها تأججت غيرتي أكثر، كنت أحس أنها لا تحبني كفاية، لا تعشقني كما أعشقها، أنا أستحق أكثر لأنني أمنح أكثر! جربت تجاهلها فتجاهلتني أيضا، جربت الابتعاد عنها فابتعدت عني أكثر، حاولت إثارة غيرتها فخدعتني مع غريم لي يدعى «ألفونسو»!

اتصل بي صديقي ذلك اليوم، وسألني إن كنت قد قطعت علاقتي بها فأجبته بالنفي، سكت قليلا ثم أخبرني بأنه يتواجد في ملهى «El Alebrije»، وأنه يرى أمامه حبيبتي ترقص رفقة رجل آخر، صعقت حينما سمعت ذلك، وصعقت أكثر حينما عرفت اسم الرجل! أحسست بالدماء تفيض داخل عروقي، بقلبي يكاد ينفجر داخل أضلعي، أحسست بالضعف، بالوهن، بالدوران، بالأسى على نفسي!

لن يشعر بوصفي هذا سوى من تعرض للخيانة، من

استطعم مرارتها، من أُحرق قلبه حزنا وألما وكمدا! من ماتت روحه أبدا، ولم يتبق له سوى جسد منهك يصارع به ما تبقى له من آلام الحياة!

ركبت سيارتي، وانطلقت بسرعة إلى الملهى، بحثت عنها في كل حدب و صوب فلم أجدها، أخبرني صديقي أنها قد خرجت برفقته، وانطلقا معا إلى بيته على متن سيارته الشخصية، كنت أعرف منزله جيدا، لذلك فقد شرعت في القيادة بطريقة جنونية إلى أن وصلت إلى بابه.

كانت سيارته مركونة أمام الباب، وضوء غرفة نومه مضاءً، فتحت صندوق القفازات وأخرجت منه مسدسي الناري، قمت بتركيب المخزن بعد أن تأكدت أنه عامر بثمان طلقات ثم نزعت التأمين الخاص به، فكرت في طرق الباب، لكن رجلي سابقتني لتحطيمه! دخلت لأجد نزهة الأحلام قد خرجت مذعورة من المطبخ تسألني عما دهاني، سألتها عن ألفونسو فلم تجب، قمت بصفعها بكل ما أوتيت من قوة فترنحت وسقطت على الأرض، قمت بركلها مرارا وتكرارا، بصقت عليها، أمطرتها سبا وشتما، لعنتها، ثم صعدت السلالم بحثا عن ذلك الحقير!

وصلت إلى الطابق الأول، لأجد ألفونسو في مكتب بجانب الرواق يقوم بتعمير مسدسه بالذخيرة، أطلقت النار

بسرعة على رجله اليمنى، حاول الهرب فأطلقت النار مجددا على رجله اليسرى، سقط أرضا وهو يصرخ ألما، صاح طالبا الرحمة، لكنه لم يدر أنني لو كنت أنوي الرفق به، لأطلقت النار مباشرة على قلبه!

«هل كنت تنوي معاشرة حبيبتي؟!»، صرخت في وجهه بقوة: «ستنال جزاءك أيها الوغد»، نزلت على ركبتي وأخذت مكانا إلى جانبه، أخرجت السكين المثبتة على رجلي اليمنى، وأخذت أطعنه في كل مكان لا يقابله عضو حيوي داخل جسده، ليس لأني لم أكن أنوي قتله، بل لأنني أردته أن يتعذب أكثر قبل ذلك، ناشدني كي أتوقف لكنني كنت أطعنه بقوة أكبر! كنت أستمتع بسماع صوت السكين وهو يخترق جلده، ويقطّع لحمه، ويمزّق عضلاته، ويكسر أضلعه، كانت دماؤه اللعينة تندفع من جسمه الحقير لتبلل ملابسه، وتصبغ بشرتي بلون أحمر داكن، راسمة عليها تحفة فنية أبدية!

بعد ذلك، قمت بوضع نصل السكين على صدره أسفل قلبه، وأخذت أغرسه باتجاه الأعلى داخل قلبه، وحينما تأكدت من تموضعها الكلي داخله، بدأت بإدارتها يمينا وشمالا، حتى أتلف كل أمل للحياة فيه!

أخذت روحه تخرج من جسده أمامي، كنت سعيدا،

أشعر بالقوة، لقد غذيت روح الانتقام بداخلي، وأثلجت صدري، كنت منتشيا وأنا أشاهد روحه التي انتزعتها منه عنوة، أحسست بالكبر، بالسمو، بالرقي، بالعظمة!

مات ألفونسو، ومات معه قلبي مجددا، كنت أنوي فصل رأسه عن جسده حين سمعت صوتا من خلفي: «ارمي سلاحك وارفع يديك إلى الأعلى!»، استدرت لأرى رجال الشرطة يصوبون سلاحهم نحوي، ضحكت بسخرية حين أدركت أن نزهة الأحلام قد قامت بالاتصال بهم، رميت سلاحي، رسمت بدمائه النجسة صليبا على جبهتي، رفعت يدي إلى السماء مبتسما وقلت لهم: «لقد مات الوغد! شكرا لحضوركم المتأخر المعتاد!».

قاموا بعد ذلك بتصفيد يدي، واقتيادي خارجا نحو سيارتهم، بعد ذلك إلى السجن بأمر من وكيل الجمهورية، ثم أمضيت شهورا برفقة مجرمين آخرين بانتظار المحاكمة!

أتى ذلك اليوم، أخبرت القاضي أنني لست نادما على ارتكابي لجريمة القتل، وأنه لو رجع بي الزمن مجددا، فسأقتله بنفس الطريقة، وسأسرع أكثر لكي أستطيع نحر عنقه، وفصل رأسه عن جسده اللعين قبل أن يأتي رجال الشرطة!

أصدر القاضي حكم الإعدام في حقي، وأمضيت الأيام

القادمة أنتظر حتفي بشوق، كان الاختيار بين الموت اختناقا بالغاز أو بحقنة مميتة أو بالكرسي الكهربائي، رغم أنني كنت أفضل الموت في ساحة القتال، إلا أنني اخترت الكرسي الكهربائي نظرا لشُحٍّ في الاختيارات، هذا لأنني أجزم أن الغاز والحقنة وجدا من أجل النساء وأشباههن فقط!

أتى ذلك اليوم، ارتديت ثياب الموت وخرجت من زنزانتي نحو قاعة الإعدام، كانت صالة فخمة تصلح لأن تكون غرفة استقبال لا قاعة موت، توسطها كرسي بمسندين لليدين، بهما طوقان لتقييدهما، وقاعدة معدنية في الأسفل، بها طوقان آخران بنّيان لتثبيت الساقين، أمامهما منضدة تحتوي على خوذة فولاذية، ومولد كهربائي، وأسلاك لنقل الكهرباء من المولد نحو بقية أجزاء الجسم، ابتداء من الرأس وصولا إلى القدمين!

تخيلت بهدوء ما سيحدث لي بعد برهة من الزمن، سيتم وضعي على الكرسي، ثم ربط يدي ورجلي إليهما، ووضع تلك الخوذة على رأسي وتثبيتها جيدا، سيأتي قس لعين ليتلو علي بعض الأجزاء التي يحفظها من الكتاب المقدس، لأن ذلك هو كل ما تمكن من حفظه طيلة حياته نتيجة رسوبه المتكرر في المواد العلمية، بل إن كل ما استطاع أن يصبح عليه في هذه الحياة هو مجرد رجل دين! سيطلب مني الاعتراف

قبل موتي، وسأعترف له أنني حزين جدا لأنني سأموت بين زمرة من الفاشلين، أحدهما لا يختلف عن تاجر المخدرات لبيعه «أفيون الشعوب»، والآخر كل ما وصل إليه في رحلته الدنيوية هو تحريك مقبض لتشغيل دارة كهربائية! سأخبرهما أن زوجتاهما تدركان جيدا أنهما تزوجتا رجلين فاشلين، وهما تندبان حظهما يوميا لاقترانهما بأدنى طبقة في المجتمع، وأغلب الظن أنهما تملكان عشيقين ينسيانهما سوء اختيارهما، وغدر الزمان بهما!

سأعترف بأنني لست نادما على أي شيء في حياتي، وأن كل ما فعلته هو «فعل وردة فعل»، الحياة ليست عادلة، لذلك فلن أطلب العدل من أحد، لا في الدنيا ولا في الآخرة!

لست أملك زوجة تندبني، حتى و لو كانت لدي، فهي في الأغلب ستتزوج رجلا آخر أفضل مني بعد موتي، والزوجة التي لم تفعل ذلك هي امرأة لم تجد الفرصة فقط!

ليس لدي أبناء ليتيتموا، ولا أخا ليحزن، لا أملك سوى أبا وأما أنجباني إلى الحياة نتيجة خطأ في الحسابات، ثم رمياني إلى دنيا لا ترحم!

سأخبر القس أنني لا أريد أن أتلو أي صلوات، فمن لم يرحمني في الدنيا، لا أظنه سيفعل ذلك في الآخرة؛ سأطلب

فقط من الجلاد أن يقوم بعمله، ويجذب ذلك المقبض اللعين لينهي مأساتي!

لازلت في تلك الأفكار والتصورات إلى أن تحرك الجلاد من مكانه، وفتح بابا آخر لم أنتبه له، وأخبرني أن أتبعه؛ نزلنا على سلالم حديدية بدت لي أنها لن تنتهِ، ومن هناك إلى باب كتب عليه «مخرج النجدة».

وجدت نفسي فجأة خارج السجن، بجانب الطريق المارة من جهة الجنوب، أخبرني الجلاد بأن المحكومين بالإعدام لا يعدم منهم سوى الفقراء والذين لاحول لهم ولا قوة، أما أصحاب النفوذ أمثالي، فسيخلدون في هذا العالم مهما اقترفوا من آثام! تركني هناك وقفل راجعا من حيث أتينا، استدرت لأجد سيارة سوداء بدت أنها كانت بانتظاري، تأكدت من ذلك حينما نزل منها رب عملي، اقترب نحوي مبتسما وقال مازحا: «أنا أحتاجك أكثر من ملك الموت، لندعه ينتظر لسنوات أخرى بعد!».

(٢)

كان مدخل الفندق مزدحما جدا بالسيارات، بينما كان رجل الاستقبال يكرر نفس الجملة لكل سائق: «نحن لا نستقبل زبائنا اليوم، ارجع غدا من فضلك»، في نفس الوقت، كان رجال الأمن يبعدون السيارات عن الباب الرئيسي؛ هدأت الضوضاء فجأة، وانتبه الجميع إلى القافلة الدبلوماسية التي دخلت بمرافقة الشرطة المحلية، سيارات فخمة تحمل أعلام العديد من الدول الأجنبية كانت تلج المدخل الواحدة تلو الأخرى؛ أُغلق باب الفندق نهائيا، وبدا أنه لن يُفتح مجددا إلا بعد خروج القافلة.

فُتحت قاعة الاجتماعات، وجلس كل دبلوماسي في المكان المخصص له، ترأس الطاولة المستديرة السيد «مروان» مدير سلسلة الفنادق «Ibis»، استهَل الاجتماع بكلمة افتتاحية شكر فيها الحضور على تواجدهم اليوم، وتمنى لهم إقامة طيبة

في الفندق، ثم دخل إلى صلب الموضوع قائلا: «جميعنا نعلم اليوم أننا لم نلتقِ لنتباحث حول التغير المناخي، والاحتباس الحراري، وثقب الأوزون، والطاقة الشمسية، ودخان المصانع، والغاز الصخري، و الجفاف والتصحر؛ ولا عن قرب انقراض النمر السايبيري، وقرد البونوبو والسومطري، والباندا العملاق، والغوريلا الجبلي، ووحيد القرن الأسود، وسلحفاة منقار الصقر، وحوت الزعنفة، والفيل الآسيوي؛ ولا عن فيروس كورونا، وإيبولا، ولاسا، وزيكا، وشيكونغونيا، ونيباه، ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد، وحمى القرم، وماربورغ النزفية!

نحن اليوم بصدد الكشف عن تجربة فريدة من نوعها، عن قفزة عملاقة في سلّم التطور، عن لقاح لا يشفي من الأمراض؛ أنا أتحدث يا سادتي هنا عن تطوير البشر، وخلق فرد مقاتل مبرمج على الطاعة وتنفيذ الأوامر؛ أنا أعلم أنكم تظنون أنني سأكشف لكم عن روبوت جديد، حينما تسأله عن اسمه يجيبك ببلاهة «روبرت!»، سأخيب ظنكم كثيرا يا سادة! لأنني أصنف صناعة الروبوتات في خانة صناعة ألعاب الأطفال! لكيلا أطيل الكلام عليكم، و لكي أشبع فضولكم، وأرسم الدهشة على محياكم، سأقدم لكم عالم صناعة البشر!

المجموعة الأولى: إلى الأمام سر!».

دخل خمسة رجال مقاتلين بخطى موزونة إلى قاعة الاجتماع، كانت حركاتهم متجانسة، تنم عن تدريب عالي المستوى، وقفوا في صف واحد، واستداروا باتجاه الطاولة، وأيديهم خلفهم بانتظار الأوامر.

ابتسم مروان قائلا: «إلى الآن يبدو الأمر عاديا، وسأنتقل الآن إلى الشيء الغير مألوف».

سأل الرجل الأول: «من أنت؟».

ـ «أنا ٢٥٦ يا سيدي!».

ـ «أين ولدت؟».

ـ «ولدت في البرازيل يا سيدي».

ـ «لما لا تقاتل إذن في الجيش البرازيلي؟».

ـ «أنا أقاتل فقط في الجيش المكسيكي يا سيدي، ليبارك الرب المكسيك!».

ـ «ما رأيك لو نهبك قصرا في ريو دي جانيرو، وسيارة مرسيدس، ودخْلا مقدرا بعشرة آلاف ريال برازيلي، هل ستقبل بالرجوع إلى بلادك؟».

ـ «لا أريد الأموال يا سيدي، لا أريد الزواج، ولا أرغب

في الحصول على أطفال، كل ما أنشده هو العيش في المكسيك، والقتال من أجلها، والموت فيها، إن المكسيك هي بلادي، وحبها يملأ قلبي، لذلك فالموت من أجلها هو هدفي الوحيد في الحياة، وطاعة أوامر قادتي ورضاؤهم عني هو كل ما أرجوه!».

ـ «احمل ذلك المنشار وافصل يدك عن جسدك، فذلك ما أرجوه أنا!».

ـ «حاضر يا سيدي!».

تقدم المقاتل نحو الطاولة، حمل المنشار الحاد من فوقها، ثم وضع يده اليسرى عليها، ثبّت أسنان المنشار على معصمه، وبدأ يحركه جيئة وذهابا، كان لحمه يتمزق، وعروقه تتقطع، والدماء تنزف بغزارة منه، كان صوت الأداة وهي تنشر عظام يده الصلبة يثير الاشمئزاز في النفوس، أخذ جميع الحضور ينظرون إليه بدهشة عارمة، مستغربين تلك الابتسامة العميقة البادية على محياه: ابتسامة رجل يقوم بإعاقة نفسه، وهو راض عن ذلك تمام الرضا!

نظر مروان إلى الرجل الثاني قائلا: «ما اسمك يا هذا؟».

ـ «اسمي ٣١٦ يا سيدي!».

ـ «ما اسم أمك؟».

ـ «المكسيك يا سيدي».

ـ «أريدك أن تذبح نفسك!».

ـ «حاضر سيدي!».

وضع ٣١٦ السكين على رقبته، قام بإدخال نصلها في الشريان الأيمن، وبحركة سريعة، قام بجز عنقه حتى الوريد، ثم سقط على الأرضية مسلما روحه لخالقه؛ قال مروان: «وأنت ما اسمك؟».

ـ «٩١٠ يا سيدي!».

ـ «كان علينا أن نزيدك رقما واحدا وتصبح رقما للإسعاف، أريدك أن.....».

ـ «توقف أرجوك!»، صرخت إحدى الحاضرات: «هذا إجرام! عليك أن تحال على المحكمة الدولية! ألا توافقونني يا سادة؟!».

نظر إليها الجميع نظرة استنكار، وقاموا بتجاهلها، نطق أحد الحاضرين قائلا: «يمكنك التوقف يا سيدي، فقد وصلتنا الفكرة جيدا، لطالما حلمنا أن نمتلك جيوشا بطاعة

عمياء، لا نخاف خيانتها ولا ترددها، لذلك فنحن مهتمون»؛ أجاب مروان: «إن امتلاك إنزيم «Esperanzas» هو السبب الحقيقي لكل ما رأيتموه يا سادة، وقد أطلق على عملية الحقن: « التهجين المكسيكي»، حيث أنه عند حقن أي شخص بهذا العقار، يقوم هذا الأخير بالتأثير على الكثير من المناطق في الدماغ، ليصبح الإنسان بعد ذلك عبارة عن آلة مرنة!

لقد قمنا بتجربته على ثلاثين شخصا لحد الآن، والعملية ناجحة بنسبة مائة بالمائة، لذلك فقد اتصلنا بوزير الدفاع، ودبرنا معه عملية حقن لجميع أفراد الجيش بهذا الإنزيم، كما قررنا أيضا بيعه لبعض الدول التي نثق بها جيدا، وأنتم هم ممثلوها يا سادة!».

ابتسم جميع الحاضرين حينما أعلن المضيف نهاية الاجتماع، تصافح الكل بينما خرجت تلك السيدة متمتمة: «كلكم مجرمون!».

هذه السيدة تدعى فينيسيا، وهي دبلوماسية إيطالية حساسة جدا، روي عنها أنها تكره صياح الديك كثيرا، حيث تزعم الشائعات أنها قد قامت مرة برفع دعوة قضائية على ديك أيقظها من نومها، وانتهت الحادثة بترميل دجاجته، وتيتيم صيصانه السبع!

قضت فينيسا يومها في غرفة الفندق، أرادت أن تتصل بمعارفها لتخبرهم بما حدث خلال الاجتماع، وبأنهم على وشك أن يصنعوا كارثة أعظم من القنبلة النووية، أرادت هذه المرة أن تقدم شكوى للمحكمة الدولية، لكن التغطية للأسف كانت شبه منعدمة.

قامت بأخذ حمام ساخن، ونامت على الأريكة من شدة التعب، وفي الغد استيقظ ديك آخر، واستيقظت العصافير، واستيقظ البشر، لكن فينيسيا المسكينة لم تستيقظ!

أعلن الطبيب الشرعي عن وفاتها بسكتة قلبية نتيجة الإرهاق، لذلك فقط تم تشييعها إلى بلدها داخل تابوت متقن الصنع، وعلم ثمين السعر، وعبارات تعزية كثيرة التأسف!

وهذه هي حال السياسة في أغلب الدول، ماهي إلا عصابة تمارس الإجرام في حي لا تعرف فيه عدوك من صديقك!

خرج مروان من الفندق، وذهب إلى منزله ليجد زوجته تنتحب أمامه: «أرجوك يا حبيبي، لا تؤذِ ابنتنا! ألا تسكن الرحمة قلبك أبدا؟ إنها ابنتنا، فلذة كبدنا، أنت تعلم كم عانينا لكي ننجبها، كم يئسنا، وكم خذلنا، وكم سقطنا قبل أن

ننهض حتى تأتي إلى حياتنا! ألا تتذكر يوم حملتها بين ذراعيك في المستشفى؟ أنسيت حين أخبرتني أنك ستقدم العالم كاملا في سبيلها؟ أنظر إلى نفسك الآن! لقد قدمتها وجبة سائغة في سبيل العالم! وأي عالم؟ عالم لعين! عالم قذر!».

راقب الزوج بشفقة كلام زوجته، ثم قال بلامبالاة: «لقد أخبرتك مرارا أنه لا صلة لي بالموضوع، لقد تم اختطافها من طرف إحدى العصابات الشريرة، وقد أرسلت العيون للبحث عنها في كل مكان، وحين نجدها سأعيدها إلى المنزل بالتأكيد».

ـ «توقف عن الكذب أرجوك! أنا أعرفك جيدا يا مروان، ولا يوجد رجل أخطر منك، ولا عصابة أشد شرا من عصابتك! من ذا الذي يقوم بإشراك زوجته وابنته الوحيدة في أعماله القذرة دون الخوف عليهما سواك؟ وحين صارت ابنتك خطرا عليك، قمت بمحوها عن الوجود كما اعتدت أن تفعل مع أعدائك! أنت شيطان في جسد إنسان! لقد تزوجتك من أجل أن أحيا حياة كريمة بفضل مالك ونفوذك، لكن الله جعلني أدفع الثمن، وما نفع الأموال والنفوذ إن لم يكن الحب والثقة ملاكين يرفرفان فوق أحلام زوجين ليصلا بهما إلى بر الأمان؟».

ـ «أنا لا أحبك أيضا يا أمال، تزوجتك فقط لأنك كنت

يومـا مـا جميلـة، قبل أن تكسـبي هـذا الـوزن الزائـد طبعـا! أتعلمين مـاذا يحصـل حينـما نحـب شـخصا مـا لجـمال شـكله؟ يـزول ذلـك الحـب مـع زوال الجـمال، والأمـر الجيـد هـو أن كلينـا نعلـم أن الـشيء الوحيـد الـذي يربطنـا الآن هـو ابنتنـا نزهـة الأحـلام!

لقـد انتشـلتك مـن فقـر مدقـع، أبـوك كان يتسـول الصدقـة مـن جيرانـه، وإخوتـك كانـوا يسرقـون الرغيـف مـن سـوق «الحطـاب» كـي يطعمـوك، لكـن المثـل القائـل «لا تخـشَ الشـبعان إذا مـا جـاع، بـل اخـشَ الجوعـان إذا مـا شـبع» لا يأبـى إلا أن ينطبـق عليـك! لقـد تزوجـت رجـل أعـمال ثـري، أخرجـك مـن كـوخ إلى قـصر، وهبـك حيـاة عزيـزة كريمـة! ألا فلتخضعـي!

هـل أنـت جزعـة مـن أجلهـا حقـا؟ لا أظـن ذلـك! فأنـت لم تكـوني يومـا أمـا جيـدة لهـا، أنـت أنانيـة، ولا يهمـك سـوى نفسـك، أظـن أن سـبب جزعـك هـو علمـك بـما سـيحصل لـك إن لم نجـد الفتـاة، لـن يبـق عندهـا شيء بينـي وبينـك سـوى ورقـة الطـلاق!».

ـ «أتعايـرني بفقـري وعـوزي؟ تبـا لـك وتبـا لأموالـك! طلقنـي إذا! طلقنـي وأرحنـي منـك! فقـد سـئمت الارتبـاط مـن رجـل لئيـم مثلـك! أريـد ابنتـي!».

ارتمـت الزوجـة تنتحـب عـلى فراشـها، بينـما غـادر مـروان

الغرفة مستاء؛ وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان حينما تتزوج المرأة الفقيرة رجلا غنيا أملا في حياة أفضل، فهي ستكتشف يوما ما أنه كان يشفق عليها، ويحتقرها، ويحتقر كل فرد من عائلتها، وسيخبرها عند أول شجار أنه يمنّ عليها، ويتصدق على أهلها، ثم يعيب فقرها، ويذكرها بإنقاذه لها من هاوية العوز والحاجة!

(٣)

قضت نزهة الأحلام أسابيعا في تلك الغرفة المظلمة، تغفو وتصحو على روتين واحد، لقد استطاعت أن تميز الأيام ومراحلها بالوجبات اليومية التي تصلها في الأوقات المحددة لها، فالحليب والزبدة يعني أنه الصباح، الوجبة الثانية تعني منتصف النهار، والثالثة تعني الليل، لقد استطاعت بعد هذه المدة أن تطور حواسها جيدا، فصارت رؤيتها أشد وضوحا، وسمعها أقوى، وجلدها أكثر حساسية للمس؛ استطاعت حتى أن تربط اتصالا روحيا مع الحمامة التي كانت تعيش داخل ثقب في الجدار الخارجي للغرفة، في البداية كانت تنزعج لصوت هديلها المزعج، لكنها ما لبثت أن ألفته، وصار لغة تفهمها، وتتجاوب روحانيا معها.

لم يعتنِ إدواردو بطعامها فقط، بل قام أيضا بفك وثاقها عن الكرسي، وأضاف للغرفة سريرا وفراشا لا بأس بهما، وكان يهبها سطل ماء وبعض الصابون لتغتسل كل بضعة أيام، لذلك فإن سجنها لم يكن سيئا كما كانت تتوقعه، بل

لنقل أنها قد بدأت تستلذ نوعا ما أسرها، وأصبحت تلك الغرفة بالنسبة لها مركز الراحة الخاص بها، تخاف أن تغادره يوما ما لأنها قد اعتادته، ولا تدر حقا ماذا تفعل لو أنها خرجت يوما ما من تلك الغرفة!

وهذا أمر طبيعي يحصل لجميع البشر، فنحن نخاف التغيير ونهابه، و لا زلنا ـ رغم كبر أحلامنا ـ نعمل كموظفين لدى مركز البريد أو أساتذة في مدرسة ما، ولا نستطيع مغادرة منصب عملنا التافه لأننا بطبعنا نخاف من المجهول، نخشى أن نخسر وظيفتنا المملة فلا نجد وظيفة أحسن منها، لذلك فنحن نضع أحلامنا الكبيرة في سلة المهملات، ويصبح مركز البريد أو قسم المدرسة هو مكان الراحة الخاص بنا، لا نغادره حتى نطعن في السن، وتقتلنا الأمراض المزمنة، لنموت بعدها ميتة تافهة لا يتذكرنا بعدها حتى أطفالنا!

لذلك فالفتاة قد كانت تنتابها الهواجس حول أنها لو خرجت من تلك الغرفة فستخسر حمّامها الأسبوعي، ووجباتها الثلاث، وسريرها الدافئ، ومسؤولياتها المنعدمة، ووصلت إلى فكرة أنها يجب أن تبقى في تلك الغرفة، ولا تتحرك منها أبدا، كما أنني أحيطك علما ـ أيها القارئ ـ أن هنالك شيئا آخر قد دعاها إلى البقاء هناك، شيء لم تعرفه قبلا ولم تجربه سوى الآن، ألا وهو: الوحدة، فالوحدة من أخطر الأشياء التي قد ندمن

عليها بعد الكوكايين والهاتف النقال، فهي تبدو في بادئ الأمر مملة، لكنك إن أطلت مكوثك فيها، فستصاب بإدمانها بشدة، ستكره الاجتماع بالأشخاص والتحدث معهم حول أي موضوع كان، ستخرج مع أصدقائك وأنت تنتظر بشغف وقت افتراقكم كي تخلو إلى نفسك وتعانق وحدتك مجددا، سيمسي الضجيج عدوك اللدود، والسكينة حبيبتك المخلصة!

مع ذلك، فقد كانت تترقب بشغف قدوم إدواردو، ليس من أجل أن يؤنس وحدتها، فهذا أمر قد فصلنا فيه، بل لأنها أحست فجأة بترابط عاطفي قوي بينها وبينه، فهي لم تتعلق به كثيرا في الماضي حينما كان يحبها، ويدلّلها، وينثر الورود على طريقها، بل كان يبدو لها شابا عاديا مثله مثل أي شاب آخر، أما الآن، وبعد أن اختطفها واحتجزها، فقد صارت تلاحظ فجأة وسامته الغير عادية، ورجولته الفذة، وفحولته الذكورية التي تبدو من خلال حركاته وسكناته، أحست بالتعاطف معه، لأنه لم يفعل ما فعله إلا لكونه يحبها، وأنها هي الشاطئ التي خانته، وتستحق أن يشدّها من شعرها، ويمسح الأرضية بها!

كانت تتمنى ألا ينقذها أحد، وحتى لو قرر إدواردو يوما ما أن يفتح الباب لها، فهي لن تهرب، هي تريد أن تبقى مختطفة، معتدى عليها في هذه الغرفة القاسية مدى

الحياة؛ لقد كانت تظن أنها قد وقعت في حب إدواردو، لكنها في الحقيقة لم تكن واقعة سوى تحت تأثير «متلازمة ستوكهولم»، وهي ظاهرة نفسية تصيب الفرد في بعض الحالات، حيث يتعاطف ويتعاون مع عدوه أو من أساء إليه بأي شكل من الأشكال، أو يظهر بعض علامات الولاء له، مثل أن يتعاطف المختطَف مع المختطِف.

وفي إحدى الأيام، وبينما كان إدواردو يقطع رواق المنشأة لإحضار الطعام إلى نزهة الأحلام، سمعها لأول مرة تغني بنشاط وسعادة أغنية جميلة لفرقة «One Direction»:

«من ذلك الظل الذي يحتجزني كرهينة؟ لقد بقيت هنا لأيام...

من ذلك الذي يهمس قائلا إنني لن أهرب أبدا؟

أعلم أنهم قادمون لإيجادي قريبا...

لكنني خائفة من الاعتياد على أن أكون محتجزا من قبلك!

حبيبي، أنظر ماذا فعلت بي! لن أغادر أبدا إذا بقيت متشبثا بي هكذا!

طوال حياتي كنت وحيدة... استخدمت الضوء

ليرشـدني إلى المنـزل...

لكننـا الآن بمفردنـا... لا يوجـد مـكان آخـر أود الذهـاب إليـه!».

فَتـح البـاب ليجـد الفتـاة تغنـي بسـعادة، وهـي تصفـف شـعرها وتعتنـي بهندامهـا، أحـس بتناقـض في شـعوره، فقـد أحـس بالاسـتفزاز لأنهـا تبتسـم رغـم أنـه كان يريدهـا أن تعـاني، وفي نفـس الوقـت كان سـعيدا لرؤيتهـا مبتهجـة؛ قـام بوضـع الطعـام عـلى المائـدة وقـال باسـتنكار: «لـو كنـت مكانـك لفضلـت البـكاء عـلى الغنـاء!».

ـ «إذن فأنـت ضعيـف، لذلـك تفضـل البـكاء، الأقويـاء لا يبكـون».

ـ «هل تحاولين استفزازي؟».

ـ «ولما أفعل؟ أنت من كلمتني، هل سعادتي تستفزك؟».

سـكت إدواردو وهـو يشـاهد هـذه الفتـاة الغريبـة، ثـم اسـتدار راجعـا، وحينـما هـم بإغـلاق البـاب نادتـه نزهـة الأحـلام: «إدواردو!».

ـ «ماذا؟».

ـ «أحبك!».

حسنا، لنتوقف قليلا ـ أيها القارئ ـ ونحاول وصف شعور إدواردو حين سماعه فجأة لكلمة «أحبك»، وسأبدأ بسؤالك أنت أولا: «كيف كان إحساسك أول مرة حينما قال لك شخص تحبه أنه يحبك؟»، لنكن صريحين مع بعض ما دمنا الآن وحيدين: أنا وأنت فقط! فكر وأجبني بصراحة!

لربما ستقول لي إنك لو عشت هذه الحادثة حقا لما كنت الآن تقرأ هذا الكتاب وحيدا ككاتبه؛ أو ربما قد عشتها لكنك لا تريد تذكرها الآن لأنك تتمنى كل يوم لو أنها لم تحدث! في كلتا الحالتين، سنعلم معا شعور بطلنا، سواء كنا جربناه أم لا!

سمع إدواردو كلمة «أحبك»، فتوقف جسمه تلقائيا عن الحركة دون أن يرغب في ذلك، وكأن هذه الكلمة السحرية تعطي أوامرا للجهاز العصبي بالتوقف عن العمل قبل أن يتم تفسيرها من طرف الدماغ! بعد ذلك فتح ثغره بدهشة، وكأنه لم يصدق ما قيل له، بل ظن أنه لم يسمع تلك الكلمة التي كان يتمنى سماعها منذ سنوات، وكأنه رجل ظمآن لم يصدق حينما وجد واحة في عمق الصحراء، وبقي يجزم أنها مجرد سراب لا غير!

خفق قلبه بسرعة، خفقة رجل تلقى صعقة كهربائية ذات شدة عالية بعد توقف قلبه عن العمل! أحس بضعف في ركبتيه وارتباك في عضلاته، ارتفعت درجة حرارته وأحس بالتوتر، زاد معدل تنفسه ونطق في وقت كان يفضل السكوت فيه: «ماذا قلت لتوك؟!».

ـ «قلت إنني أحبك يا إدواردو!»، قالتها بلحن مميز، وبتغنج ودلال.

ـ «كلا... أ.... أنا لا أصدق... أنت تتلاعبين بي أليس كذلك؟ أجل! لا يمكن لهذا أن يكون حقيقيا، أنت تريدين أن أسمح لك بالخروج، لكنني لن أفعل... أجل لن أفعل ذلك... لن أدعك تستغلينني فأنا رجل قوي، أجل... أ... أنا.... قـ... قوي، إلى اللقاء!».

ـ «حتى ولو عرضت علي الخروج فلن أفعل، أنا أفضل البقاء معك، إن اجتماعنا من جديد قد ذكرني بالأيام الخوالي، يوم كنت لك وكنت لي، إلى اللقاء!».

خرج إدواردو من الغرفة وهو يراقب طريقة تنفسه: «شهيق، زفير»، لأنه لو غفل عن مراقبة ذلك فسيختل تنفسه، ويختنق ثم يموت! لقد أخبرته نزهة الأحلام أنها تحبه، تلك الفتاة التي ظن أنه يكرهها، فما إن أخبرته بحبها

حتى هام عشقا وهياما بها، لقد عرف في ذلك اليوم أن الحب لا يموت، الحب يختفي فقط، وكلمة سحرية مثل «أحبك» كفيلة بإظهاره من جديد!

علقت في مخيلته جملة «الأيام الخوالي»، ورجع بذاكرته إلى ذكرياتهما معا، فتذكر يوم تشاجر مع إحدى العصابات، واحتاج منه الأمر أياما ليتعافى من الأذى الجسدي الذي أحيق به، لكنه لم يتعافى من الأذى النفسي، لأنه على الرغم من شدته وصلابته، فقد كان رجلا مرهف الإحساس، رقيق الشعور، اتصلتْ به يومها وأخبرته أنها تنتظره في حديقة الصداقة «PARQUE DE LA AMISTAD»، أتى إليها بجسم متهالك، وجروح في الوجه، ونفسية ميتة، ليتفاجأ بنزهة الأحلام وهي في أبهى حلة، تبتسم له، وتنظر نحوه ونحو طاولة الحديقة، استدار ليرى كعكة جميلة مصنوعة من الشوكولاتة الشهية موضوعة على سطحها، تحيط بها العديد من البالونات الملونة البهيجة، شموع أعياد الميلاد، وعلبة مخصصة للهدايا متوسطة الشكل، زرقاء اللون لامعة؛ صرخت ببهجة قائلة: «عيد ميلاد سعيد يا أغلى إدواردو في العالم!».

فتاة كهذه، وموقف كهذا، جعله ينسى في لحظة واحدة كل ما مر به من متاعب، لقد كان مريضا وكانت هي شفاء روحه، أحس بالبهجة مجددا، تلك البهجة التي لا يهبنا إياها

سوى الأناس المميزون، وقد كانت نزهة الأحلام أنثى مميزة بحق!

تذكر تلك الأيام التي كانا يعيشانها ببساطة، بعيدا عن العمل، والمهمات المملة، والدماء التي أُريقت بسبب ومن دون سبب، حينما كانا يشتريان «البيتزا» لدى إحدى محلات الأكل السريع، ويتناولانها قطعة قطعة بغير اكتراث على قارعة الطريق، وهما يتحدثان حول أمور ساذجة، ويرسمان مستقبلهما معا بكل شغف!

تذكر كم كانت هذه الفتاة بسيطة، فرغم ثراء أبيها الفاحش إلا أنها كانت بسيطة في كل شيء، وكما أن المرأة تغريها الأموال، فلا يغري الرجل سوى البساطة وغياب التكلف!

لقد تذكر حبهما وتعلقهما ببعضهما البعض، وسَخط على هذا الزمان البائس الذي يبحث عن الحبيبين فيفرقهما، وعن القلبين فيقتلهما، وعن الحلمين فيميتهما!

خرج من تلك الغرفة شخصا آخر غير ذلك الذي دخل إليها، لقد جعلت منه كلمة «أحبك» أميرا بعدما كان وحشا، لقد أضحى مجددا إدواردو القديم، ذلك الذي ظنه قد مات ولن يعود إلى الأبد!

تذكر حينما ناداه رب عمله، وأمره أن يرمي بها في

تلك الغرفة، ويغلق عليها بانتظار أمر آخر، كان يود إطلاق سراحها بكل جوارحه، لكنه إن فعل ذلك فسيخون قائده الذي وثق فيه، وإن لم يفعل فسيخون حبه القديم الجديد، وحبيبته السابقة الحالية!

إذن، وفي تلك اللحظة بالذات، نشأت داخل نفسيته معركة بين الخير والشر، بين الإقدام والإحجام، بين الحب والخيانة! لقد عرف أن عليه الاختيار بين حبيبته التي يحبها، ويعشقها، ويهيم بها، أو رب عمله الذي يثق فيه، ويعامله كابن له!

هو لم يتأكد بأنه يحبها إلا بعد أن خذلته قدماه، فالجسم يعرف أحاسيسنا أكثر منا، ويخبرنا بما نشعر به عن طريق حركات وجهنا، وأيدينا، وكافة جسدنا، لذلك فقد كان عليه أن يتعامل مع الموقف بحزم، ويضع قرارا جليا لكيلا يندم عليه مستقبلا.

أمضى الليل في فراشه محدقا في سقف غرفته، يدعو الرب أن ينير طريقه لأنه لا يستطيع اتخاذ قرار بنفسه، ولا يزال الرجل ملك قرارته إلى أن يقع في الحب، فيختلط عليه كل شيء، وتنقص بصيرته، ولا يمتلك زمام أمره كما كان يفعل من قبل!

(٤)

كان عبد الجليل في مكتبه، يقوم بإمضاء بعض الأوراق، وتحيين سجلات العمل، ولم يوقفه عن ذلك سوى طرق عنيف على بابه، تلاه دخول الزعيم بسرعة، وعلامات القلق بادية على محياه، وقف عبد الجليل احتراما له، ودعاه للجلوس على الكرسي، ثم جلس على كرسي آخر مقابل له، ونادى السكرتيرة كي تحضر القهوة؛ أخبره الزعيم بأنه لا داعي لذلك لأنه لن يقضي وقتا طويلا، ثم دخل في صلب الموضوع قائلا: «لدينا مهمة يا عبد الجليل».

ـ «حاضر سيدي! إنه حقا لخبر رائع! لقد كنت أختنق في هذا المكتب اللعين لعدة أشهر!».

ـ «الأمر معقد نوعا ما، لأنك ستجد نفسك مرغما على عبور تلك الهضبة من جديد، أين وقعت في كمين رفقة أصدقائك، والأمر الأسوأ من ذلك هو أنك ستضطر لخوض

قتال مع مجموعة من نفس المنظمة التي سلبتك أعز خلانك، وتعيد نفس مراحل تلك المأساة!

لا زلنا في حرب طويلة مع منظمة «غاما»، والتي أخالها لن تنتهي، وهم ينوون اليوم الاستيلاء على بنك «HSBC»، وأخذ رهائن، وسرقة أموال ووثائق، إنهم قادمون من الجنوب الشرقي لولاية باخا كاليفورنيا، وسيمرون عبر جبال سييرا مادري، والمطلوب منك الالتحاق بالجبل ورصدهم، ثم القضاء عليهم والعودة إلى المعسكر».

كان عبد الجليل يتابع كلام سيده وكأنه في حلم، كان قلبه يخفق بشدة، ودماؤه تجري داخل عروقه بسرعة من فرط المفاجأة، والحيرة، والسعادة، واللا أدري!

منذ وفاة صديقه سيف وهو يحلم أن ينتقم له، أن يطلق النار على قلوب من قتلوه، أن يفتح بطونهم ويستخرج أحشاءهم، أن يصلبهم ويعذبهم قبل ذبحهم، أن يبحث بعد ذلك عن مكان دفنهم، ويبصق على قبرهم!

منذ ذلك المنعرج الخطير في حياته وهو يحلم بحياة المرتفعات، أين يستيقظ على مناظر الجبال، وفحيح أفاعي الغابات، وخرير مياه الوديان العميقة المميتة! أين يسيطر الخوف والحذر على كل حركة، وكل خطأ يؤدي إلى الموت

الــزؤام!

منـذ أن رافـق سـيف في هجماتـه، ونـام إلى جانبـه في خنـدق واحـد، وهـو مدمـن عـلى تلـك الخنـادق التـي اعتـادوا أن يحفروهـا ليبيتـوا فيهـا بـدل الخيـم، كونهـا تحميهـم مـن الرصاصـات الغادرة التـي تـأتي مـن طـرف مكسـيكيين أوغـاد ينـوون سـلبك حياتـك غصبـا عنـك!

وهـا هـو اليـوم زعيمـه الرائـع! هـا هـو ذا أحسـن زعيـم في العـالم يحقـق لـه حلمـه، ويرسـله إلى تلـك الجبـال مجـددا، إلى تلـك الغابـات، والخنـادق، والخـوف، والدمـاء، ورائحـة الجثـث المحترقـة! أجـل لقـد حقـق لـه حلمـه، وحلـم كل مكسـيكي تـم حقنـه بتلـك الحقنـة العظيمـة... ومـا أكثرنـا!

نظـر عبـد الجليـل إلى قائـده واسترسـل قائـلا: «سـيدي، يشرفنـي كثـيرا أن تعهـد إلي بهـذه المهمـة الشريفـة، وإني لأسـتنكر كثـيرا توتّـرك الزائـد عـن حـده، لمـا القلـق يـا سـيدي؟ إن كان بسـبب خوفـك مـن فشـلي في المهمـة فأنـت مخطـئ جـدا، لأنـك لم ترسـل ذلـك الجبـان الـذي يعمـل معنـا، ويتظاهـر بالبـأس والشـجاعة رغـم أنـه لم يغـادر يومـا مـا مكتبـه، ولم يبـت ولـو ليلـة واحـدة في العـراء، وكل مـا يحسـن فعلـه هـو الوشـاية بأصدقائـه، وتقديـم الحلـوى والهدايـا لـك في العمـل حتـى تقـول عنـه أنـه أحسـن موظـف! أنـت تعـرف جيـدا عمـن أتحـدث يـا سـيدي،

وتعلم أكثر مني أنني أنتمي إلى الصنف الآخر من الموظفين، أولئك الذين يقومون بأعمالهم على أكمل وجه ولا يقبلون أي ملاحظة أو تجريح من طرف قادتهم، أمثالي قد يشتمونك إن نظرت إليهم بنظرة لم تعجبهم، لكنهم الأكفأ في العمل، والذين يُعتمد عليهم بحق! نحن من نقضي لياليا في البرد، والخوف، والظلام! نحن من نترك نساءنا وأطفالنا في بيوتنا، ونمضي لقتال أعدائنا غير مبالين بأرواحنا، فالموت أرحم من العيش في هذا العالم الغير عادل يا سيدي!

أما إن كان خوفك بسبب احتمال موتي في هذه المهمة، فأحيطك علما بأنني قد قضيت نحبي منذ وقت طويل، أنا ميت منذ استشهاد صديقي في كمين غادر، متوفّى منذ أن عرفت أنه ليس لي أي قيمة في بلادي حتى ولو كنت مواطنا صالحا وموهوبا، هالك منذ أن خذلني الجميع، منذ أن أغرقت نفسي بالخطايا، منذ أن فقدت إيماني بكل شيء!».

سكت الزعيم وهو ينظر إلى هذه التجربة الناجحة جزئيا، تذكر يوم حقن سيف وعبد الجليل بمصل «Esperanzas»، لقد نجح هذا المصل في جعلهما يتعلقان بالمكسيك ولا يستطيعان مغادرتها، لكنه فشل في جعلهما آلة بشرية، وكأن دماءهما الأجنبية الجزائرية رفضت إلا أن تأبى الطاعة والخضوع، وتميل إلى الرفض والتمرد!

«ليكن المسيح في عونك!» قال الزعيم، ثم خرج من المكتب، وأغلق الباب برفق؛ وقف عبد الجليل بنشاط، وقام باستدعاء رجاله إلى ساحة المنظمة، تقدم نحوهم وبدأ الكلام قائلا:

«قبل وقت طويل وقفنا هنا، في هذه الساحة، وأمام هذا العلم المرفرف، أين سمعنا خطابا لقائدنا السابق المرحوم سيف، حول واجبنا المقدس للدفاع عن بلادنا، والقضاء على كل من تسول له نفسه المساس بحرمته، وبأسه، وسؤدده!

وها قد مرت الأشهر تباعا، وأتيت اليوم لأقدم لكم نفس الخطاب، وأعطيكم نفس التعليمات، رغم أنني لا أملك بلاغة المرحوم ولا فصاحته!

ملخص ما أريد قوله، هو أن بعض المكسيكيين الأوغاد ينوون الاعتداء على أحد بنوكنا، ومهمتنا التصدي لهم، والقضاء عليهم شر قضاء، حتى نرسل رسالة لكل من يفكر بالتقدم نحو بلادنا أن يفكر مرتين، لأن حراسها الوحوش لن يناموا حتى يفترسوا كل من يفكر بالاقتراب منها!

لقد مات قائدكم من قبلكم، وضحى بنفسه في سبيلكم، وإني أعدكم أمام نفسي، وأمام الله، وأمام بندقية الكلاشينكوف المقدسة، أنني سأفعل نفس فعلته إن لزم الأمر

ذلك، ومتأكد من أن أي مقاتل فيكم كان ليفعل المثل لو كان مكاني، وأنكم ستحمون بعضكم بعضا، لأننا ننشد الحياة لا الموت، وهذا ما يفعله الإخوة من أجل بعضهم: بث حياة جديدة فيهم!

أنا أعلم أن كثيرا من الأسباب قد جمعتنا اليوم هنا، وأن كل فرد فينا يقاتل من أجل شيء ما، فهنالك من يقاتل من أجل الوطن، وهنالك من يحارب من أجل المال، وهنالك من يصارع من أجل لذة القتال؛ كل ما في الأمر أنني أترجاك أن تحافظ على نفسك، وإن أتتك المنية يوما ما، فاحرص على أن تلقاها بصدر بارز، حتى يتذكرك أهلك كبطل لا كجبان!

أعلم أن الله قد كتب لنا هذه المهنة الصعبة والشقاء في حياتنا، كما كتب للبعض مهنا سهلة وحياة رغيدة، ونحن لا نعلم الحكمة من هذا ولا الغرض منه، كما لا نعلم حقا إن كنا سنجازى بعد موتنا نتيجة شقائنا في الحياة، أم هل سيستمر شقاؤنا في الحياة الأخرى كذلك؟ كل ما يهمنا الآن هو أنه حينما نلتقي خالقنا، سنخبره أننا قد قاتلنا بشرف، ومتنا بشجاعة، ويكفينا فخرا أن أمهاتنا، وآباءنا، وزوجاتنا، وأطفالنا سيتفاخرون بنا بعد موتنا حتى وإن كان نصيبنا الإهمال من وطننا، ولم يعط قيمة لما دفعناه ثمنا من أجله!

من نحن يا رجال؟!».

صرخ الكلّ بصوت واحد: «نحن قوة جمهورية المكسيك العظمى!».

ركب الجميع عرباتهم، وانطلقوا نحو الجبال التي لا ترحم، أخذ عبد الجليل يشاهد الطبيعة من خلال النافذة، أين كان كل مكان يذكره بذلك اليوم المشؤوم: الحجارة التي سدت طريقهم، الرصاصات التي كانت تأتي من كل حدب وصوب، كلمات سيف الرنانة، وقدرته المذهلة على التركيز والسيطرة على الموقف، وثباتُه العسكرية من ساتر إلى آخر، الجثث المترامية هنا وهناك، ورائحة البارود ممتزجة برائحة الموت!

امتد الطريق الجبلي نحو إحدى الهضاب العالية ثم انتهى، وبدا أن الطريق غير صالحة لمرور العربات، توقف الرتل، ثم قام الجميع بركن عرباتهم أسفل الهضبة، وتركوا مجموعة لتحرسها، ثم صعد الجميع إلى قمتها في رتل واحد، يتقدمهم عبد الجليل، أين قاموا بحفر خنادق بتشكيل دائري حتى يوفروا حماية من كل الجهات، ثم نفذوا إجراءات المبيت، أين جهزوا طعامهم المعلب وأفرشة نومهم، ذكّرهم عبد الجليل بضرورة عدم إصدار أي صوت أو إشعال أي نار، حتى لا يتم كشف مكان مبيتهم، ثم قام بتنظيم مخطط الحراسة والدوريات الليلية، وذهب إلى خندقه مفترشا التراب!

نحن نحس بالسكينة الحقيقية حينما تلامس أجسادنا التراب المقدس، فأنت تشعر حقا أنك قد خلقت منه، وأنه جزء من روحك برائحته، وملمسه، وقدرته الهائلة على امتصاص الطاقة السلبية منك، كان عبد الجليل يحس بالانتماء، فهو يعلم كغيره من المقاتلين أن مكانه الأنسب هو خندق حربي وليس فراش فندق راق!

قام بتجهيز سلاحه، أين كانت النجوم قد تموضعت في السماء، مشكلة أيقونة خلابة، بزغ البدر في المنتصف ضيّاءً، ولمع شهاب سابح في فضاء الكون، ليطلب من ناظره أمنية تتحقق في حينها!

نظر عبد الجليل إلى الشهاب وقال: «اللهم إني تعذبت كثيرا في حياتي وأنت تعلم ذلك، وإن كل ما أطلبه منك اليوم هو قليل من السعادة، قليل فقط، حتى تستطيع أمي رؤيتي يوما ما وأنا أبتسم، قبل أن يأفل نجمي، وأنحدر ساقطا مثل هذا الشهاب!».

عانق سلاحه، وخلد إلى النوم في حينه من شدة التعب، ولم توقظه سوى تلك الأشعة الذهبية اللامعة الآتية من شمس الغد المشرقة، فتح عينيه بصعوبة بالغة، وقام بتغيير وضعيته حتى لا ينال منه ذلك الضوء الساطع الذي عكر له ظلام نومه، «خمس دقائق أخرى ثم أستيقظ»، قالها عبد

الجليل وهو يغطي عينيه بكلتا يديه، فقد كان ينشد وهو في مهمة قتالية تلك الخمس دقائق التي يستلذها كل واحد فينا حتى ولو كان مستيقظا من غيبوبة!

صحا بعدها بنشاط، قام بتجهيز رجاله، ثم انطلقوا مجددا نحو هضبة أعلى رآها عبد الجليل الأنسب لنصب كمين، وصلوا إلى سطحها في منتصف اليوم، أين قام الجميع بتجهيز المكان، وتمويه أنفسهم بالطين والأعشاب، حتى صاروا جزءا من الطبيعة!

كانت تلك الهضبة تطل على طريق إجباري لا بد لكل وافد من الطريق الجبلية إلى ولاية باخا كاليفورنيا من المرور عليه، مضت الأيام ولا شيء يذكر، لم يمر سوى بعض الحطابين، والرعاة، والمزارعين، لكن الأمر ما لبث أن اختلف بعد أسبوع، حيث استيقظ عبد الجليل على صوت حركة لمشاة على الطريق الترابي، أطل بحذر على حافة الهضبة، فوجد الطريق خالية تماما، لكن صوت المشي كان قريبا جدا، على الرغم من أنه لا يوجد مكان آخر من الممكن التحرك فيه سوى سطح تلك الهضبة، استدار بخوف محاولا معرفة مصدر الصوت، ليتفاجأ برجل يرتدي زيا مدنيا متكونا من طاقية حمراء اللون، وقميصا بنيا، وسروالا أزرق، وحذاء رياضيا؛ كان يعلق بندقية على كتفه الأيمن، ويمشي

في منتصف تشكيل المقاتلين؛ «تبا كيف استطاعوا اختراقنا!»، همس عبد الجليل مرتاعا، وهو يصوب بندقيته نحو الرجل، استدار ليتفقد أفراده لكنه وجد مزيدا من الرجال يقطعون الهضبة الواحد تلو الآخر، أحس بالخوف، وعرف أنه في موقف لا يحسد عليه، كما أنه تردد في إطلاق النيران لأنه علم أنه لو فعل ذلك، فسيتبادل رجاله الإطلاق، وستعمّ الفوضى، وبذلك سيصعب التحكم والسيطرة على الموقف.

كان الوقت ضيقا للتفكير والبحث عن قرار صائب، لذلك فقد نهض من مكانه مصوبا سلاحه باتجاههم وصرخ قائلا: «توقفوا وارموا أسلحتكم! أنتم مطوقون، وسنرديكم قتلى فردا فردا عند أي حركة مفاجئة!»، استدار الرجال ونظروا إليه بخوف، قاموا برمي أسلحتهم، وتكلم أحدهم قائلا: «ارحمنا يا سيدي! نحن مجرد صيادين، لم نكن نعلم بوجودكم هنا، وإلا لما مررنا إطلاقا، نحن لا نريد شيئا، يمكنكم أخذ أسلحتنا وطعامنا فذلك كل ما نملك، لا تقتلونا أرجوكم، فعائلاتنا في انتظارنا!».

انتبه عبد الجليل إلى أسلحتهم فوجدها جميعا عبارة عن بنادق صيد، همس قائلا: «تبا! إنهم صيادون، كيف لم أنتبه إلى ذلك! كدت بغبائي أن أحدث مجزرة فضيعة!».

بعد ذلك نظر إليهم وقال: «نحن لسنا قطاع طرق يا

سادة، نحن منظمة حكومية، خذوا أسلحتكم وارجعوا من حيث أتيتم، فلا يوجد صيد هذا الشهر سوى صيد البشر!».

شكره الصيادون، وعادوا أدراجهم من حيث أتوا، أما هو، فقد اعتراه الغضب من استهتار أفراده، وكيف أن مجموعة من الرجال قد دخلوا إلى مكان نصب الكمين دون أن ينتبه لهم أحد، لذلك فقد قرر معاقبة المذنب بشدة، واتجه مباشرة ليتفقد الحارس المسؤول عن مراقبة وحماية المكان الذي دخلت منه تلك المجموعة.

وصل إلى مكان الحارس فلم يجده، بحث عنه في القطاعات المجاورة، ليعثر عليه مختبئا خلف صخرة، راميا سلاحه، يرتجف من الخوف، سأله بحزم: «ماذا تفعل هنا يا شجاع؟! لماذا تركت نقطة حراستك؟!»، لم يقو الأخير على النظر إليه، وأجابه بصوت مرتجف: «لقد كانوا كثيرين يا سيدي، وأنا لدي زوجة وأطفال...».

ـ «آه، لديك زوجة وأطفال إذا! الآن فهمت!».

ـ «شكرا على تفهمك يا سيـ... سيدي، يسعدني كثيرا أنك تفهـ...مت موقفي، لأنني لو مت لا قدر الله، فليس هنالك ما يعيلـ...يعيلهم سواي...».

ـ «نعم، أجل، أنت محق، وأنا أتفهم جيدا موقفك، لقد

كنت شجاعا جدا بتعريض زملائك للموت في سبيل زوجتك وأطفالك، إنه لعمل شهم تستحق عليه وسام البطولة! يجب على الجميع أن يسمعوا بفعلتك الشجاعة هذه، وخاصة زوجتك، سأحرص على إعلامها أن زوجها قد هرب من جبهة القتال كامرأة خائفة، رغم أنني أعرف الكثير من النسوة اللائي صمدن في المعارك بعد أن حمي وطيسها، ومتن مبتسمات بفخر في برك دمائهن! أجل! على زوجتك أن تعرف مقدار حبك لها! وكيف أنك تحرص على حياتك من أجلها، فتبيع ذمتك، وكبرياءك، وشرفك، وكل شيء لعين آخر في سبيلها! كن سعيدا أيها المقاتل الفذ، سأكتب لها حالا!».

ـ «لا! أرجوك يا سيدي! قد تظن أنني.....».

ـ «جبان؟! وهل بقي هنالك شك في ذلك؟ بالتأكيد ستعرف كم أنت رعديد وخسيس! وستندم بشدة على اليوم الذي تزوجتك فيه، وستبصق على خاتم زواجكما، وتلعن القدر الذي وهب لجميع النسوة رجالا مكسيكيين ذوي نخوة وشهامة، أما هي فكان نصيبها نصف رجل، أو لنقل ذكرا، لا يشرّفها، ولا يشرّف أطفالها، ولا اسم عائلتها!

إن المرأة تفضل أن تكون أرملة رجل شهم تفتخر به أبد الدهر، على أن تكون زوجة جبان تخجل حتى من ذكر اسمه أمام عائلتها التي تعتبرها خيبة أمل لها لأنها لطخت

شرفهم بالزواج من مخنث لعين!

أما أطفالك فسيصابون بصدمة، وسيتعرضون للتنمر من طرف أقرانهم، سيطلقون عليهم ألقابا مضحكة مثل «ابن الجبان» أو «ابنة الخائن»، وسيحسون بالنقص حينما يشاهدون الجميع يفتخرون بآبائهم، ويعتبرونهم أبطالهم، بينما هم يخجلون بانتمائهم لك، ويتمنون لو لم يكونوا من صلبك!

ما ذا عن أحفادك؟ كيف ستحكي لهم قصص بطولاتك؟ هل ستكذب كما يفعل أغلبية الخونة والرعاديد بسرد قصص مغلوطة كاذبة؟ أم ستنكر أنك قد كنت مقاتلا في يوم من الأيام، وتكتفي بسرد قصص بسيطة عن الجميلة والوحش؟ ماذا سيحدث حينما يسمع أحفادك عن حادثتك هذه؟ هل سيعترفون للناس بأنك جدهم؟ أم أنهم سيتجنبون إلقاء التحية عليك في الطريق وكأنهم لا يعرفونك؟».

ـ «أرجوك يا سيدي ارحمني! أفضل الموت على أن تتلطخ سمعتي، وأصير عبئا تحمله عائلتي أبد الدهر! أنا أعلم أنك مسلم، وأن دينكم يدعو إلى الرحمة، فارحمني حتى يرحمك الرب، أرجوك!».

ـ «أجل! ديني يدعو إلى الرحمة، لكنه يدعو إلى الحزم أيضا، إن ما فعلته يدعى في الإسلام «التولّي يوم الزحف»،

وعقوبته الإعدام، هل ترى أن العقوبة جائرة؟ قاسية؟ ظالمة؟ لا بأس! سأطبق عليك إذن قانون الجيش الأحمر الروسي، وأترك لك الخيار بين أن تحيا، ويتم فصلك من الخدمة، وإحالتك على المحكمة بتهمة الخيانة، أين سيودعك القاضي السجن المؤبد، وتطلق عليك صفة «جبان»، تجعل كل من هو مرتبط بك من بعيد أو قريب يتبرأ منك، وينكر علاقته بك، أو بين أن تموت الآن، وأعلنك رجلا شريفا مات في ساحة القتال، حيث ستبقى ذكرى مشرفة لزوجتك، وأطفالك، ووالديك، وإخوتك، وجيرانك، وأصدقائك!».

ـ «لكن كيف أموت؟ هل ستقتلني؟».

ـ «أنصحك بأن تقتل نفسك على طريقة مقاتلي الساموراي، حتى تكفر عن خطئك، وتمسح العار الذي لحق بك، ها هو ذا الخنجر، قم ببقر بطنك، وسأتم الباقي من أجلك!».

أمسك الرجل السكين بيد مرتجفة، نظر إلى عبد الجليل وقال مستعطفا: «هل يمكنني على الأقل أن أكتب وصية؟»، أجابه: «أكيد! ذلك أيضا من طقوس السيبوكو!».

أخرج ورقة بيضاء وقلما من حقيبة ظهره، وبدأ في كتابة رسالة أخيرة لعائلته، قام بعد ذلك بطيها، وإرجاعها

مجددا إلى الحقيبة، ثم أكل طعاما خفيفا، وشرب ماء، وجلس على ركبتيه، أين أمسك الخنجر بيده اليمنى، ووضع النصل على بطنه، ثم أغمض عينيه، وبقي على تلك الوضعية برهة من الزمن، بعد ذلك أجهش بالبكاء، واستدار نحو عبد الجليل قائلا: «ارحمني أرجوك! لا أستطيع فعل ذلك! أعطني فرصة للنجاة! ارحمني!».

نظر إليه باحتقار، وصرخ في وجهه بشدة: «تبا لك يا عديم الشرف! لا تستطيع العيش كرجل ولا الموت كمقاتل!»، قام بعد ذلك بحمل سلاحه وتزويده، ثم سدده نحوه قائلا: «ليلعنك القدر!»، دفعة طلقات نارية، كانت كافية لإردائه قتيلا، تلتها بعد ذلك طلقات أخرى أطلقها في السماء لغاية في نفسه، سمع بقية الأفراد الصوت فلزموا أماكنهم، وقاموا بتزويد أسلحتهم من أجل الرد بقوة، أخبرهم عبد الجليل بعد ذلك بأن أشخاصا مجهولين قد قاموا بمحاولة الدخول إلى مكان نصب الكمين، لكن الحارس بشجاعته وفطنته قد قام بالرد عليهم ومنعهم من الاقتراب فلاذوا بالفرار، أما زميلهم، فقد استشهد بفخر في سبيل الوطن، وفي سبيل إعلاء راية الولايات المتحدة المكسيكية، وإنه لموت يحسد عليه أي مقاتل!

ابتسم الجميع وقاموا بالترحم عليه، بينما أرسل عبد

الجليل برقية إلى عائلته مفادها أنه قد استشهد في سبيل الوطن، مرفوقة بوسام البطولة حتى يبقى ذكرى لأهله وذويه، ثم خاطب نفسه قائلا: «أنا لم أفعل ذلك من أجله، فهو لا يستحق حتى ذكر اسمه، ولم أفعله من أجل زوجته، فلا بد أنها جبانة مثله وإلا لما تزوجته، كما أنها امرأة، وأنا أمقت النساء! لكنني فعلتها من أجل أطفاله الصغار، فلا ذنب لتلك البراعم الصغيرة بما اقترفه أبوها من خيانة!».

رجع عبد الجليل إلى خندقه، نظر إليه قائلا: «أنت هو مكاني الوحيد في هذا العالم البائس، فوقك أعيش، وتحتك أُدفن، وفيك أجد راحتي الأبدية!».

(٥)

امتلأت ساحة المعسكر عن آخرها بالجيش المكسيكي من مختلف القوات، كان الجميع مقسما إلى ثلاثة أرتال: رتل الضباط، رتل ضباط الصف، ورتل رجال الصف؛ وعلى رأس كل رتل كان يقف طبيب عسكري يقوم بحقن كل فرد بإنزيم «Esperanzas»، ذلك الإنزيم الذي تم تعريفه على أنه لقاح جديد ضد فيروس «كورونا»، لذلك فقد كان الجميع سعيدا بأخذه، خوفا من ذاك المرض الذي صار يهدد النسل البشري.

بعيدا عن الأرتال، كان يجلس مروان برفقة الجنرال «لويس»، وهو شيخ طاعن في السن، ذو ملامح عسكرية صارمة، شاربين ناصعي البياض، قامة قصيرة وبذلة مزدحمة بالأوسمة؛ أخذ الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث، ودار بينهما الحوار التالي:

ـ «يجب أن يكون لقاحك كما وصفته تماما، وإلا فكن واثقا أنك لن تنال بيزو واحدا!».

ـ «أربع وعشرون ساعة فقط يا سيدي، وسترى كيف سيصير الجنود كلابا وفية!».

ـ «إن كان ما أخبرتني به صحيحا، فسنشن الحرب قريبا على جميع جيراننا، سنبدأ بغواتيمالا، وبليز، والسلفادور، وهندوراس، ونيكاراجوا، وكوستاريكا، وبنما، ثم نتوسع إلى باقي مدن أمريكا الجنوبية! أرجو فقط ألا يكتشفوا أن تلك اللقاحات التي بعناها لهم هي لقاحات زائفة!».

ـ «كلا! لن يدركوا ذلك، وهذا وعد مني، هذا لأنها تقوم بنفس تأثير لقاحاتنا لمدة معينة، لكنها بعد ذلك تبدأ في التلاشي، أي تحديدا حينما تبدأ الحرب!».

ـ «أنت بارع يا مروان! لقد خسرتك الجزائر حقا، وخسرت مواهبك، كانت لتستفيد منك كثيرا!».

ـ «لا عليك يا سيدي، لست الوحيد الذي خسرته تلك البلاد الجريحة!».

قضى مروان أياما عديدة في المعسكر يشرف على عملية التهجين المكسيكي، وكان كلما تذكر ابنته، قام بإلهاء نفسه

بشيء آخر حتى يتمكن من نسيانها؛ كان يعلم جيدا أنه لو أطلق سراحها، فستفسد هذا المشروع عن آخره، المشروع الذي حلم به منذ نعومة أظافره.

لقد نشأ مروان في عائلة جزائرية ميسورة الحال، في حي حيدرة بالجزائر العاصمة، من أب جزائري وأم فرنسية، لذلك فقد كانت نشأته نشأة راقية مقارنة بالمجتمع الذي كان يحتك به في المدرسة أو في الأحياء الشعبية الأخرى، لقد استنكر منذ طفولته نظام التفرقة الذي يحكم الناس، وكره أي وازع يفصل بين الإنسان وأخيه، سواء كان دينا أو لغة أو عرقا أو أي شيء آخر، كانت أفكاره تنصب حول صنع عالم جديد، يصبح فيه الإنسان أخا للإنسان، حيث ينتمي الجميع إلى عرق واحد وهو عرق البشرية، ولكي يتحقق ذلك، لا بد من حرب عالمية تطيح بجميع الأنظمة التي خلقت شعوبا متعصبة، ترفض الآخر وتزدري أفكاره، لذلك فقد كان لا بد من زوالها بالقوة والإكراه!

إن كان المسلمون يرغبون بإنشاء دولة إسلامية، والمسيحيون دولة صليبية، واليهود دولة إسرائيلية، فمروان كان ينشد دولة عالمية، دولة أساسها الأخلاق السامية، والعدل، والمساواة، وتقبل الآخر مهما كانت أفكاره، لذلك فإن مفردتي «نحن» و «هم»، كانتا أسوأ كابوس عاشه في

حياتـه، فرجـل مثلـه كان يفضـل «نحـن»، أي «البـشر».

لذلـك فهـو كان يعلـم أن تجربتـه الحاليـة هـي تجربـة شريـرة كان لا بـد منهـا، حيـث يجـب عليـه تقديـم تضحيـات كـبرى، وأعـمال فاسـدة حتـى يتمكـن مـن الوصـول إلى الخـير والصـلاح الـذي كان ينشـده، وتحويـل البـشر إلى آلات قاتلـة هـو هـدف شريـر، المـراد منـه هـو إسـقاط الأنظمـة الفاسـدة، واسـتبدالها بأخـرى صالحـة، وهـو الهـدف الصالـح!

مـرت الأيـام وانتهـت عمليـة التهجـين، انتقـل بعدهـا الجنـرال لويـس إلى المرحلـة الثانيـة، وهـي مرحلـة تدريـب المغاوير، والهـدف منهـا ليـس صنـع فرقـة مظليـين فقـط، بـل تحويـل جميـع أفـراد الجيـش مـن مختلـف الرتـب، والقـوات، والتخصصـات، إلى مظليـي صاعقـة، لذلـك فقـد دخـل كافـة الجيـش المكسـيكي في برنامـج مكثّـف للتأهيـل البـدني، والتدريـب المظـلي، أشرف عليـه مختصـون في هـذا المجـال.

أمـا مـروان، فقـد أمـضى تلـك الأيـام في منزلـه، أيـن كان يشـعر بالوحـدة العارمـة، خاصـة وأن زوجتـه قـد هجرتـه، وذهبـت إلى بيـت أهلهـا، لذلـك فهـو لم يجـد مـن بـد سـوى أن يفعـل مـا يفعلـه جميـع الرجـال الذيـن تـترك زوجاتهـن بيـت الزوجيـة غاضبـات، وتذهبـن إلى عائلاتهـن: إحضـار فواكـه متنوعـة إلى المنـزل، وتـذوق كل واحـدة منهـا عـلى حـدى! لذلـك

فقد كان يصبح كل يوم على «لاريسا»، ويمسي على «ستيفاني»، مستمتعا بمذاق التكيلا المكسيكي، وسيجار كوهيبا الكوبي، وما أمتع حياة الفساد التي تُنسينا نكباتنا حينما يظلمنا القدر وتزدرينا الحياة!

قد يبكي أحيانا، وينتحب حينما يعذبه ضميره، وتعتريه رغبة بأن يسترجع زوجته، ويعتذر لها عن خياناته لها، ثم يتذكر أنه رجل، وعليه أن يكون قويا، فالرجال لا يخطئون، وإن أخطأوا لا يعتذرون!

يتذكر ابنته الصغيرة الوحيدة، وكيف أنه سجنها بلا رحمة ولا شفقة، متجردا بذلك من صفات الأبوة والإنسانية، ثم لا يلبث أن يعزي نفسه بأن هدفه سامٍ، وأنه قد كان لا بد عليه أن يفعل ما فعله لأنه خيرٌ للجميعً، فمصلحة الكل أعلى من مصلحة الفرد على أي حال!

(٦)

اسمي أنخيل، وأنا شاب مكسيكي أبلغ من العمر اثني وعشرين سنة، ولدت وترعرعت في مدينة «سيوداد خواريز» بولاية «تشيواوا» المكسيكية، بعد أن أكملت تعليمي الجامعي هناك، قررت الانضمام إلى صفوف جيش الدفاع الوطني، أين أكملت تكويني العسكري الذي امتد إلى أربع سنوات في كلية الأبطال العسكرية «Heroico Collegio Militar»، تخرجت بعدها برتبة ملازم، ثم تم تحويلي إلى وحدة مكافحة الجريمة بولاية باخا كاليفورنيا، أين أمضيت سنواتي الأولى أقاتل العدو الداخلي الذي استبد ببلادنا، وأستميت في إلقاء القبض أو القضاء على المجرمين من كافة الأنواع: تجار المخدرات، الأسلحة، الأعضاء البشرية، المهربين...الخ؛ وقد كنا كأفراد عسكريين نتلقى لقاحات دورية مختلفة تقينا الأمراض العديدة التي قد تصيبنا جراء طبيعة عملنا، كان آخرها لقاح ضد فيروس كورونا، وهو اللقاح الذي ـ وأقولها بكل فخر ـ

تم تصنيعه من طرف بلادي، في حين عجزت الدول الكبرى عن إيجاد علاج له، بعد ذلك مباشرة، تم إخضاعنا إلى تربص للقفز المظلي في وحدة تابعة للقوات الخاصة لنتحصل على درجة أهلية للقفز المظلي، وهو ما سأقصه عليكم في الحين.

دخلنا إلى الوحدة قبل شهر من الآن، وكنا جد مسرورين بالإقامة الرائعة التي تحتوي عليها، حتى أنك تخال نفسك مقيما بفندق وليس بثكنة عسكرية، لكن سعادتنا لم تدم كثيرا، حيث أتت شاحنات صبيحة اليوم الثالث وقامت بنقلنا من الجنة إلي الجحيم، أين تم رمينا على أرض قاحلة شبه صحراوية، بلا زاد، ولا مؤونة، ولا عتاد تخييم، حيث أخبرنا المشرف أننا عسكريون، وعلينا التعايش مهما كلف الأمر!

كنت أظن أن الأمر مزحة، وأنه سرعان ما سيغير رأيه، لكنني وجدت نفسي بعد أن اشتدت بي شمس الهجير أبحث عن شيء أستظل به أو ملجأ آوي إليه، حاولت الاقتراب نحو بعض الصخور ألتمس ظلها إلا أن العقارب والأفاعي رفضت مشاركتي مخدعها، فاضطررت في الأخير إلى أن أصنع ملجآ خاصا بي كان عبارة عن خيمة، عمودها خشبة مهترئة وجدتها مرمية في العراء، وقماشها سترة بذلتي

العسكرية، ما إن أتممت صنع شقتي المتواضعة حتى شعرت بالجوع والعطش يمزق معدتي وأوردتي، بدأتُ في الأيام الأولى مرحلة صيد الحيوانات البرية برفقة زملائي، لكنها سرعان ما انقرضت عن الوجود، فوجدت نفسي مجبرا على اصطياد الثعابين و السحالي، وجميع الزواحف المقرفة وأكلها، بعد سلخ جلدها وطهيها على النار التي كنا نصارع الويل لإيقادها باستعمال طرق بدائية حمدت الرب أني تلقيت دروسا نظرية وتطبيقية في مدرستي حولها، وإلا كنا لنأكل اللحوم نيّئة!

بعد أن تعايشنا مع طبيعتنا القاسية وصرنا أقسى منها، أتى المدربون من جديد، وبدأنا في أخذ دروس حول كيفية طي المظلات ووضعها في الحقيبة المخصصة لها، كما قمنا بالرفع من لياقتنا البدنية عن طريق ممارسة الرياضة يوميا، كان المدربون يعاملوننا بجدية وصرامة أحيانا، وباللين والهزل أحيانا أخرى، ويخبروننا عن قصص وهمية لمتدربين سابقين قاموا بالقفز من الطائرة، لكن مظلاتهم لم تفتح بسبب خلل ما، وكان مصيرهم أن سقطوا سقطة حرة نحو الأرض مباشرة، وانقسموا إلى أشلاء متناثرة بعد ارتطامهم بسطحها!

أخبرونا كذلك عن رجال آخرين لم يجيدوا التحكم بمظلاتهم، فأخذتهم الرياح خارج منطقة الإنزال، وانتهى بهم المطاف فوق سطح منزل أحدهم أو على غصن شجرة،

برجل مكسورة أو عين مفقوعة! لذلك فقد كان الجميع يطبق احتياطات الأمن بحذر تام، فإن قال المدرب أنه علينا طي المظلة إلى اليمين بطول خمس سنتيمترات، وجدت الجميع يخرجون أجهزة القياس ويقيسونها بحذر مهتمين بكل ملميتر قد يكون السبب في هلاكهم!

أتممنا الجزء النظري، وانتقلنا إلى الجزء التطبيقي في مرحلة التدريب، أين تم إجبارنا على القفز من فوق جدار يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار نحو أرض رملية، حيث تعلمنا أن الإحساس بالفراغ يتوقف عند ذلك الارتفاع، بمعنى أنك حين تتغلب على الإحساس بالخوف من القفز عن ارتفاع عشرة أمتار، فستتغلب عليه حينما تقفز عن ارتفاع ألف متر، لأن شدة الخوف تتزايد كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، ثم تبقى ثابتة بعد العشرة أمتار.

انتقلنا بعد ذلك إلى أجهزة المحاكاة أين تدربنا على كيفية التحكم بالمظلة في ظل وجود الرياح، وطريقة توجيهها إلى اليمين والشمال، وأسلوب كبحها باستخدام الهواء الداخل إليها، وكذا وضعية النزول نحو سطح الأرض حتى تستقر أرجلنا عليه بأمان.

مضت أيام التدريب بسرعة، إلى أن وصل اليوم الموعود، وأتت الشاحنات لنقلنا إلى مطار «لوس كابوس» الدولي، أين

تم تنظيمنا على أرضية المطار بأرتال معينة بعد أن ارتدينا مظلاتنا، وأحكمنا إقفالها، وتمت مراقبتها من طرف المدربين، كانت الطائرة تحط على أرضية المطار لتحمل رتلين منا، ثم تحلق نحو الفضاء أين يقفز الجميع، ثم تعود مجددا لتحمل رتلين آخرين، وهكذا دواليك.

كنت في الرتل الخاص بي أنتظر دوري مع أصدقائي، وفجأة، أحسست أنني أود قضاء حاجتي، حاولت نسيانها وتجاهلها إلا أن مثانتي أبت إلا أن تلح علي مرارا وتكرارا، أخبرت المشرف على الرتل بأنه علي أن أتبوّل حالا، فأخبرني أن الطائرة قد وصلت، والأفضل أن أنتظر حتى أنتهي من القفز، لأن قضاء الحاجة يستوجب نزع المظلة ثم تركيبها من جديد ومراقبتها مجددا من طرف المراقبين، الأمر الذي سيستغرق زمنا طويلا؛ أومأت برأسي إيجابا معلنا موافقتي، لكن مساعد المشرف اللعين أعقب على كلامه بسخرية قائلا: «آمل ألا تنفجر خصيتاك من فرط الصدمة حينما ترتطم رجلاك بالأرض، لقد حدث هذا من قبل لأحد المتربصين لأنه لم يفرغ مثانته قبل القفز!».

لم أحاول التفكير فيما قاله، لم أسأله إن كان كلامه صحيحا أم عبارة عن مزاح فقط، لم ألتفت يمينا ولا شمالا، بل نهضت من مكاني وقمت بنزع المظلة، ثم هرعت مسرعا إلى حمام

المطـار، فالدنيـا أولويـات، وأنـا متأكـد أن أولويـة الرجـل الأولى هـي المحافظـة عـلى كنـزه الثمـين مـن الأذى، ومـن بعـد ذلـك الطوفـان!

لحسـن حظـي، تأخـرت الطائـرة قليـلا عـن الموعـد، لذلـك فقـد كان الوقـت كافيـا لارتـداء المظلـة مـن جديـد، ومراقبتهـا، والرجـوع إلى مـكاني في الرتـل، كنـت أحـس بالراحـة الشـديدة، فحتـى ولـو شـاء القـدر أن ألقـى حتفـي اليـوم، فسـأموت قطعـة واحـدة! لا أحتمـل أن أرى نفـسي ناقصـا!

هكـذا كان المدربـون الأوغـاد يتلاعبـون بنـا، يتلـون قصصـا لا أسـاس لهـا مـن الصحـة ليمنعونـا عـن فعـل أشـياء معينـة، أو ليسـخروا منـا بغـرض التسـلية، أذكـر في إحـدى المـرات أن إحدى العامـلات في المطـار قـد طلبـت أن تقفـز معنـا، وقـد وافـق الجنرال عـلى طلبهـا وعهـد إلى أحـد المدربـين أن يقـوم بتأهيلهـا، وبـما أن مشـاركتها سـتزيد مـن سـاعات عمـل المـدرب، فقـد بـدأ هـذا الأخـير يخبرهـا أن العلـماء يحـذرون مـن القفـز بالنسـبة للنسـاء، وأن القفـز بالمظلـة القتاليـة أصعـب بكثـير مـن القفـز بمثيلتهـا الرياضيـة، هـذا لأنـه يجعلهـا ترتطـم بـالأرض بقـوة ممـا قـد يـؤدي إلى خسـارة رحمهـا، ثـم أخـذ يحكـي لهـا عـن إحـدى المتدربـات، والتـي لم تسـمع كلام مدربيهـا وأصرت عـلى القفـز، ثـم وجدوهـا بعـد ذلـك مرميـة في قلـب الصحـراء مضرجـة بدمائهـا نتيجـة

لانـزلاق رحمهـا وخروجـه منهـا؛ ورغـم أن تلـك العاملـة كانـت تـدرك أن كلامـه غـير صحيـح، وأن لا أسـاس علمـي يسـتند إليـه، إلا أنهـا قامـت بالانسـحاب فـورا مـن دورة التدريـب، وأي امـرأة قـد تجـازف بخسـارة رحمهـا؟

توقفـت الطائـرة عـلى أرضيـة المطـار، وتوجهنـا الواحـد تلـو الآخـر للصعـود عـلى متنهـا، أُغلـق بابهـا معلنـا أنـه لا مجـال للعـودة إلى الـوراء، بـدأت بعـد ذلـك في التسـارع تدريجيـا ثـم انطلقـت تشـق السـماء شـقا إلى أن اسـتقرت بنـا أفقيـا، فُتـح بـاب الطائـرة مجـددا، وطلـب منـا المـدرب أن نقـف بعـد أن ربطنـا حبـال القفـز في عمـود مثبـت فوقنـا ونحـن ننتظـر إشـارة القفـز، والتـي كانـت عبـارة عـن رنـين جـرس، كان الهلـع يـدب داخـل جسـد كل واحـد فينـا، لكـن الابتسـامة لم تفـارق محيانـا، فنحـن رجـال جمهوريـة المكسـيك العظمـى، ولـن نسـمح لأي كان أن يـرى الخـوف يرتسـم عـلى وجوهنـا!

رن الجـرس! وبـدأ زملائـي يقفـزون الواحـد تلـو الآخـر إلى أن حـان دوري، قمـت بأخـذ وضعيـة القفـز، واقتربـت صـوب البـاب أصـارع الخـوف والخـوف يصارعنـي، رفعت رجـلي اليمنى اسـتعدادا للقفـز، لكـن الهـواء امتصنـي بسـبب اختـلاف الضغـط بـين الداخـل والخـارج، بينـما قـام المـدرب بقـذفي بقـوة خارجـا حتـى لا يدفعنـي الهـواء للارتطـام بجسـم الطائـرة، كان أول مـا

أحسست به وأنا أهوي إلى الفراغ هو ذلك السكون الهائل الذي يميز الفضاء الخارجي، عكس ضجيج المحركات الذي كنت أعيش فيه منذ قليل، وضعت يدي اليمنى على مقبض المظلة الاحتياطية لفتحها في حال لم تُفتح الرئيسية، لكنني سرعان ما سمعت صوت انفجار رهيب اكتشفت فيما بعد أنه صوت المظلة حينما تفتح بقوة، كان القفز المظلي عكس توقعاتي تماما، فقد كنت أظن أنني سأحس بجسمي وهو يهوي تدريجيا نحو الأرض، وأنني سأشعر بأنني غير مستقر مادامت أرجلي معلقة وليست على سطح صلب، لكن الأمر كان مختلفا جدا، كنت أحس وكأنني مثبت بإحكام على عمود وهمي في السماء، وحينما أنظر إلى الأسفل لا أرى سوى صورة لأرض قاحلة ساكنة تأبى الاقتراب مني! ظننت لوهلة أنني عالق في السماء، لكنني لم أكترث، بل قررت عيش اللحظة الرائعة، أخذت أراقب مظلتي وهي مفتوحة كقبة القدس فوق رأسي، ألتفت يمينا وشمالا لأرى أصدقائي يسبحون في الفضاء ويلوحون لي بأيديهم، حاولت توجيه المظلة لكنني أحسستها أقوى مني بكثير، لذلك فقد تركتها توجهني وأنا أراقب أصدقائي وهم يقتربون نحو الأرض، نظرت فجأة نحو الأسفل لأرى منطقة الإنزال تقترب مني بسرعة، أحسست بالخوف في تلك اللحظة، وكأن مظلتي قد توقفت عن تثبيتي في الهواء، وقررت أن تتخلى عني، وترميني بقوة

على سطح الأرض، قمت بأخذ وضعية الاصطدام وانتظرت قدري، وكان كما توقعته تماما، اصطدمت قدماي على سطح الأرض بقوة، بينما قامت الرياح بدفعي إلى الخلف، فسقطت وتدحرجت على الأرض، قمت بعد ذلك بالتحقق من سلامة أطرافي فوجدتها جميعا سوية، ثم وقفت بفخر لأفصل المظلة عن جسدي، لكن الرياح كانت لديها خطة أخرى؛ انتفخت المظلة من جديد وسحبتني مجددا نحو الأرض، وقامت بجذبي بقوة على الأعشاب الصحراوية الشائكة، أخذت أصارعها بشد الحبال، وتصارعني بجرّي بعنف، حتى تغلبت عليها وقمت بفصلها عن جسدي، ثم طويتها مجددا ووضعتها داخل حقيبتها، بعد ذلك حملتها وقفلت راجعا نحو مكان التجمع.

لم يكن من الصعب علينا الوصول إلى نقطة الالتقاء، لأن المشرفين قاموا بإشعال النار، والتي تتبّع جميعنا الدخان الصادر منها للوصول إليها، تمت معاينتنا من طرف الطبيب وتسجيل قفزتنا في سجل القفز المظلي، ثم ركبنا الشاحنات ورجعنا مجددا إلى ملاجئنا اللعينة! كنت أحس بالسعادة والفخر لأنني قمت بمواجهة خوفي، والقفز من علو ألف متر، وشاركتني تلك السعادة عائلة بسيطة كانت تعيش بالقرب من المنطقة التي نزلت فيها، والتي انتظرني أفرادها في طريق عودتي، وقدموا لي بعضا من المياه والحليب والفاكهة.

مـرت الأيـام تباعـا، وقمنـا بالقفـز مـرارا وتكـرارا، وفي كل مـرة كنـا ننفـذ قفزاتنـا مـن علـو أكثـر أو محملـين بأسـلحة وعتـاد مختلـف، إلى أن أعلـن المـشرف نهايـة التربـص، وقامـوا بإعطـاء كل واحـد فينـا وسـام المظـلي، والـذي لا زلـت إلى يومنـا هـذا أعلقـه عـلى صـدري كإنجـاز أفتخـر به، وأثـير بـه غـيرة زملائـي الذيـن لم تتسـنَّ لهـم هـذه الفرصـة الرائعـة التـي وهبتنـي إياهـا الحيـاة.

ازداد حبـي لوطنـي منـذ ذلـك اليـوم، وقـررت أن أدافـع عنه بـكل جوارحـي، وأن أقـدم لـه دمـي وروحـي وجميـع أعضائـي، فأنـا رجـل، وقـد خلـق الـرب الرجـل ليمـوت دفاعـا عـن الوطن، ومـا هـو الوطـن؟ إنـه المـرأة والأطفـال، العائلـة والأهـل، الضعفاء والمسـاكين، وكـذا أشـباه الرجـال الذيـن لا يسـتطيعون الدفـاع عن زوجاتهـم، لا يسـتطيعون سـوى ادعـاء الرجولـة خلـف شاشـات هواتفهـم، وفي وسـائل التواصـل الاجتماعـي، لذلـك فـلا بـأس مـن الدفـاع عنهـم أيضـا!

لا أدري حقـا مـا يسـيطر عـلي الآن، لم أكـن أظـن أن القفـز سـيجعلني عسـكريا إلى هـذه الدرجـة! إننـي مسـتعد الآن للمـوت في سـبيل الولايـات المتحـدة المكسـيكية، كل مـا أحتاجـه هـو أمـر مـن قائـدي، وسـأفعل أي شيء يطلبـه منـي؛ أنـا جاهـز حتـى لقتـل نفـسي إن كانـت دمائـي ستسـقي سـهول المكسـيك ووديانهـا، ومـا دامـت جثتـي سـتدفن تحـت ترابهـا؛ أنـا قـادر عـلى

قتل أي شخص كان وذبحه من الوريد إلى الوريد إن كان هذا في صالح جمهورية المكسيك العظمى؛ باستطاعتي أن أشن حربا، أن أمطر هذا العالم البائس رصاصا وقنابلا، أن أبيد قرية بأكملها، مادام هذا التقتيل في سبيل الألوان البيضاء والحمراء والخضراء! أنا أشعر بقوة هائلة! أنا لست طبيعيا! تبا! ماذا يحدث لي؟!

(٧)

كانت نزهة الأحلام في غرفتها، تقوم بتسريح شعرها، وتغني بصوتها الرنان كعادتها:

«أحب حينما تناديني سينيوريتا...

أتمنى لو كنت أستطيع التظاهر بأنني لم أحتج إليك...

لكن كل لمسة هي رائعة! إنها حقيقية!

كان يفترض أن أهرب، أنت تجعلني أواصل القدوم إليك!».

توقفت عن الغناء فجأة، حينما شاهدت صورة إدواردو منعكسة على مرآتها، استدارت لتجده خلفها تماما مبتسما على غير عادته.

ـ «إدواردو! كيف دخلت إلى الغرفة؟ أنا لم أشعر بك!».

ـ «كيف كنت لتفعلي وصوت غنائك كان ليغطي على صوت شاحنة لو مرت من هنا!».

ـ «هل تسخر من صوتي الرخم الناعم؟ أم أنك تغار مني ومن موهبتي الفذة؟».

ـ «صوتك مذهل بحق، وهذا لا غبار عليه، أما عن الغيرة، فأظن أن الجميع سيفعل لو سمع صوتك، لقد خُلقت لتكوني فنانة، لكنك فضلت صوت البارود على صوت الموسيقى على ما يبدو!».

ـ «صوتك جميل أيضا، غنِ لي أغنية أرجوك!».

ـ «لكنني لم أفعل ذلك منذ سنوات، لا أظن أنه يمكنني...».

ـ «أرجووووووووك!».

لم يستطع إدواردو مقاومة دلالها فأنشد مغنيا:

«أشتاق إليك حينما لا أتمكن من النوم...بعد القهوة... أو حينما لا أستطيع الأكل...

أشتاق إليك في كرسي سيارتي الأمامي...

ولا زال الرمل في سترتي جراء تلك الليالي التي لا

نتذكرهـا!

هل تشتاقين إلي كما أفعل؟ أخطأت كثيرا وتعلقت بك!

الأصدقاء يمكن أن يكسروا قلبك أيضا...

أنا دائما متعب... لكنني لن أتعب منك أبدا!

إن تصرفت مثلك فلن يعجبك الأمر!

لقد كتبت لك رسالة لكنني تجاهلتُها بعد ذلك...

مثلما أملك كل هذه المشاعر لكنكِ تجاهلتِها أيضا!».

كان إدواردو يغني بكل مشاعره، وكانت نزهة الأحلام تدرك جيدا أنه يعني كل كلمة من أغنية «أحبك، أكرهك!» الذائعة الصيت، لذلك فقد جلست على كرسيها وقالت له متوسلة:

«إدواردو حبيبي، لنتكلم كراشدين، كلانا أخطأ في حق الآخر، وكلانا نظر من زاويته ولم يكترث لزاوية نظيره، لذلك فيمكننا أن نكمل الخصام والعذاب إلى أن نواري التراب، أو نستطيع أن ننسى الماضي، ونجمع شتات هذا الحب الكبير، ثم نعيد صقله حتى يستحيل أقوى، وأجمل، وأروع من ذي قبل!

أنا أحبك يا إدواردو، وأعلم أنك تحبني، فلما نستمر في إخفاء مشاعرنا ولعب دور الخصمين، رغم أنه يمكننا بقرار ذكي منا أن نحول هذا الشقاء إلى سعادة، وهذا الحقد إلى مودة، وهذا الجفاء إلى ابتسامات متبادلة أبدية؟

لما نظلم أنفسنا؟ لما نتصرف عكس الطبيعة والقضاء والقدر؟ لما نصيّر أنانيتنا فوق ما كتبه الله لنا؟ كانت مشيئته ـ سبحانه ـ أن تكون نزهة الأحلام لإدواردو، وإدواردو لنزهة الأحلام، فلما نعبث بتلك المشيئة؟ هل نبحث عن الغضب الإلهي طوعا؟! سيعاقبنا الله إذن بأن يجعلنا تعساء ما حيينا، مجروحين طوال ما عشنا، مدمرين إلى آخر نبض في حياتنا!

أنا أحبك يا إدواردو، أحب شعرك القصير، وعينيك العسليتين، أحب أنفك، وفمك، وذقنك، ولحيتك الجميلة، أحب يديك القويتين، وجسدك المتناسق، أحب طول قامتك، وبشرتك السمراء، وملامحك المكسيكية، أحب روحك المرحة، ووجدانك الشقي، ونفسك الحزينة، أحب مزاحك، ومزاجك السيء، وطريقة شتمك، أحبك بعيوبك، وآثامك، ونقائصك، أحبك حينما تؤنبني وتمنعني عن فعل شيء ما أو حينما تصرخ في وجهي، أحبك حتى حينما تؤذيني، فأذاك بلسم روحي، والآلام في سبيلك شفاء نفسي! أنت الحب، والحبيب، والقلب، والروح، والحياة! أنت الرجل الوحيد الذي عشقته من بين

مئات الرجال الذين عشقوني ولم يلفت انتباهي واحد منهم! أنت هو الوحيد الذي أسمح له بتجاوز جميع الحدود معي بضمير مرتاح، وقلب سعيد، وروح مطمئنة!

أنا أحبك كثيرا يا إدواردو، فهلا عدت إلي؟».

كان إدواردو مصغيا بانتباه شديد إلى كلامها، أحس بأنها تشرع في تنويمه مغناطيسيا لكنه أحب ذلك، شعر بأنها تهمّ بتخديره موضعيا لكنه استلذّ الأمر، خطر له أنها تقوم باستغلاله عاطفيا لكنه استمتع بالوقوع تحت السحر! لم يستطع الوقوف أكثر، فقد كان ما يحدث كثيرا جدا عليه، لذلك فقد جلس على الكرسي واسترسل قائلا: «حبيبتي أحلام، اسمحي لي بأن أناديك حبيبتي لأنني لا أستطيع كتم هذه الكلمة من الآن فصاعدا، وكيف أكبح شيئا فوق طاقتي بحق الجحيم؟! أتذكرين حين كنا أصدقاء، وكنت واقعا في حبك لكنني رفضت الاعتراف بذلك؟ لقد كنا نتكلم حول موضوع ما لكنني قلت لك رغم إرادتي «أحبك»، ثم حاولت تدارك الموقف وأخبرتك أنني أمزح فقط! أردت يومها أن أقطع لساني! لكنني تعلمت أننا لا نستطيع محاربة شعورنا، وأن القلب هو سيد الإنسان، وما العقل سوى مستشاره الذي يأخذ برأيه أحيانا، ويرفض مشورته أحيانا أخرى!

لقد كنت مجروحا لسنوات يا نزهتي، وقد كنت أظن

أن جروحي سببها خيانتك لي، وجعلت لك مائة سبب وسبب لأكرهك وأزدريك، وظننت بغباء أنني قد وفقت في ذلك، لكن الأمر تجلى لي الآن؛ أتعلمين ما كان يؤذيني يا ملاكي؟ إنه بعدك عني، وعدم تقبل فكرة أنني سأعيش من دونك، إنه اختفاؤك من حياتي بعد أن ألفتك واعتدت إخبارك بتفاصيل يومي التافهة، إنه عدم قدرتي على تصديق أن ما كنت أمتلكه قد انتزع مني ولن يعود إلى الأبد!

أما اليوم، فلا بد أن الرب قد غفر لي خطيئتي، ووهبني فرصة أخرى حتى أكفر عن أخطائي، لا بد أن اليسوع خلّصني، وأمي أغرقتني بدعواتها، وهذا ما زاد من إيماني، لأنني أدرك الآن أن كل شيء كان مرسوما بدقة، فاختطافك وحبسك في الغرفة لم يكن سوى طريقة لجمعنا معا، هيا اقتربي إلي أرجوك! أريد أن أعانقك بشدة!».

اقترب الاثنان من بعضهما البعض وتعانقا بشوق متقد، ثم شرعا في البكاء بحرقة، وما أصدق دموع الحب حين تنزل على صدر الحبيب، وما أزيفها حينما يكون المرض النفسي سببا لها!

بعد ذلك، قام إدواردو بإخراجها من المنشأة، وذهب الاثنان إلى منزله أين طلب منها أن تعيش معه تحت سقف واحد، وقضيا أيامهما بسعادة، وإدواردو لا يصدق كيف أن

«كيوبيد» قد قرر جمعهما من جديد، وبث الحب في قلبيهما.

تناقشا معا حول خطة والدها، وكيف أنه ينوي القضاء على البشرية بأحلامه المريضة، وأقنعته نزهة الأحلام أن ما يفعله أمر شرير جدا، وسيجلب الدمار للعالم، أخبرته عن عبد الجليل، وكيف أنه شاب شريف يعول عليه، واتفقت معه على أن يتعاونا معا لإفشال مخطط أبيها الإجرامي، سألته عن أمها، وأخبرته عن قمة اشتياقها لها، ووعدها بأن يبحث عنها ويرجع بها إليها في أقرب وقت ممكن.

استمر إدواردو في الذهاب يوميا إلى العمل، أين كان مروان يسأله عن حال ابنته، فيخبره أنها محتجزة في المنشأة، ولا خوف منها ولا عليها، ثم سأله هو الآخر عن حاله وحال زوجته، فأخبره أنها قد سافرت إلى أهلها في الجزائر، وأنها قد لا تعود أبدا، طار بهذا الخبر إلى نزهة الأحلام أين انهارت بالبكاء وصرخت قائلة: «يا له من وغد حقير، لم تسلم منه لا ابنته ولا زوجته، أتمنى فقط ألا تكون قد تعرضت للأذى، علينا أن نذهب إلى الجزائر فورا!».

استقل الاثنان الطائرة المسافرة إلى الجزائر، وكان ذلك أول عبور لإدواردو للمحيط الهادي، أو لنقل أنه أول سفر له خارج البلاد، لذلك فهو لم يتحدث كثيرا طوال الرحلة، بل أمضى وقته كاملا يتأمل زرقة المياه تارة، ويتخيل سقوط

الطائرة تارة أخرى، إلى أن حطت به في مطار هواري بومدين الدولي، نزل الاثنان واستقلا سيارة أجرة إلى محطة النقل البري خروبة، أين أخذا سيارة أخرى إلى جوهرة الشرق الجزائري: مدينة عنابة؛ كانت نزهة الأحلام تشرح لإدواردو اسم وتاريخ كل منطقة أو منشأة أو حي ما، ابتداء من مقام الشهيد بالجزائر العاصمة، وصولا إلى مصنع الحديد والصلب بالحجار، كنيسة القديس أوغسطينوس على ربوة هيبونز، ومسجد أبي مروان ذو الطراز الأندلسي والمبني على أعمدة رومانية في مدينة عنابة!

تعجب إدواردو كثيرا من جمال هذه المدينة الساحرة، لكنه لم يمتلك الوقت الكافي لزيارتها، والتمتع بمعالمها الطبيعية والتاريخية، هذا لأنه انتقل برفقة حبيبته إلى حي ستة وسبعين ومائتي وألف سكن صفصاف، أين يقع مسكن عائلة أمها الجديد، دقت الباب ففتح خالها الباب، أين رحب بها، وأخبرها أن أمها في غرفتها تعاني من حالة اكتئاب شديدة، وأنها لم تحدثهم منذ رجوعها من المكسيك، ولم تجب على أي من أسئلتهم حول زوجها أو ابنتها، أجابته الفتاة بأنهما بخير، وأن أمها متعبة فقط، ثم دلفت إلى غرفتها، فصعقت هذه الأخيرة حين رأتها، وأخذتها في أحضانها تقبلها وتبكي شوقا لها، بينما بدأت نزهة الأحلام تحكي لها قصتها منذ أن اختطفها إدواردو بأمر من أبيها، وصولا إلى سفرهما

إلى الجزائر للاطمئنان عليها، وأخبرتها عن خطتها للإطاحة بمشروع مروان، ورغبتها في انضمامها إليها، فأجابتها بالقبول وهي تقبلها، غير مصدقة أن ابنتها الوحيدة قد رجعت إليها.

أما إدواردو المسكين، فقد قضى كل ذلك الوقت خارج الباب، لأن نزهة الأحلام منعته من الدخول للمنزل كونه ليس زوجا لها، وبما أن الجزائريين يمنعون اختلاط الذكر بالأنثى، فقد جلس بجانب الباب غير مستوعب لاستنكار السكان لوقوف شخص غريب في حيهم، حيث أخذ الجميع ينظرون نحوه بنظرات عدائية، ويلقون على مسامعه كلاما لم يفهمه، لكنه أدرك أنهم يرفضون وقوفه في حيهم، ولولا أن نزهة الأحلام قد خرجت وأنقذته من ذلك الموقف، لكان مصيره الاشتباك مع الشباب الذين كانوا يستفزونه لبدأ شجار معه!

ـ «حمدا للرب أنك أتيت! جيرانك ليسوا ودودين إطلاقا!».

ـ «ها ها! الأمر مختلف هنا يا حبيبي، الأحياء هنا خطرة نوعا ما، والحذر واجب من كل غريب، إنهم ليسوا ودودين مع من يظنون به شرا فقط، لكنهم إن عرفوك وائتمنوك، فلن تر أود منهم صحبة، ولا أظرف منهم تعاملا».

رافقته بعد ذلك إلى فندق «ريم الجميل»، أين حجزت له غرفة فردية قضى فيها ليلته، بينما أمضت هي دجاها مع أمها تُعدان الخطط المستقبلية، وتتكلمان حول الموضوع الذي تتحدث عنه كل أم مع ابنتها في الجزائر:

ـ «ألا تنوين الزواج يا ابنتي؟».

ـ «كفى يا أمي! أنت تعلمين أنني لازلت صغيرة، كما أنني لا أفكر في الزواج الآن!».

ـ «هذا خطأ يا صغيرتي! على الفتاة أن تفكر دوما في الزواج، وهل للمرأة مكان سوى بيت زوجها؟».

ـ «أجل! لديها مكان في العمل، ومكان في المجتمع، ومكان في إبراز نفسها! وقتنا يختلف عن وقتكم يا أمي، لقد استطاع الرجال أن يسلبوكن حريتكن بإقناعكن أنكن أدنى قيمة منهم، وأنكن في حاجة إليهم، وهذا الأمر قد تغير في جيلنا يا أماه، قيمتنا من قيمة الرجال، وقيمتهم من قيمتنا، وإن كنا في حاجة إليهم، فهم في حاجة إلينا، وإن كانوا يستطيعون الاستغناء عنا، فنحن نستطيع الاستغناء عنهم! جميعنا بشر، وجميعنا نمتلك عقلا واحدا، الفارق الوحيد بيننا هو اختلاف جنسي، لا أكثر ولا أقل!».

ـ «أوف! ربي يهديك يا بنتي!».

أشـع الصبـاح بنـوره مـن جديـد، وانطلـق إدواردو ونزهـة الأحـلام وأمـال مجـددا في رحلـة إلى المكسـيك، كانـت الخطـة أن يبحثـوا عـن عبـد الجليـل ليطلعـوه عـلى حقيقـة لقـاح «Esperanzas»، ويطلبـوا منـه الانضـمام إلى فريقهـم، حتـى يتمكنـوا مـن إحبـاط مخطـط مـروان الإجرامـي؛ بـادروا بعـد وصولهـم إلى تيخوانـا إلى كـراء شـقة باسـتخدام هويـات مـزورة قـام إدواردو بصنعهـا لـدى صديـق لـه يعمـل في هـذا المجـال، ثـم بـدأوا بعـد ذلـك في رحلـة البحـث عـن شريكهـم الرابـع.

(٨)

أمضى عبد الجليل أياما في مكان نصب الكمين، حتى مل أفراده، وبدأت مظاهر الاستياء تبدو عليهم، فكان مضطرا لتوبيخهم تارة، وملاينتهم تارة أخرى، ولم يكسر ذلك الروتين سوى صوت المحركات الذي دوى بين منحدرات الجبال في وقت الغروب، مما جعل الجميع ينتقل تلقائيا إلى خندقه، ويجهز سلاحه، حريصا على إخفاء نفسه، وتمويهها بالأعشاب والحشائش؛ تقدم عبد الجليل نحو حافة الهضبة، ووجه بندقيته نحو الطريق الترابية، نادى قادة المجموعات، واتفق معهم على أن تكون رصاصته الأولى هي إشارة بداية الرمي، كان الجميع في مكانهم يتنفسون ببطء شديد، بينما أرخى الليل سدوله بنعومة عليهم، وجعل الرؤية غير واضحة تماما، لذلك فقد قام الجميع بتركيب أجهزة الرؤية الليلية، وانتظروا الإشارة بيقظة وحذر.

مرت العربة الأولى، والتي كانت تحمل سائقا وشخصا إلى جانبه، وأربعة أفراد من الخلف مسلحين ببنادق آلية، ثم تلتها عربة ثانية وثالثة بنفس العدد من الأفراد، ونفس التسليح، انتظر عبد الجليل حتى دخلت العربة الأخيرة إلى نطاق الكمين، ثم أطلق رصاصة دقيقة على عجلة العربة الأولى، مما أدى إلى انفجار إطارها وتوقفها، بينما فتح الباقون النيران بكثافة، وأخذوا يمطرون العدو وابلا من الرصاص بمختلف العيارات، قُتل بعض الأفراد في الحين، بينما قفز الباقون من عرباتهم، وقاموا بالاحتماء خلف سواتر طبيعية كانت بجانب الطريق، وصار من المستحيل إصابتهم بالطلقات النارية، صرخ عبد الجليل بكل قوته: «القنابل اليدوية!»، فبدأ العديد من المقاتلين برمي قنابل يدوية هجومية خلف سواتر العدو الذي كانت أشلاؤه تتطاير يمينا وشمالا نتيجة الوقوع في كمين شرس لا نجاة منه!

قام قائد المجموعة بارتداء نظارة رؤية ليلية، وشرع في استخدام الذخيرة الخطاطة لتصحيح الرمي وإصابة غريمه، لكنه لم يتمكن من فعل ذلك، لأن عبد الجليل قد امتلك عنصر المفاجأة، وبذلك فقد امتلك النصر الساحق! وعليه، فلم يبق للقائد سوى أمل أخير، وهو محاولة الالتفاف على المقاتلين من جهة اليمين واليسار بغرض تطويقهم، وإحكام الغلق عليهم، لكن تشكيلهم الدائري منعه من تحقيق ذلك،

وانتهت المعركة في دقائق معدودات بالقضاء على جميع أفراد المجموعة، وتلقي إصابات متفرقة لدى بعض المقاتلين.

قام الممرض بمعاينة المصابين وتقديم إسعافات أولية لهم، بينما قام عبد الجليل بالتبليغ عن نتائج المهمة وطلب الدعم لإجلاء القتلى والمصابين، أرسل الزعيم طائرة مروحية للتكفل بنقل الجرحى، بينما انتظر الجميع صباح اليوم التالي، وتقدموا نحو القتلى، وتأكدوا من موتهم، ثم تم تفتيشهم، واسترجاع الأسلحة والوثائق التي بحوزتهم، ثم وضعوهم على متن شاحنات أرسلت لهم، وقفلوا راجعين، مبتهجين بالنصر الذي حققوه أمام عدوهم الغاشم!

أما بالنسبة لبطلنا عبد الجليل، فهو لم يشعر بتلك السعادة التي كانت تغمره حينما كان ينتصر على عدوه في معركة ما، لقد سئم المعارك الحديثة التي تعتمد على قتل العدو من بعيد دون الاقتراب منه، تمنى لو أنه يرجع إلى القرون الماضية، أين يستطيع أن يسمع صوت معدن سيفه وهو يقطع كلية عدوه إلى نصفين، أين يتمكن من فقع عين الأوغاد بخنجر تستقر داخل الدماغ، أين يستمتع برائحة الدم الساخن وهو ينساب من حنجرة غريمه على ثيابه، مطلقا تلك الرائحة المذهلة: عبيق الدماء المسبب للإدمان، ومذاقها المالح المثير للشهية!

أحس أن شيئا ما قد تغير فيه، فقد أضحى عدائيا أكثر من ذي قبل، لقد شعر برغبة دفينة في التنكيل بالجثث رغم أنه كان ينهي رجاله مرارا عن فعل ذلك، لذلك فقد أدرك أنه يعاني من خطب ما، ربما يكون مرضا نفسيا آخر ألمّ به، مرضا جعله يفقد إنسانيته، ويتحول إلى وحش لا يرحم، ولا يرجو الرحمة من أحد!

رجع بعد ذلك إلى مؤسسته، أين أثنى عليه زعيمه، ومنحه إجازة من العمل أمضاها بين غرفته والحانة، كان يحاول جمع شتات أفكاره لكنه كان يفشل دائما في فعل ذلك بالطرق العادية، لذلك يلجأ في أغلب الأحيان إلى المشروبات الكحولية التي تصفي ذهنه لمدة من الزمن، وتخدر ألمه لبعض الوقت، وتسمح له بالنوم لليال معدودات.

وفي إحدى الأيام، وبينما كان جالسا على منضدة الحانة يحتسي كأسا من التيكيلا، لمح فتاة تجلس بتغنج أمامه، فلم يكترث لها كعادته، لكنها سرعان ما أصبحت مزعجة حينما طلبت منه سيجارة، أعطاها ما طلبت، فسألته عن الولاعة أيضا، وضع يده في جيبه وأخرجها ثم رماها أمامها، سألته بدلال: «ألن تشعل السيجارة من أجلي؟» أجابها ببرود: «لن أفعل!».

طلبت بعد ذلك كأسا من الجعة، وابتسمت قائلة:

«أظنه سيكون على حسابك أيها الوسيم! ألا توافقني الرأي؟»، استدار نحوها، وأخذ يتفرس فيها بإمعان: فتاة جميلة في مقتبل العمر، ذات شعر أشقر، وعينين زرقاوين، وجسد مغر، ولباس فاضح؛ أشعل سيجارته، وأخذ نفسا عميقا ثم خاطبها قائلا: «أتعلمين لما أعطيتك السيجارة والولاعة يا حلوة؟ أعطيتهما لك من أجل سبب واحد فقط، وهو أن تخرسي وتهتمي بشؤونك! هل تخالين نفسك مغرية؟ أم أن الحمقى هم من أعطوك هذه الثقة الزائدة عن حدها؟ أنا لست مغفلا يا عزيزتي، وسأطلعك على الحقيقة من صميم قلبي وبخالص ودي: أنت فتاة متوسطة الجمال، أقصد أدنى من المتوسط بقليل، وبكثير حين تتكلمين، تبدين حمقاء جدا حينما تبتسمين، وغبية حينما تتحدثين، وشاطئا حينما تضحكين، شعرك يبدو متسخا بعض الشيء، يخاله الناظر مصبوغا بصبغة صينية رخيصة، ناصيتك كبيرة جدا، حتى أنه يمكنني أن أكتب عليها إلياذة هوميروس تاركا فراغا بين الأسطر! أما عيناك، فهما أسوأ جزء فيك، لا أقصد العينين كشكل، بل أتحدث عن نظرتك الغبية التي تدل على أن مستواك التعليمي متواضع جدا! بشرتك باهتة جدا، حتى أنني قد أشفق عليك وأشتري لك بعض اللحوم حتى أنقذك من فقر الدم الذي أخالك مصابة به، أما مفاتنك الأنثوية، فيؤسفني أن أعلمك أنها أصغر مما يريده الرجل بكثير، حتى

ملابسك تبدو جد رخيصة، وتدل على فقرك المدقع وفاقتك العظمى، أنت لست جذابة بتاتا، بل تجعلين أي رجل ينفر منك بشدة، ويزدريك، ويبتعد عنك، وفوق كل هذا تتسولين بلا كرامة ولا عزة نفس، وتبيعين جسدك المنفر بكأس خمر لعينة! كم أكره المتسولات يا صغيرتي وكم أزدريهن! إنهن يرسلن لي ولكافة الرجال رسائل يومية يطلبن فيها منا أن نقرضهن أموالا أو أن نشحن رصيدهن الهاتفي أو أن نشتري لهن شيئا ما، والأدهى والأمر أنهن يتفاخرن بذلك، ويعتبرنه فطنة ودهاء، إنه ليس كذلك يا ساذجة، إنه تسول بكل ما للكلمة من معنى!

من المؤسف أن أرى فتاة مثلك لا تملك جمالا تتباهى به، ولا كبرياء ترفع به روحها، أنت مجرد سلعة منتهية الصلاحية تريد أن تهب نفسها ببضع قطع نقدية، هل كنت تظنين حقا أنني كنت لألمس فتاة متّسخة مثلك تحمل جميع فيروسات العالم؟ كم مضى عليك من أسبوع دون أن تستحمي؟ أسبوعان؟ ثلاثة؟ شهر؟

أنا رجل نظيف يا حلوتي، ولو وهبتني مال الدنيا فلن أضع يدي عليك، إنني والله لأشفق عليك أكثر مما أزدريك، فأنت لا تمتلكين أي شيء في هذه الحياة، أتعلمين ماذا كنت لأفعل لو كنت مكانك؟ كنت لأشنق نفسي داخل غرفتي،

هـذا إن كنـت تمتلكـين غرفـة أصـلا، أو دعينـي أشـتري لـك بعض الأدويـة يـا متسـولة واخلطيهـا بمشروبـك هـذا حتـى تسـتحيل سـما يأخـذ روحـك، أو ارم نفسـك مـن عـمارة مـا حتـى تضعـي حـدا لحياتـك التافهـة، أو ارم جسـدك عـلى سـيارة مسرعـة حتـى تمـزق حياتـك البائسـة!».

اغرورقـت عينـا الفتـاة بالدمـوع، وهـي تسـتقبل كلام عبـد الجليـل الـلاذع، أمـا هـو فقـد أخـذ منـه السـكر مأخـذه، وأخـذ يتفنـن في إذلالهـا: «أتعلمـين لمـا أزدريـك أيضـا؟ هـذا لأنـك...».

ـ «أتـرك الفتـاة وشـأنها»، قالـت نزهـة الأحـلام وهـي تمسـك بيـد الفتـاة المرتجفـة وتبعدهـا عنـه، «لا تسـمعي كلامـه يـا عزيـزتي، أنـت مذهلـة!»، ابتعـدت الفتـاة بسرعـة عنهـما، بينـما أخـذت مكانهـا وابتسـمت لـه قائلـة: «إنـه دوري الآن، اسـتعملني للتنفيـس عـن غضبـك لأننـي حقـا أسـتحق!».

لم يسـتوعب عبـد الجليـل مـا رآه الآن، فقـد كانـت تلـك الفتـاة الغبيـة أمامـه، والآن اسـتحالت إلى تلـك الفتـاة التـي حاولـت قتلـه، ظـن أنـه يتخيـل فقـط، وأن الكحـول هـي مـن لعبـت بعقلـه، قـام بفتـح عينيـه جيـدا وسـألها بدهشـة: « نـز... نزهـة الأحـلام! مـاذا تفعلـين هنـا؟ لكننـي لا أصـدق! مـاذا يحـدث؟ هـذا ليـس حقيقيـا!».

ـ «بـل هـو حقيقـي، لقـد بحثـت عنـك في كل مـكان ولم أجـدك، قيـل لي أنـك قـد كنـت في مهمـة، لذلـك فقـد قـررت أن آتي إلى هـذه الحانـة كل يـوم لأننـي أعلـم أنـك ترتادهـا، قبـل أن تحكـم عـلي، أو تقـوم بـأي ردة فعـل، أريـدك أن تسـتمع إلي حتـى أكمـل كلامـي، ثـم افعـل بي مـا بـدا لـك».

بـدأت نزهـة الأحـلام تقـص عليـه جميـع الأحـداث، أخبرتـه أنـه قـد تـم حقنـه بإنزيـم خطـير مـن طـرف «الزعيـم» يجعـل الإنسـان عبـارة عـن آلـة للقتـل وسـفك الدمـاء، وأن سـبب رجوعـه إلى المكسـيك هـو ذلـك الـدواء الـذي يـسري في دمائـه، ويجعلـه يتعلـق بالمكسـيك ولا يسـتطيع مغادرتهـا، وكيـف أن أباهـا قـد أمرهـا أن تحـضر لـه عينـة مـن دمـه لاسـتخلاص ذلـك الانزيم واستنسـاخه، وأنهـا قـد فعلـت مـا فعلتـه ظنـا منهـا أنـه مـن أجـل غايـة سـامية، قبـل أن تكتشـف نيتـه الحقيقيـة في تدمـير العـالم وبـدء حـروب دمويـة، ثـم حكـت لـه كيـف تـم سـجنها بعـد اكتشـافها لذلـك، وكيـف أنهـا اتفقـت مـع أمهـا و إدواردو عـلى ضمـه إليهـم، وتشـكيل فريـق هدفـه وضـع حـد لهـذا المخطـط الإجرامـي.

كان عبـد الجليـل يسـتمع لقصتهـا باهتـام ودهشـة، ووجـد فيهـا تفسـيرا منطقيـا لحالتـه الغريبـة، منـذ المـرض الـذي ألم بـه حينـما عـاد إلى الجزائـر، مـرورا بعـدم قدرتـه عـلى التأقلـم إلا بعـد

عودته إلى المكسيك، وصولا إلى المعركة الأخيرة التي خاضها، والتي تعطش فيها للدماء بضراوة منقطعة النظير!

سألها قائلا: «وهل يمكن صنع مولد ضد يعود بي إلى حالتي الطبيعية؟».

ـ «أكيد! فحينما نلقي القبض على رؤوس العصابة المتكونة من أبي، والعالم البيولوجي «سيباستيان»، والجنرال «لويس»، فستتمكن من إجبار العالِم على أن يصنع لنا مولد ضد لذلك الإنزيم الخبيث، وسنحقن به جميع المصابين».

ـ «حسنا أنا معكم لسبب واحد فقط، وهو أنني أريد هذا المصل المضاد حتى أعود إلى عائلتي من جديد، لن يجمعنا شيء سوى هذه المهمة، وحينما تنتهي، سنفترق نهائيا، لأنني لم ولن أسامحك على فعلتك تلك إلى الأبد!».

ـ «لا بأس، أنا أيضا سأفعل ذلك لأكفر عن خطيئتي، أنا أعلم أنك لن تسامحني، لكنني سأفعل كل ما بوسعي حتى أصحح أخطائي، لربما يرتاح ضميري قليلا بعد ذلك، فأنا لا أستطيع عيش حياة المذنبة إلى الأبد!».

رجع عبد الجليل إلى غرفته متهالكا، بمشاعر مختلطة وقرارات مضطربة، فقد أحس بطعنة الخيانة التي تلقاها من «الزعيم» الذي كان يخاله أبا له، ونفذ جميع أوامره بلا تفكير،

وفي الأخير اكتشف أنه لم يكن سوى دمية في يده يلعب بها كما يشاء، عزم على الانتقام منه بشدة، ووضع ذلك على قائمة أولوياته، ثم ما لبث أن غرق في النوم دون أن يغير ملابسه.

أما نزهة الأحلام، فقد رجعت إلى الشقة لتجد إدواردو أمام الباب، وعلامات الخيبة بادية على محياه، سألته عن الأمر فأجابها أنه قد اكتشف من أحد مصادره أن عملية الحقن قد اكتملت، وأن عملية تربص العسكريين قد انتهت، وأن الجيش جاهز الآن، وهو يزحف نحو الحدود الجنوبية لبدأ الحرب مع غواتيمالا، قال متحسرا: «للأسف لقد تأخرنا، لقد بدأت الحرب فعلا، وفات الأوان على إنقاذ ما يمكن إنقاذه!»، أجابته قائلة: «لا يفوت الأوان أبدا على شيء نرغب به بشدة وننوي المضي فيه، سنوقف هذه الحرب، وإن لم نستطع ذلك، فسنشارك فيها!».

الفصل الثالث:

وراء خطوط العدو

رَسمنَا فِي قَلبِ العَدوِّ لَوحاتً فَنيّةً للبُطولَة...

أَظهرنَا بَوادرَ الاسْتماتةِ وَالفُحولَة...

سَطّرنَا مَعالمَ الشَّهامةِ وَالرُّجولَة...

فَاعلمْ يَا عَدّونَا أَنّنَا لَوْ قُلنَا... فَلنْ تَقولَ!

وَإِنْ جُلنَا... فَلنْ تَجولَ!

فَابقَ بَعيدًا عَنْ بِلادِي...

ابْقَ بَعيدًا عَنْ بِلادِي!

فَلنْ تَجدَ فِي الجَزائرِ رُضوخًا أَوْ قُبولًا!

لَنْ تَجدَ هُنَا سِوَى مَغاويرٍ...

وَقُواتٍ خَاصّةٍ فِي الجَوِّ مَحمولَة!

(١)

اسمي فيليب، عمري ثماني وعشرون سنة، ولدت في إدارة «ألتا فيراباز» بجمهورية غواتيمالا، من أبوين مسيحيين، كان لدي أخوان، توفي كلاهما في إحدى الاعتداءات التي قامت بها الحكومة ضد قريتي؛ أعمل بالجيش الحكومي برتبة ملازم أول، وأشغل وظيفة قائد فصيلة مغاوير في سلاح القوات الخاصة؛ في الواقع، أنا لم أختر عملي، بل هو من اختارني، ففي بلادي الجريحة التي عانت من أربعة عقود من الحرب الأهلية، والكثير من الانقلابات العسكرية والأزمات السياسية، لا بد لك أن تختار بين أن تكون قاتلا أو مقتولا، أن تكون الذئب أو النعجة، المسلح الظالم أو الأعزل المنكل به!

لم تكن حياتي مستقرة أبدا، بل كانت عبارة عن سلاسل رعب عشتها منذ نعومة أظافري، أين كنا نستيقظ على صوت الرشاشات، ونمسي على رائحة النواح والجثث

المتعفنة، اعتداءات وعنف في كل مكان بين الشعب والشعب، بين الشعب والقوات النظامية، بين القوات النظامية والمتمردين، حتى أن معدل حياتنا قد أصبح هو الأدنى في جنوب العالم بمعدل لا يتجاوز العشرين سنة!

كنت أظن أن عالمي سيتمحور حول صراعات داخلية بحتة، وأنني سأمضي بقية حياتي أحارب هذه المنظمات وتلك، وأن العالم الذي توقف عن دعمنا بالسلاح سيستمر بمشاهدتنا مكتوف اليدين، نريق دماء بعضنا البعض سرا، معلنين أن الحياة جميلة هنا، و أن العصافير تحلق في كل مكان؛ لكننا تفاجأنا قبل أشهر عديدة بما لم يكن في حسباننا أبدا، فبينما كنا منشغلين بإبادة بعضنا البعض، استغلت جارتنا «المكسيك» الأمر، وزحفت بجيشها نحو حدودنا الشمالية، وبدأت دون سابق إنذار بشن حرب شعواء بقواتها الجوية، بينما تمركزت قواتها البرية بين حدود ولاية «كامبيتشي» المكسيكية وإدارة «بيتين» الكولومبية، كانت قرانا في بيتين تتدمر الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات طائرات «نورثروب F-5» و «بيلاتوس PC-7»، في وقت لم يفهم فيه القتلى من، لماذا، متى وكيف؟!

تم إعلان حالة الطوارئ القصوى في البلاد، أين تم أخذنا إلى سهول إدارة بيتين، حيث قمنا بالتجمع هناك ثم

إنشاء خط دفاعي على طول السهول الشاسعة التي تتميز بها هذه المنطقة، فتحت عيني لأجد نفسي في منتصف حرب لم أكن مستعدا لها، حيث تحول مكتبي إلى خيمة، وشوارعي إلى سهل شاسع، رُصّت عليه أسلحة مضادة للطائرات، وصواريخ تنطلق من الأرض نحو السماء، وأخرى تهوي من السماء إلى الأرض!

كان الصراخ والفوضى يملآن المكان، لم تكن لي خبرة في الحرب من قبل، لذلك فقد أخذت الدرس الأول لحظة وصولي إلى المكان: لا وجود للنظام أبدا، أطلق النيران وانتظر النتيجة!

كانت السماء ممتلئة بالطائرات الحربية المقاتلة، المكسيكية والغواتيمالية، كنا نفرح حينما نرى طائرة مكسيكية تسقط أرضا والرياح تلتهمها التهاما، بينما كنا نتحسر على طائراتنا التي كانت تلقى نفس المصير!

حفرنا ملاجئا تحت الأرض للاحتماء من ضربات المدفعية والقوات الجوية، بينما صعد بعضنا إلى الخنادق الدفاعية للقضاء على الإنزاليين الذين كانوا يتساقطون من الطائرات كالمطر الغزير، لقد كانوا حقا بأعداد هائلة، ومهما قتلنا منهم، استمروا بالنزول والتقدم نحونا كسيل جارف!

كنت منبطحا إلى جانب أفرادي، لا أُخرِج من جسمي لأطل على ساحة المعركة سوى رأسي المحمي بخوذة معدنية، وسلاحي الملتهب من فرط ما أطلقت النيران منه؛ كنت أحاول التسديد فلا أستطيع ذلك، فبمجرد أن أخرج رأسي من الخندق حتى تتهاطل علي أكوام من الرصاص تمر بجانبي، ومنها ما يرتطم بسطح خوذتي، فأحس وكأن أحدهم قد ضربني بمطرقة كبيرة على رأسي، أرمي بسرعة دفعة من الطلقات، وأنبطح مجددا محتميا بجدار خندقي.

«إنهم يتقدمون نحونا، لا أريد أن أموت يا سيدي، أنا لم أُقبِّل ولو مرة في حياتي أي فتاة!»، استدرت لأرى «ستيفان» الصغير ذي الثمانية عشر ربيعا منكمشا بجانبي، وهو يشد سلاحه نحوه بشدة، والدموع تنهمر من عينيه خوفا، ورعبا، وفزعا، كان يرتجف وهو يتمتم: «اعذرني يا سيدي، أنا لا أستطيع التحكم في نفسي، يدي ترتجف، ولا أستطيع حمل سلاحي، لا أريد أن أموت أرجوك!».

كان يضع يديه على أذنيه كلما انفجرت قذيفة أمامنا، أحسست بالشفقة عليه، فذنبه الوحيد أنه ولد في المكان والزمان الخطأ، أمثاله يلهون ويستمتعون بمراهقتهم، بينما هو مجبر على مواجهة الموت وهو لا يزال طفلا صغيرا!

«لا تخف يا صغيري، لن تموت اليوم، سنقتلهم عن

آخرهم، وسأعطيك إجازة طويلة حينما تنتهي هذه الحرب، وسأعرفك بفتاة، وستنال منها أكثر من قبلة!»، قلت له ذلك والعاطفة تغمرني.

ـ «حقا يا سيدي؟ هل تعدني بذلك؟».

ـ «أجل يا صغيري، هذا وعد مني، هنالك حياة سعيدة تنتظرك، وحبيبة جميلة تتحرق شوقا للتعرف إليك!».

ابتسم ستيفان، بينما قمت بملء مخازن ذخيرتي مجددا، وبدأت بإطلاق النار نحو أعدائنا من جديد، لم يتمكن المكسيكيون من التقدم أكثر، فحفروا خنادقا بسرعة بالغة، وبدأوا بإمطارنا رصاصا، حتى أصبح رفع رؤوسنا عن الأرض ضربا من ضروب الانتحار!

كان أفراد الجيش المكسيكي أشبه بالانتحاريين، وصفهم البعض بالشجاعة الخارقة، لكنني أعرف الفرق بين الشجاعة والتهور، لقد كانوا قبل توقفهم يستمرون بالتقدم نحونا غير مبالين بالرصاص الذي كان يمزق أجسادهم، في معركة أشبه منها بمعركة مع الزومبي، لا مع جيش نظامي!

قمت باستغلال توقفهم، وانسحبت زاحفا نحو الممرض أعطيه التعليمات، وأساعده على إجلاء الجرحى إلى الخيمة المخصصة لذلك، كانت بشاعة المنظر داخل خيمة

الجرحى أسوأ بكثير من ساحة المعركة: صرخات الجنود وتأوهاتهم، أجساد عديدة تفتقر إما ليد أو لرجل أو لكليهما، رائحة الدماء ممتزجة برائحة المورفين، صراخ الألم المنبعث من أفواه الرجال المتألمين والممرضات الغير متمرسات.

هربت من ذلك المشهد بسرعة نحو ساحة المعركة، قمت بعدّ رجالي المتمركزين على الخط الدفاعي، وكذا الجرحى والقتلى، فلاحظت اختفاء خمسة أفراد عن الوجود، لا بد أنهم قد هربوا، وإن كتب لي الرب حياة بعد هذه المعركة، فسأجعلهم يندمون على ذلك كثيرا!

قمت بفتح جيب بذلتي، وأخرجت صورة زوجتي إيزابيلا، تلك المرأة الرائعة التي لم أندم يوما في حياتي على زواجي منها، بالعكس، فقد كنت أشكر اليسوع ليلا نهارا لأنه أرسل إلي هذا الملاك الطاهر رحمة بي من هذا العذاب الذي أعيشه كل يوم.

إيزابيلا تحبني بصدق، وتحترمني بشدة مبالغ فيها، وفوق كل هذا، فبيننا ثقة عمياء قلّما تواجدت بين رجل وامرأة في عصرنا هذا، فهي وفية لي تمام الوفاء، تنتظر قدومي بشغف كما تفعل أغلب زوجات العسكريين، وتجعلني أحس بفرحها الصادق العميق كلما أخبرتها أنني تحصلت على إجازة، وأنني سأعود إليها من جديد.

لقد عاهدتها ألا أجعلها تحزن، لكنني أظن أنني سأخلف بوعدي هذه المرة، فموتي سيحزنها كثيرا، لا أريد أن أموت اليوم كي لا تحزن إيزابيلا، علي أن أقاتل من أجلها، أن أحافظ على حياتي من أجل أن أجعلها تفرح مجددا حينما أخبرها أنني قادم إليها مرة أخرى!

تتجنب الكثير من النساء في بلادي الزواج بالرجال العسكريين، وهذا لأن أغلبهن لا يقتنعن بفكرة النصف علاقة، والتي تتزوج فيها المرأة في الأوراق فقط، بينما لا ترى زوجها في العام الواحد سوى لمدة شهرين كحد أقصى؛ كما أن أغلبهن قد يترملن في أي وقت، أو قد يختفي أزواجهن في حرب لمدة سنوات، أو قد يتعرضن للخيانة لا سمح الرب!

إيزابيلا كانت لها نظرة مختلفة، لقد كانت تخبرني أنها محظوظة جدا بزواجها مني، وهذا لأنها ترى أن زوجة العسكري تبقى دائما «عروسة» في عين زوجها، لا يمل منها أبدا، ويعيش الاثنان حياة الشوق المتّقد ولوعة الفراق، وهي أحاسيس قلما تراها لدى الأزواج العاديين، أين ينال الملل الزوجي منهما، ومن الرجل بشكل خاص، فهو بطبعه يختلف عن المرأة، وإن رؤيته لها كل يوم تجعله ينفر منها ويرغب برؤية غيرها، لذلك ينصح خبراء العلاقات الزوجية المرأة دائما بقضاء بعض الوقت لدى بيت أهلها، وتغيير هيأتها

بين الحين والآخر حتى لا يمل منها زوجها، وتنشأ بينهما تلك المشاكل التي تنتهي إما بطلاق أبدي، أو فراق عاطفي.

هي محقة نوعا ما في بعض النقاط، فأنا لا أشعر اتجاهها إلا بشوق متّقد، كما أنها بارعة في تغيير هيئتها كلما عدت إليها في إجازة، حتى أنها قد أضحت تشتري أزياء غريبة مؤخرا، كبدلة شرطية أو ممرضة أو أستاذة، وغيرها من البدلات المتنوعة، والتي تتقمص شخصياتها بكل احترافية، حتى تجعلني أحس أنني على علاقة مع العديد من النساء المذهلات المتمثلات في امرأة واحدة، أين تُشبع في نفسي غريزة التعدد الطبيعية لدى الذكر، وتجعلني أرى فيها كل النساء بكل ما للكلمة من معنى!

كنت مجبرا على وضع الصورة مجددا داخل جيبي، فالموت قادم باتجاهي على شكل قذائف نحاسية ملتهبة، بدأتُ في إطلاق النار بكثافة، بينما قامت الإمدادات بدعمنا بصواريخ مضادة للأفراد كنا نطلقها نحو العدو بقوة، كان القتلى يتساقطون من الطرفين بكثرة، إنها مجزرة حقيقية في حق الإنسانية، كانت رائحة الموت تختلط برائحة البارود، وصوت الانفجارات يختلط بصوت صراخ الجرحى، في سمفونية حزينة تجعلك تدرك أننا مجرد وحوش في البرية، لا هدف لنا سوى قتل بعضنا البعض بلا رحمة ولا شفقة!

كان العدو المكسيكي يتفوّق علينا بأشواط، تعدادا، وعتادا، وتدريبا، واستماتة، كنا نقاتل في معركة خاسرة لا ندري حتى سبب قيامها؛ اتصل بنا الكولونيل أخيرا ليعطينا أمر الانسحاب نحو المعسكر بغرض التجمع ولملمة شتاتنا لخوض المعركة المقبلة، أمرت رجالي بالانسحاب جماعات باستعمال نظام التغطية المتبادلة، استدرت نحو «ستيفان» الصغير لآخذه معي نحو بر الأمان، فوجدته نائما منكمشا في مكانه، معانقا سلاحه وعلى رأسه نفس الابتسامة، قمت بدفعه بقوة لإيقاظه فوجدته باردا جدا، كشفت عن جسده بسرعة فوجدت جرحا عميقا في قلبه، سببه شظية اخترقت صدره الصغير، وشطرت فؤاده بلا رحمة إلى نصفين، جسست نبضه فوجدته منعدما؛ لقد مات ستيفان الصغير، أسلم روحه مبتسما وهو يظن أنه سيُقبّل يوما ما فتاةً كما يفعل الرجال الآخرون، لقي حتفه وهو يحلم بتلك الفتاة التي ستقع في حبه وتجعله يستطعم لذة الحياة، قضى نحبه وهو يرتجف من البرد والخوف والرعب، وافاه الأجل وهو لا يعلم لما أحضروه إلى هنا، ولما يتعرض للقتل من طرف أشخاص لم يؤذهم في حياته يوما!

أجل يا ستيفان! لقد كذبت عليك! لن تر في حياتك فتاة ناهيك عن تقبيلها! لن تقع في الحب ولن تعيشه، بل ستموت يا صغيري، ستتلاشى مثل اللا وجود ومن أجل

الـلا شيء، سـتتقرح عينـا أمـك مـن فـرط البـكاء عليـك، وقـد تمـوت كمـدا عـلى فلـذة كبدهـا، الحيـاة ظالمـة يـا سـتيفان، وهـي تـؤذي كل مـلاك أو ضعيـف أو مسـالم، إن كنـت تريـد النجـاة منهـا فعليـك أن تكـون شـيطانا، عليـك أن تقتـل كـي تحيـا يـا صغـيري! أتمنـى ألا تكـون هنالـك حيـاة بعـد المـوت، لأنهـا لـو كانـت حقـا، فأنـت سـتتعذب مجـددا يـا صديقـي، سـتتعذب مجـددا لأنـك مـلاك صغـير، والملائكـة لا تنجـو يـا عزيـزي، لا في هـذه الحيـاة، ولا في أي حيـاة أخـرى لعينـة!

(٢)

كانت الطائرات المكسيكية تحوم فوق سماء إدارة بيتين الكولومبية، نظر أنخيل من النافذة فرأى قرى مدمرة ودخانا متصاعدا في كل مكان، «إنها الحرب»، همس لنفسه قائلا: «وأخيرا تحقق حلمي في خوض حرب حقيقية، الفوز بالنسبة لي يعني قتل أكثر من شخص واحد قبل أن أموت، العديد من الأرواح مقابل حياة واحدة، هذا أمر عادل!».

نظر نحو فريقه وصرخ بحزم: «لقد حان الوقت يا رجال، إنها اللحظة الفاصلة التي ستحدد جنسنا، فإما أن تضعنا في خانة الرجال، وإما أن تضيفنا إلى كوكب النساء، ليس البطل من يلعب بكرة منفوخة ويرميها في مرمى الفريق الآخر ليصفق له العالم أجمع، كلا يا أصدقائي، ذاك مجرد طفل يلعب ومراهقون يصفقون له؛ البطل هو من يرتدي بذلة الميدان، من يعلق سلاحا على كتفه ويربط خنجرا

على رجله، من ينزل في عمق العدو، من يدمر أهدافا بدقة متناهية، البطل هو من تتجنب وسائل الإعلام الحديث عنه وعن إنجازاته، فهي لا تروّج إلا للمغنيين واللاعبين والراقصين والمثليين!

نحن لم نأت إلى هنا لنموت بل لنقتل، لن أسمح لأي شخص أن يموت دون يأخذ معه أرواحا آثمة إلى الجحيم، نحن ملائكة الموت! نحن قوة جمهورية المكسيك العظمى، نحن بأسها وجأشها!».

فُتح باب الطائرة، وبدأ الفريق ينساب منها كسمفونية إلهية مثالية! ولو كنتَ في قلب الميدان ـ يا عزيزي القارئ ـ لرأيت طائرة عسكرية محلقة في الفضاء كنسر غاضب، تقوم بإلقاء رجال من على متنها كرؤوس نووية، الواحد تلو الآخر، بمسافات بدت وكأنه قد تم قياسها بالميليمتر! لو كنتَ هناك، لأدركت أن أولئك الرجال ليسوا عاديين، إنهم مغاوير بكل ما للكلمة من معنى، ستخشاهم في الحين، وستدرك أن وصولهم إلى سطح الأرض يعني النصر إن كنت حليفهم، والهلاك إن كنت العدو!

بدأ فريق أنخيل بإطلاق النار، وهم في الفضاء يناورون بمظلاتهم في الجو لتفادي طلقات العدو التي كانت تمزق مظلاتهم تمزيقا، اضطر العديد منهم إلى فتح

مظلاتهم الاحتياطية بعد تمزق الرئيسية نتيجة سيل الطلقات الجارف الذي كان موجها نحوهم، كما لقي بعضهم حتفه قبل أن يصل إلى أرض المعركة، لكن هذا لم يثن من عزم بقية المقاتلين الذين ما إن لامست أرجلهم الأرض الصلبة حتى انبطحوا في الحين، وقاموا بفصل مظلاتهم، وشرعوا في الزحف نحو سواتر تقيهم مقذوفات الرصاصات الملتهبة؛ بدأوا بالتقدم بالوثبات نحو خنادق الأعداء، ثم رمي قنابل يدوية بين تجمعاتهم، ومشاهدة الأرجل والأيدي وهي تتطاير في السماء، مخلفة بحيرات من الدماء، راسمة لوحة فنية عنوانها: الأجساد الممزقة!

إن القتل إدمان، إن مارسته مرة فستمارسه إلى الأبد، وإن كان قتل شخص بريء قد يحطمك كإنسان ويجعلك تغرق في الندم، فإن قتل عدو يجعلك تحس أنك إله، لقد سلبته روحه برغبة منك، وهذا كفيل بأن يجعلك تحس بالعظمة مثلما أحس بها الطغاة من قبلك، ستدمن رائحة الدماء، وتتعلق بصوت حشرجة القتيل وهو يرجوك أن تنقذ حياته؛ القتل هو الحد الفاصل بين الإنسان والوحش، إن قتلت نفسا فأنت وحش، إن أخذت روحا فأنت قاتل، لا يهم إن كانت الروح التي قتلتها روح إنسان أم حيوان، فالقاتل قاتل مهما أقنع نفسه بغير ذلك، سواء كان امرأة أجهضت جنينها، أو رجلا عاملا ضمن «القالوفة»!

لذلك فقد كان أنخيل يقتل بلا هوادة، إنه إله الحرب اليوم، وقد قرر أن ينتزع أكبر عدد من الأرواح، «تقدموا بسرعة يا أوغاد!»، كان يصرخ بشدة وهو يقوم بتغيير مخزن ذخيرته ليفرغ محتواه في هذا الفرد وذاك، لقد بدا الرعب على محيا الغواتيماليين، وهذا ما بث الشجاعة في قلوب المكسيكيين للهجوم عليهم بقوة، وحصد أرواحهم بلا رحمة ولا شفقة!

تألم الجيش الجريح للهزيمة النكراء التي نالها، وبدأ بالانسحاب بسرعة نحو إدارة «ألتا فيراباز»، أراد أنخيل اللحاق به لحصد المزيد من الأرواح، لكن الأوامر صدرت بالتوقف عن مطاردة العدو، وإنشاء خط دفاعي، والاستيلاء على الأسلحة وأي وثائق مهمة، وإجلاء الجرحى، وجمع الأسرى في مكان واحد، ثم انتظار الأوامر.

خيم الليل بهدوء على سماء بيتين الجريحة، قام الجيش المكسيكي بتنظيم جدول الحراسة الليلية تفاديا لأي هجوم غادر، بينما ذهب أنخيل إلى خيمة الأسرى لتفقدهم، كانوا حوالي عشرين أسيرا، موزعين على رتلين متعاكسي الاتجاه، وأيديهم مثبتة خلفهم، ومظاهر الخيبة بادية على محياهم؛ تقدم أنخيل نحو أحدهم، كان يبدو أكبرهم سنا وربما أعلاهم رتبة، وسأله قائلا: «ما اسمك يا هذا؟»، نظر إليه الأسير بنظرة يملؤها الحقد، ثم استدار مجددا محدقا نحو

الأرض ولم ينبس ببنت شفة.

قام أنخيل بركله بوحشية، ثم جذب الخنجر بسرعة من غمده وأمسكه من شعره واضعا نصله على رقبته وصرخ قائلا: «أنا أكلمك يا حقير! أجبني وإلا نحرت عنقك!».

ـ «لن تفعل ذلك، لأننا جيوش نظامية، ومنظمة حقوق الإنسان تنص...».

ـ «منظمة حقوق الإنسان! هاها! هل تؤمن حقا بهذا الهراء؟! هل أنت ساذج إلى هذه الدرجة؟! هل تصدق حقا أن للإنسان حقوق؟! أنت مغفل يا صديقي! نعم، للأمريكيين حقوق! للأوروبيين مزايا! للروس تفضيلات! أما نحن فلا شيء لنا! أين هي حقوق الانسان التي تتحدث عنها بحق الجحيم؟! إنها تُنتَهك يوميا على أيدي الممضين عليها في دول أمريكا الجنوبية، وفي إفريقيا، وداخل كل بلد فقير لعين! لا وجود لحقوق الإنسان يا هذا، لا وجود سوى لحقوق الأغنياء، الأثرياء فقط!».

ـ «تبا لكم من شعب ظالم! تعتدون على أرضنا بلا سبب، تقتلوننا ونحن جيرانكم منذ تقسيم الدول، إن الرب سيقف إلى جانبنا، وسننتصر عليكم اليوم أو غدا».

ـ «أنت مخطئ يا هذا، الرب لا يقف إلى جانب الضعفاء،

الإله يكره العاجزين ويزدريهم، المولى يقف بجانب الجيوش المنظمة، والأسلحة الفتاكة، والتكنولوجيا المتطورة، المعبود يقف بجانب القوي فقط! هل سمعت يوما بأن الرب قد وقف إلى جانب الخروف وجعله يفتك بالذئب؟ أو إلى جانب الغزالة وجعلها تلتهم الأسد؟ الإله لا ينصر سوى المخالب الفتاكة والأنياب البارزة!».

ـ «حتى وإن لم ينصرنا الرب فهو سيجعلنا ننجو من ظلمكم، ثم يوقع عليكم أشد العقاب!».

ـ «هذا كلام الحمقى والمغفلين، إن كان كلامك صحيحا، فليمنعني ربك من ذبحك الآن!».

طعن أنخيل رقبة الأسير بخنجر حاد، ثم أخذ يذبحه ببطء شديد، ويجذبه إلى ركن الخيمة حتى يتمكن الجميع من رؤيته، كان النصل الرفيع يقطع أوردته بنعومة كما يقطع الجزار لحم أضحيته بسكينه القاطعة، عمّ الهدوء التام المكان إلا من صوت حشرجة القتيل وأنفاس باقي الأسرى المتقطعة، كان المشهد مقززا، خاصة حينما لم يكتف القاتل بالذبح فقط، بل أخذ ينهال بالخنجر بكل قوة على رقبته إلى أن فصل رأسه عن جسده؛ قام بحمل الرأس بيده وأخذ يتكلم بسخرية، ودماء ضحيته تصبغ وجهه الأقحواني: «هل رأيتم الآن إلى أي جانب ينحاز الرب إليه؟ الإله معنا، وسيقف إلى

جانبنا حتى نمحيكم عن الوجود أيها الأوغاد!».

قام أنخيل بتعليق رأس الأسير في منتصف الخيمة، أين بدأ يترنح من تأثير الرياح، والدماء المتصببة منه تتقاطر على رؤوس الأسرى الآخرين منذرة إياهم بمصير مشابه، تقدم بعدها نحو شاب صغير السن رآه يرتعد خوفا، قام بجذبه من تلابيب ثوبه وصرخ في وجهه قائلا: «ما اسمك يا حقير!».

ـ «اسســ...مي... آدم».

ـ «حسنا يا آدم، كم عددكم؟».

ـ «نحن لواء يا سيدي، حوالي أربعة آلاف عسكري، لكن أغلب قواتنا قد هلكت، حيث انسحبت كتيبتان نحو إدارة ألتا فيراباز؛ وقد قضت الأوامر بأن تتجمع هناك، وتنظم إليها كتيبتان من لواء آخر لاستكمال الدفاع، هذا كل ما أعرفه يا سيدي، أقسم لك!».

ـ «أحسنت، أنت طفل مطيع!».

قال أنخيل ذلك وهو يشعر نحوه باحتقار كبير، نفس الاحتقار الذي ينظر به الفرنسيون إلى الحركى الذين باعوا بلادهم أيام الاستعمار الفرنسي، ولجأوا إلى الفرنسيين ليعيشوا

معهم، لكنهم لم ينالوا منهم أي احترام، فالرجل الذي يبيع بلاده قد يبيع أي شيء آخر، والخائن لا يخون مرة واحدة فقط، بل يفعل ذلك دوما للنجاة بجلده أو من أجل غايات أخرى.

أما الرجل الذي يموت بوحشية تحت أيادي قاتليه، فهم يسبونه ويشتمونه في العلن، لكنهم يكنون له احتراما داخليا، نفس الاحترام الذي كنه أنخيل للأسير الذي قطع رأسه، فهو على الأقل قد اختار أن تُقطع رأسه بدل أن يبيع شرفه وضميره وبلاده!

الشرف كلمة معقدة، والرجولة أمر نسبي، فجميعنا نظن أننا رجال لأننا لم نواجه مواقفا صعبة بعد؛ الشدائد وحدها كفيلة بإخبارنا عن حقيقة معدننا، وحول طبيعة جنسنا، فكم من شبه رجل تغنى برجولته، لكنه رمى ابنته في الشارع لأنها مارست علاقة غير شرعية مع حبيبها، خوفا من نظرة المجتمع إليه؛ وكم من نصف رجل تبرأ من ابنته لأن نصف رجل آخر يدعى زوجها اكتشف أنها ليست عذراء في ليلة الدخلة، وقرر أن يفضحها أمام المجتمع الجاهل الذي قضى أن شرف المرأة عبارة عن غشاء بكارة، لا أكثر ولا أقل؛ هو نفس المجتمع الذي يتفاخر كل رجل فيه بأنه يمارس الحب مع العديد من الفتيات، وفي نفس الوقت يقسم أن أخته لم

يمسسها بشر، وإن قمنا بعملية حسابية بسيطة باستعمال آلة حاسبة تقليدية، فسنجد أن رجال المكسيك يمارسون العلاقات الغرامية مع الفضائيات!

لذلك فأنت لا تعرف إن كنت رجلا حقيقيا أم مجرد ذكر آخر إلا إن أنت وقفت مواقفا رجولية، سواء مع عائلتك أو وطنك، فالعائلة هي الوطن، والوطن هو العائلة، والرجل الذي يتخلى عن ابنته، يتخلى عن شرفه وعن وطنه، والرجل الذي يتخلى عن وطنه، يتخلى عن ابنته وعن شرفه، إنها علاقة قديمة أزلية لا نقاش فيها ولا تمحيص!

تخيل ـ يا عزيزي القارئ ـ لو كنتَ مكان آدم، لو وضع أحدهم السكين على بطنك وأقسم أنه سيخرج أحشاءك إن لم تعطه معلومات عن أصدقائك، هل ستبصق في وجهه ثم تجلس لتشاهد بطنك وهي تفتح، ومحتوياتها تخرج منها أمام ناظريك؟ أم أنك ستخبره بما تعرفه وتحافظ على حياتك؟ توقف لا تجب، لأنك مهما فكرت، فأنت لن تعرف الجواب إلا إن أنت عشت حقا في ذلك الموقف!

خرج أنخيل من الخيمة، وأخرج سيجارة من علبة السجائر، قام بإشعالها، وشرع ينفث الدخان من فمه بسرعة، لم يكن في الحقيقة مدخنا، لكنه بدأ التدخين منذ بداية المعركة، فمن الغباء ألا تدخن في آخر أيام حياتك،

ومـن البـلادة أن تبحـث عـن صحـة رئتيـك بـدل البحـث عـن سـلامة رجلـك، رجلـك التـي سـتغادر مكانهـا مـن جسـدك اليـوم أو غـدا أو بعـد غـد!

بـدأ شريـط حياتـه يمـر أمـام عينيـه، طفولتـه في «سـيوداد خواريـز»، التحاقـه بالجيـش، تربصـات الكومونـدوس التـي مـر بهـا، المجرمـون الذيـن قدمهـم إلى العدالـة؛ سـأل نفسـه قائـلا: «مـا هـو الإجـرام؟ ومـن هـم المجرمـون؟ لقـد قتلـت اليـوم العديـد مـن النـاس فهـل أنـا سـفّاح؟ تفكـير طويـل قـاده إلى اكتشـاف حقيقـة الأمـر: جميعنـا ملائكـة في أعين أنفسـنا، شـياطين في أعـين عدونـا، ولكـن الحقيقـة المطلقـة هـي أن جميـع البـشر آثمـون، فالإنسـان سـفّاك دمـاء بطبيعتـه، يقتـل جميـع الأرواح حيوانيـة كانـت أم بشريـة، والعدالـة هـي السـلطة التـي تجعـل المجـرم القـوي يديـن المجـرم الضعيـف!».

(٣)

كان مروان في غرفته يشاهد مسلسل «Elite» على موقع «نتفليكس» بصحبة فتاة في عمر ابنته، يتبادلان سيجارة ماريخوانا أصلية في سعادة تامة، لكن الهاتف النقال قد صمم خصيصا لتحطيم سعادتنا باتصال مفاجئ يجعلنا ننتقل فجأة من الفردوس إلى الجحيم! كان المتصل هو الجنرال لويس، حيث طلب منه الحضور إلى الفندق لمناقشة أمر في غاية الأهمية.

ارتدى ثيابه بخفّة، شغل سيارته المرسيدس، وانتقل بسرعة إلى المكتب أين وجد لويس في انتظاره والابتسامة تعلو محياه:

ـ «لقد ربحنا المعركة يا مروان! آه لو ترى جنودنا في ساحة الميدان، لقد كانوا تماما كالآلات، يتقدمون بسرعة ثابتة، لا تثنيهم رصاصات قاتلة ولا قنابل مفاجئة، لقد بدأنا

نتوغـل في غواتيـمالا وسرعـان مـا سنسـتحوذ عليهـا كلهـا!».

ـ «هـذا أمـر رائـع يـا لويـس! إنهـا البدايـة فقـط، سنسـتحوذ عـلى العـالم كلـه يـا صديقـي!».

ـ «تقصد أنني سأستحوذ على العالم كله؟».

ـ «إلى ماذا ترمي؟ لم أفهم؟».

ـ «أديليو! دومينيكو! خذاه إلى حيث ينتمي!».

دخـل رجـلان بسرعـة إلى الغرفـة، وقامـا بتقييـد مـروان بعنـف وإخراجـه منهـا، صرخ قائـلا: «تبـا لـك يـا خائن! سـأنتقم منـك شر انتقـام! لا يمكنـك السـيطرة عـلى العـالم مـن دوني! أنـا العقـل المدبـر!»، ابتسـم الجنـرال بخبـث مشـيرا إلى الرجـل الثالـث الـذي دخـل إلى الغرفـة: «لا أظـن ذلـك، فسيباسـتيان وحـده يكفينـي!».

اسـتدار مـروان ليجـد العـالم البيولوجـي ينظـر نحـوه بمكر، وحينهـا فقـط أدرك مـا كان يحـدث، لقـد تـم اسـتغلاله مـن طـرف عصابـة، واسـتخدام أموالـه مـن أجـل تمويـل مشروعهـم الشريـر، والآن قـد تمـت خيانتـه بعـد أن أصبـح وجـوده مثـل عدمـه، فقـد أصبـح عبئـا عـلى الجنـرال ومسـاعده، وتهديـدا قـد يكشـف سرهـم للعلـن، كـما أن فكرتـه بعولمـة العـالم لم تـرق

لويس الذي كان يريد احتلال البلدان الأخرى حتى ينهب ثرواتهم، ويحقق مصالحه الشخصية.

تم اقتياد مروان إلى قبو متواجد أسفل موقف سيارات الفندق، أين تم ربطه إلى عمود فولاذي وتركه هناك إلى مصير مجهول، كان يحظى بوجبة واحدة في اليوم، ولا شيء آخر غير ذلك، حتى أنه كان يقضي حاجته في دلو مخصص لذلك الغرض، بدأ بعد أيام يدرك لما أحجم الجنرال عن قتله، لقد أراد هذا الأخير أن يعذبه، أن يجعله يفقد عقله، حتى يستولي مستقبلا على جميع ممتلكاته، وبالفعل، فقد أصيب مروان بانهيار عصبي حاد وكثرت هلوساته، لقد أصبح يتخيل ابنته وهي في نفس حالته، أو ربما هي تتعرض الآن للاغتصاب أيضا! أراد أن يلكم إدواردو بقوة ويغرس سكينا في قلبه، كونه يحتجز ابنته، ويقوم بتعذيبها واغتصابها، ثم يتذكر أنه هو من أعطاه الأوامر بأسرها، بعد أن نال منه حب السلطة وأعمى بصيرته، فيشرع في البكاء بحرارة وهو يصرخ بكل قوة: «اعذريني يا نزهة الأحلام!».

بعد بكاء وصراخ وعذاب، ينتقل فجأة إلى الابتسام الطفيف، ضحكات خفيفة، ثم ضحك وقهقهة شديدة لا يستطيع التحكم بها، وبعد ذلك يعود مجددا إلى البكاء والنحيب.

بعض الأشخاص قد يُسجنون لسنوات عديدة دون أن يؤثر ذلك فيهم، لكن البعض الآخر قد يجن جنونه إن تم سجنه لأيام معدودة، هذا الصنف يشبه تلك العصافير الحرة التي تموت بمجرد وضعها في قفص، ومروان كان من ذلك النوع، خاصة وأن هذا السجن قد جعله يتذكر كل الأخطاء التي ارتكبها في حق زوجته، وابنته، وأصدقائه، ومعظم مرؤوسيه.

السجن هو ضمير من لا ضمير له، يجعلك تندم على جميع تصرفاتك السيئة، وتتمنى لو أن الزمن يعود بك إلى الوراء حتى لا تقول ما قلت، ولا تفعل ما فعلت؛ المعتقَل هو الوحدة القاتلة التي تذكّرك أنك لا شيء، وأن جميع قراراتك خاطئة، وأن العالم مظلم، تافه، حقير ومليء بالشر؛ الأسر هو الموت البطيء الذي يجعلك تكتب روايات تصرخ فيها بأن لا شيء على ما يرام، بينما يظن الجميع بأنك على أفضل حال!

كان القبو مظلما، رطبا، باردا وهادئا، لكن الصوت الداخلي لعقل مروان لم يستطع إيقاف أغنية المافيا الروسية الشهيرة «Corni Delfina» التي كانت كلماتها تزعزع جوارحه:

«تخيلوا يا إخوتي أنه يوجد لدى الدلفين جدران...

ممرات طويلة، نوافذ وقضبان...

والناس ظهورهم إلى الأعلى مثل الدلافين...

سباحتهم دائمة من أجل الأفعال الشريرة...

هناك لا تحصى الأيام، بل الأسابيع والسنوات...

لا يوجد اتصال آخر، ولا رسول، ولا حرية...

هناك يتحطم أوقح المذنبين القذرين الذين دموعهم شديدة الملوحة...

هناك الأيام أسابيع...

هناك الأيادي كلها ملطخة بالدماء...

لا يوجد مخرج من هناك... مثل من هو داخل غواصة...

يأخذونك إلى الأعماق المالحة والبحيرات العميقة...

في الواقع... هنالك دلفين واحد فقط!».

(٤)

استيقظ عبد الجليل على رنين منبه هاتفه الذكي، انتبه إلى أنه لم يغير ملابسه منذ ليلة البارحة، قام بأخذ حمام سريع، غير ثيابه، تناول فطوره، قام بتفكيك مسدسه وشرع في تنظيفه باستخدام الزيت وقطعة قماش، كانت أفكاره مختلطة، خاصة وأنه تعاطى الكثير من الكحول قبل النوم، بدأ يتذكر نزهة الأحلام ويسترجع كل ما أخبرته عن الزعيم، مما جعل قلبه يخفق بسرعة، ورغبة الانتقام تتأجج داخل فؤاده!

قام بالاتصال به وطلب منه موعدا للقائه، واتفق الاثنان على الساعة الثانية ظهرا، كان عبد الجليل في قاعة الانتظار قبل نصف ساعة من الموعد، أخذ منه التوتر كل مأخذ، ودخّن حوالي عشر سجائر متتالية وهو ينظر نحو جدران القاعة دون وعي، كان جل اهتمامه هو الساعة العتيقة

المعلقة فوق الباب مباشرة، والتي بدا أن عقاربها تسير ببطء شديد معلنة أن الموعد لن يحين أبدا!

بعد نصف ساعة، والتي بدت له كنصف قرن، دلف عبد الجليل إلى مكتب الزعيم بعد أن طلبه هذا الأخير، انتظر أن يأذن له بالجلوس لكنه لم يفعل، بل شرع في محادثته وهو جالس على كرسي مكتبه الكبير: «أهلا يا مقاتل، كيف كانت إجازتك؟».

ـ «كيف كانت إجازتي؟ هل تسألني لمجرد فتح موضوع ما أم أنك تستفهم لأنك حقا تهتم؟ ها ها، هل تعلم؟ لا أظنك تكترث حقا؛ وهل يبالي الرؤساء في الواقع بمرؤوسيهم؟ كلا! هم لا يفعلون ذلك! فالرؤساء «يتكبرون» ولا «يهتمون»!

أنظر إلى نفسك! لما تحدثني وأنت جالس على مكتبك من دون أن تدعوني إلى الجلوس على الكرسي المقابل؟ كيف تريد مني أن أتحدث واقفا بحق الجحيم؟! أهي إهانة أم ماذا؟ توقف لا تقاطعني! لقد سئمت من قول كلمة «مفهوم» كلما عارضت ما تقوله لي، فقط لأنني أحترمك كرئيس لي!

لما تحدثني وأنا بعيد عنك؟ هل تخاف أن أعديك

بمرض ما أخذته من حيي السكني الفقير؟ أم أنك لا تمتلك الشجاعة لمحادثة شخص معين إلا إن كان بعيدا عنك تمام البعد حتى تضمن سيطرتك على الحديث والمناقشة؟

لما لم تدعني إلى الجلوس؟ ألأنك تراني أقل منك شأنا؟ أم لأنك تخال أنك قد خُلقت من طينة أسمى من طينتي؟ أم لأنك تظن أنك أنت من خلقتني؟ تكلم أجبني! هل تخال نفسك ربّا؟! هل بدا لك احترامي لك لعدة سنوات سببه الخوف والرهبة منك؟

دعني أخبرك بما أظنه، أنت لم تدعني إلى الجلوس لكيلا أتساوى معك، وهذا لأنك تظن أن تفوقك على مرؤوسيك مبني على اختلاف وضعيات الوقوف والجلوس، وهذا لأنك تعلم أنني أتفوق عليك في الرياضة، وفي العلوم، وفي التكتيك الحربي، وفي أي مجال آخر لعين! أنت تحس بأنك أقل مني شأنا، ولذلك تبرز تفوقك علي بمحادثتي بتكبر، أنا أعلم أنني أفضل منك، والجميع يعلم ذلك! أنت أسوء أفراد منظمتنا أداء، وما منصبك الحالي إلا نتيجة أقدميتك علينا أيها الحقير!

إن أسوء أنواع القادة هم أولئك الذين حين تمثل أمامهم لا يدعونك إلى الجلوس قبالتهم، إنهم متكبرون لدرجة أنهم يظنون أنك بجلوسك قدّامهم ستتساوى معهم،

وهـذا لأن جهلهـم الفظيـع أعطاهـم ثقـة عميـاء بأنهـم أفضـل منـك، ولـو اكتسـبوا قليـلا مـن العلـم والخـبرة، لاكتشـفوا الهـوة العظيمـة بـين الجيـل القديـم الـذي أخـذ مناصبـا بحكـم وجـود الكثـير مـن الوظائـف الشـاغرة توازيهـا كفـاءات شـبه منعدمـة، والجيـل الجديـد المتفـوق في كل مجـالات الحيـاة، والأكفـأ مـن الجيـل السـابق، والأعـلى منـه مسـتوى تعليمـي، والـذي لم تـترك لـه تلـك الحمـير فرصـة لأخـذ منصـب مثلهـم للأسـف الشـديد!

إن الأزمـة العظيمـة التـي تعـاني منهـا الدولـة هـي وجـود أشـخاص مثلـك عـلى سـلم قيادتهـا، فأمثالـك مـدراء لـشركات، وولاة ونـواب يمثلـون الشـعب، وكـم مـن مهنـدس متمكّـن نهـل مـن مختلـف العلـوم، وجـد نفسـه مكتـوف اليديـن أمـام مديـر شركـة جاهـل، يحطّـم كل مـن هـو أفضـل منـه، ولا يزكـي سـوى مـن يخضـع لـه ويـرضي غـروره اللعـين!

أنـت وغـد يـا هـذا، ولذلـك سـميت نفسـك بـ«الزعيـم»، بـماذا تتزعمنـا بحـق الـرب القديـر؟! أنـت رديء جـدا، عديـم التربيـة والـذوق والأخـلاق، أنـت مجـرد شـيخ طاعـن في السـن تـم إذلالـه طـوال حياتـه مـن طـرف رؤسـائه، ولذلـك فهـو يحـاول الانتقـام مـن مرؤوسـيه بإهانتهـم مثلـما أُهـان، أنت إنسـان نـذل، لا تسـتحق أن تكـون في هـذا المنصـب الـذي أعطتـه لـك هـذه البـلاد التـي لا تعطـي المناصـب بالكفـاءات، بـل بالوسـاطة

والتذلل!

لقد وثقت بك، واعتبرتك أبا لي، لكنك قمت باستغلالي، وجعلتني كفأر تجارب بالنسبة لك، أنا أعرف كل شيء! وأنك قد قمت بحقني بإنزيم لعين حتى تحولني إلى كلب مطيع، وها أنا اليوم أمثل أمامك لأخبرك أنني لست مطيعا أبدا! أنا هو الجحيم يا هذا! وسأحرقك اليوم لأجعلك تدفع ثمن خيانتك لي!».

ـ «اجلس أرجوك! دعنا نتحدث بعقلانية!»، قال الزعيم وعلامات الرعب بادية على محياه.

ـ «بل اجلس أنت على ركبتيك أيها الوغد اللعين!»، قال عبد الجليل مشهرا مسدسه في وجهه.

نهض الزعيم من كرسيه المريح، وجلس على ركبتيه، واضعا يديه على رأسه، وأخذ يترجاه قائلا: «ارحمني أرجوك! أنا لم أفعل ذلك لكي اؤذيك، بالعكس، لقد كنت كابن لي، لم أستطع رؤيتك تغادر المكسيك وتتركني، لقد تقبلت رحيل سيف بمرارة، ولم أستطع تقبل رحيلك أيضا، أنا أبوك يا بني، اعف عني أرجوك!».

نظر إليه عبد الجليل باحتقار وصرخ فيه بشدة: «أما أنا فباستطاعتي رؤيتك تغادر هذا العالم الحقير!».

ضغط بجوارحه على الزناد، فانطلقت الرصاصة بسرعة من ماسورة المسدس نحو جمجمة الزعيم، قامت باختراقها من الأمام واستمرت في الحفر داخلها إلى أن خرجت من الخلف واستقرت على الأرض، مخرجة معها سيلا من الدماء مختلطا بأجزاء متفرقة من الدماغ الفارغ أساسا، إنه دماغُ المتكبرين والجهلة والسافلين، عقلُ الأوغاد واللصوص والمجرمين، مخُّ الأنذال والحقيرين والمنافقين!

سمع الأمن صوت الطلقة النارية من مكتب الزعيم، فانطلقت صفارة الإنذار، وانتشر معها الحراس في كل مكان، مغلقين كل منفذ من وإلى الفندق، بينما اتجهت مجموعة أخرى بسرعة إلى الرواق بهدف اقتحام المكتب؛ قام عبد الجليل بالاختباء خلف الباب بانتظار دخولهم، لحظات قليلة، حتى تم ركل الباب بقوة، أين دخل الحارس الأول الذي باغته عبد الجليل برصاصة مفاجئة أردته قتيلا، ثبّت مسدسه بسرعة على رجله، بينما قام بحمل رشاش الـ «M16»والذخيرة الخاصة بالحارس، وبدأ في تبادل إطلاق النيران مع البقية، كان خصومه بمثابة المستوى الأول بالنسبة إليه، فهم لم يتلقوا تدريبا مثل الذي تلقّاه، ولا خاضوا معاركا كتلك التي خاضها، والنتيجة كانت أن تساقطوا الواحد تلو الآخر أمام إصاباته الدقيقة، ومناوراته السريعة التي جعلت أحدهم يصرخ بجزع وهو يرسم علامة الصليب على

جسده: «تبا إنه شيطان! انجوا بحياتكم منه!».

تراجع بقية الأفراد واحتموا خلف السلالم، أمسك عبد الجليل قنبلة يدوية ونزع مسمار الأمان الخاص بها ثم ابتسم قائلا: «قبّليهم يا صغيرتي!»، قام بإلقائها ككرة بولينغ فتدحرجت في وسط الرواق بسرعة ثم سقطت على السلالم مستقرة بين أرجلهم، صرخ أحد الرجال: «قنبلة يدو...»، لم يكمل صراخه حتى انفجرت هذه الأخيرة آخذة أرواحهم إلى عالم آخر لا ينتمي إليه من يحسنون فن القتال!

كان الخروج من البناية إلى ساحة المنظمة هو المرحلة الأصعب لمغادرة وكر الأوغاد، وهذا لأن عبد الجليل كان يدرك جيدا أن القناصين يتربصون به على سطح السور الكبير الذي كان يحيط بالساحة الرئيسية، قناصون متدربون جيدا، أعينهم مثبتة على جهاز التسديد، وأصابعهم تحنو على الزناد بلطف مغاير لشخصيتهم، إن أطلقوا النار، فهم لن يخطئوا هدفهم أبدا!

قام بنزع ملابسه بسرعة وارتدى بذلة الحراس، ثم أمسك بندقيتين، وبدأ في إطلاق النار في وقت واحد، ليجعل الجميع في الخارج يظنون أن الاشتباك لازال قائما؛ وعند وصوله إلى مدخل المبنى، قام برمي بندقية واحدة، وبدأ يطلق النار من الأخرى نحو البنيان، وهو يتراجع تدريجيا

نحو الخلف باتجاه الساحة الرئيسية، وفي نفس الوقت يصرخ بانفعال في الجهاز اللاسلكي: «المشتبه به خلف باب المبنى، لقد تلقى إصابة بليغة وهو يتراجع للاحتماء داخل المكتب ١٥، أحتاج إلى الدعم الآن! أحتاج إلى الدعم الآن!».

انطلق الحراس الباقون الذين كلفوا بحماية الباب الخارجي بسرعة نحو الباب الرئيسي للمبنى، بينما ركز بقية القناصين أجهزة تسديدهم نحو نافذة المكتب، أما عبد الجليل، فقد خرج بلمح البصر من الباب نحو الطريق الذي كان خاليا تماما من السيارات إلا من سيارة واحدة ذات زجاج معتم، تقدم نحوها وأشهر سلاحه قائلا: «الأمن الداخلي! أخرج من السيارة حالا!»، نزل زجاج السيارة ببطء وابتسمت نزهة الأحلام قائلة: «الأمن الخارجي! اصعد إلى السيارة فورا!».

صعد بسرعة إلى جانبها، بينما انطلقت بسرعة هائلة مغيرة اتجاه سيرها في كل مرة لكي تظلل أي سيارة من المحتمل أن تتعقبهما، نظر عبد الجليل بدهشة إلى هذه الفتاة التي بدت وكأن الله قد قدّر له أن يلتقيها في كل مكان: في الفندق، في الحانة، في المقهى، وحتى في المنظمة أثناء تنفيذه لعملية اغتيال، كان غارقا في أفكاره المشتتة حتى بادرته نزهة الأحلام قائلة:

ـ «حسنا، حسنا، أنا أعلم ما يدور بخلدك الآن، أنت تريد أن تسألني عن كيفية تواجدي في الوقت المناسب والمكان المناسب وسأخبرك عن ذلك حينا فلا تقلق، حسنا، هنالك ثلاثة احتمالات: الأول، أن أكون قد سقطت من السماء على ارتفاع مائة كيلومتر، هذا يعني أنني قطعت طبقات الميزوسفير والستراتوسفير والتروبوسفير، ثم فتحت المظلة، ونزلت على الطريق العام، واختبأت داخل السيارة، لكنني لا أرجّح هذا الاحتمال لأن القناصين كانوا ليشاهدوني وأنا أحلّق في السماء، وهذا كان ليفسد خطتي تماما!

الاحتمال الثاني هو أنني كنت في المطبخ، أقوم بعملي المعتاد كغسّالة للصحون، وفجأة بدأت السماء تمطر بغزارة، ثم تكوّنت فيضانات وازدادت حدتها، إلى أن جرفتني خارج المنزل وأدخلتني داخل السيارة، ثم جرفت كلينا إلى غاية الوصول إلى حافة الطريق؛ لكنني لا أحبذ هذا الاحتمال أيضا، لأن السيارة جافة، وشعري كذلك، وهذا ما يقودنا حتما إلى الاحتمال الثالث!

أجل، كل ما في الأمر أنني كنت أبحث عنك، لم أجدك في المنزل ولا في الحانة، فأتيت إلى مكان عملك، وحين سمعت صوت الرصاص أدركت أنك في ورطة، لأنني كنت أدرك أنك ستفعل شيئا خطيرا حينما أخبرتك بالحقيقة، لقد كنت

أفكر في كيفية التدخل إلى أن رأيتك تخرج من الباب، وقد عرفتك حالا نتيجة مشيتك المميزة وطريقة حملك للسلاح، أنا أتذكر حادثة الفندق جيدا، كما أنني امرأة، ودقة ملاحظتي أعلى منكم أيها الرجال الأغبياء!».

كان عبد الجليل يستمع إلى هذه الفتاة المجنونة بدهشة، وحين قررت السكوت أخيرا أجابها قائلا:

ـ «على كل حال، أنا أشكرك كثيرا على مساعدتي، أقلّيني إلى المنزل من فضلك».

ـ «إلى المنزل؟! هل أنت مجنون؟! أنا لا أعلم تحديدا ما فعلته في الداخل، لكن طريقة خروجك تدل على أن جميع قوات الأمن تنتظرك هناك لتضع حدا لحياتك!».

ـ «أنت محقة، خذيني إلى أي مكان إذا، علي أن أرحل».

ـ «إن كنت تود الرحيل فأنت تحتاج إلى هوية مزورة، وبيت بعيد عن الشبهات تقيم فيه إلى حين إتمام إجراءات السفر، أنا أستطيع توفير ذلك لك، ما هي خطتك القادمة؟».

ـ «سأذهب إلى الجزائر، سأقيم مع أمي وأبي وعائلتي، سأتزوج وأكوّن عائلة وأعيش في سعادة وهناء بعيدا عن كل

هـذا الصخـب!».

ـ «هـل صدّقـت نفسـك حـين قلـت هاتـه الكلـمات؟ هـل تظـن حقـا أنـك تسـتطيع العيـش في سـعادة وهنـاء مثـل باقـي البـشر؟ كلا، أنـت لا تقـدر عـلى ذلـك يـا صديقـي، وهـذا لسـببين: أولهـما، أن في دمـك مـادة سـامة تجعلـك مدمنـا عـلى الحـرب، وإن حاولـت مقاومتهـا فسـينتهي بـك الأمـر إمـا ميتـا بجلطـة دماغيـة، أو مسـجونا بتهمـة قتـل مواطـن لأنـه نظـر نحـوك مـن دون قصـد؛ أمـا السـبب الثـاني فهـو الـذي أعرفـه جيـدا، وتعرفـه أنـت كذلـك لكنـك لا تريـد الإفصـاح عنـه؛ فكـر جيـدا، لمـا أتيـت إلى المكسـيك؟ هـاه؟ لا تعلـم؟ هـذا لأن أمثالـك لا يسـتطيعون عيـش حيـاة طبيعيـة، أنـت تمتلـك روحـا صاخبـة يـا عبـد الجليـل، نفسـا تعشـق رائحـة البـارود والدمـاء، وجدانـا مغامـرا يـأسره الخـوف والخطـر، روحـا آثمـة لا تسـتطيع الـزواج وإنشـاء عائلـة كـما يفعـل معظـم النـاس!».

سـكت عبـد الجليـل ولم يتفـوه بكلمـة، فهـو قـد كان يـدرك أتـم الإدراك أن مـا قالتـه نزهـة الأحـلام صحيـح، فالمكسـيكي يبقـى مكسـيكيا طـوال حياتـه، وحتـى لـو أنـه قـرر مغـادرة المكسـيك يومـا مـا، فإنه سـيجد نفسـه قـد غادرهـا بجسـده فقط، أمـا روحـه، فسـتبقى هائمـة في الذكريـات، ومـا أسـوء ذكريـات المقاتلـين ومـا أبشـعها، سـيراك أهلـك تكلـم نفسـك فيظنونـك

مجنونـا، لكنـك لـن تلاحـظ ذلـك، بـل ستسـتمر في تذكـر مواقف سـيئة قـد حصلـت لـك، وتتخيـل نفسـك تـرد عـلى كلام قيـل لـك واسـتفزّك بـكلام آخـر غـير الـذي قلتـه، وبـرد آخـر أحسـن مـن الـذي قمـت بـرده، تبـدأ بالـكلام دون انتبـاه مسـتخدما كلتـا يديـك وتعابـير وجهـك أيضـا في ذلـك، وسرعـان مـا يصيبـك القلـق، فتبـدأ بشـتم رئيـس عملـك، وتريـد أن تلكمـه في وجهـه، وقـد تلكـم الهـواء حقـا، وحينهـا فقـط تنتبـه إلى نفسـك، فترجـع إلى حالتـك الطبيعيـة، وتحملـق يمينـا وشـمالا حتـى تَطمئـنّ ألا أحـد قـد رآك تفعـل ذلـك، بينـما لا يبـدي لـك الحـاضرون شـيئا حتـى لا يجرحـوا شـعورك، وجميعهـم يتأسـفون ويدعـون لـك بالشـفاء.

سـتنطفئ حينـما تغـادر المكسـيك، سـيفتقد أهلـك ذلـك الشـاب الحيـوي الـذي كان يلقـي النـكات، ويزعـج هـذا ويتهكم عـلى ذاك، لـن يجـدوا أمامهـم سـوى جثـة شـخص التهمتـه العقد النفسـية، رجـل لـن يقـدم المزيـد لهـذه الحيـاة، لأنـه قـد قـدم كل مـا يملكـه في تلـك البـلاد البعيـدة.

سـيزورك جميـع مـن قتلتهـم ليـلا، وسـينامون معـك عـلى سريـر واحـد، سـيصرخون فيـك بـكل قـوة: مـا ذنبـي؟! لمـا قتلتنـي؟! سـتصبح شـخصا قاسـيا، لـن تبتسـم مجـددا، وقـد تلجـأ إلى أي شيء مـن شـأنه أن ينسـيك السـنوات التـي أمضيتهـا

في تيخوانا، أين كان عليك أن تتغير حتى تعيش في مجتمعهم، لكنك حين تتغير يا صديقي، فمن المستحيل أن ترجع إلى سابق عهدك مهما حاولت!

المكسيك مثل المافيا تماما، إن انضممت إليها فلن تخرج منها إلا داخل تابوت محكم الإغلاق، وادع الله ليلا نهارا ـ يا أخي ـ أن يكون التابوت الذي تخرج فيه تابوتا حقيقيا، لأنك لو خرجت في نعش روحي، فستقضي بقية أيامك تتعذب وتذبل في صمت!

ستتمنى الموت، لكنه لن يأتِ إليك، المكسيك ستضمن لك العذاب لبقية أيام حياتك، أن تقتلك العقد النفسية، أن يصبح الانعزال عن البشر عملك اليومي، أن يصبح اليوم الجديد بالنسبة لك عقابا آخر على ما اقترفته من آثام؛ ستدعو الله كل ليلة أن يأخذ روحك، لكنك لا تعلم أن الأرواح المتألمة لا تموت، الأنفس المعذبة تبقى معلقة بين الأرض والسماء إلى الأبد!

لقد كان عبد الجليل يدرك كل هذا، لذلك فقد عقد العزم على أن يبقى بصحبة نزهة الأحلام، لقد قرر أن يشارك في أي معركة وأي حرب إلى أن يموت ميتة مشرفة مثل صديقه سيف، لقد توقف عن الحزن على صديقه منذ وفاته، بل إنه قد صار يحسده كثيرا على تلك النهاية

المشرفة، وأصبح يتمنى خاتمة مماثلة، توقف هذا الألم الفظيع الذي ينخر فؤاده.

توقفت السيارة أمام باب العمارة، نزلت نزهة الأحلام وعبد الجليل وصعدا إلى الشقة أين اجتمعا بأمال و إدواردو، جلس الجميع على طاولة مستديرة في قاعة الاستقبال وبدأوا في الإعداد لخطة مثالية للإطاحة بالعصابة وإيقاف الحرب الغاشمة، ولكي أكون أكثر تدقيقا، فسأتراجع عن لفظة «الجميع»، لأن إدواردو قد كان منشغلا بشيء آخر، لقد كان يراقب السعادة البالغة التي تبدو على عيون نزهة الأحلام حينما يتحدث عبد الجليل، وذلك الارتباك اللطيف الذي يتجلى على محياها حينما تحادثه، وحينها أحس بالخطر الشديد، وأدرك أن هذا الوغد ما هو إلا تهديد عظيم على علاقته بحبيبته، وأنه قد يسرقها منه في أي وقت، وفي أي لحظة مناسبة، لذلك فقد بدأ يعد الخطط للتخلص منه، وإبعاده عن نصفه الثاني؛ وهكذا هي العلاقات الغرامية، فكلما ظننا أننا قد وجدنا الشخص المناسب لنا، وكلما بدأت السعادة ترفرف علينا، وكلما ابتسم القدر لنا، أتى طرف ثالث لعين وسرقه منا، تاركا إيانا وحيدين جريحين، كما اعتدنا دائما أن نكون!

(٥)

كان فيليب في خيمة القيادة، يسب ويلعن هذا الحظ العاثر، ويشعر بالخجل والعار على الهزيمة النكراء التي نالتها فصيلته وكتيبته ككل أمام العدو، وما زاد من اكتئابه هو هروب العديد من أفراده، وخيانة البعض، وانتحار البعض الآخر، لقد اكتشف في تجربته الأولى في الحرب معدن الإنسان الحقيقي الذي لا يظهر إلا في وقت الأزمات، فكلّنا مقاتلون إلى أن تنطلق الرصاصة الأولى فنتفرق إلى مجموعات تحكمها غريزة البقاء، وتنتصر عليها فوق كل مبدأ أو شرف أو قسم، وجميعنا شجعان إلى أن نرى الموت أمام أعيننا، الحتف الذي يمتلك من القوة ما يجعل كل شخص فينا يرجع إلى طينته الحقيقية، ويتوقف عن الكذب والتمثيل.

دخل الكولونيل إلى الخيمة، جلس على كرسي خشبي، أشعل سيجارة وبادر بالحديث قائلا:

ـ «الملازم فيليب، لقد كان أداؤك في المعركة سيئا جدا، لقد كانت فصيلتك هي الثغرة التي استخدمها العدو لاقتحام حدنا الأمامي، لو كانت الظروف مغايرة لأحلتك على المحاكمة العسكرية، لكن يبدو أننا نحتاجك في مهمة أخرى، فلازالت المعارك مستمرة».

ـ «أنا آسف يا سيدي، لكن خسارتنا كانت نتيجة لتفوق عدونا علينا عدة وعتادا، أنا لم أتهاون أبدا في تأدية مهامي، بل...».

ـ «لا تناقش يا هذا! هذه ليست مباراة كرة قدم حتى تخدع مناصريك بقصص حول لزوجة أرضية الملعب أو تغير مفاجئ في حالة الطقس، أنت في حرب، والانتصار أو الهزيمة هما فقط من يحددان النتيجة!».

ـ «مفهوم يا سيدي!».

ـ «قم بجمع الرجال مجددا، نحن لا نعلم نوايا العدو، لكننا سنعرف ذلك بفضلك، أريدك أن تختار خمسة رجال أذكياء، أشداء ومقاتلين، وتتقدم نحو الخصم ببطء دون أن يراك أحد، أريد معلومات دقيقة حول تجهيزات الغريم ونواياه، استخدم الجهاز اللاسلكي في وضع التشفير، وإن وقعت أسيرا، فقم بتدميره قبل أن يقع بين أيديهم».

ـ «حاضر سيدي!».

خرج فيليب من الخيمة وهو يدرك تماما نوع المهمة التي أرسله إليها الكولونيل، باختصار شديد، لقد أرسله نحو الموت مباشرة، فقد كان يريد التخلص منه على ما يبدو، لأن الاقتراب من العدو حاليا وهو في أوج قوته يعتبر انتحارا لا محالة، لكن الأوامر تبقى أوامرا، لذلك فقد جهز أفضل رجاله، وقام بإخفاء مسدسه ومخازن ذخيرته تحت ثيابه، ثم قام بأخذ رصاصة من أحد المخازن وخبأها في جيب سترته، حتى إذا ما وقع في شراك الأعداء وانتهت ذخيرته، استعملها ليضع حدا لحياته، لأنه يدرك كما يدرك جميع المقاتلين أن الانتحار أسهل بكثير من الوقوع أسرا بين أيدي العدو.

قام بإخراج هاتفه من حقيبة ظهره، وضع الشريحة، ثم قام بتشغيله، بدأت رسائل إيزابيلا تتهاطل الواحدة تلو الأخرى: «أين أنت يا حبيبي؟»، «اشتقت إليك كثيرا!»، «لقد قالوا في نشرة الأخبار أن الأمطار ستتساقط بغزارة في بيتين، غط نفسك جيدا»، «كنت أعيش باتصالاتك ورسائلك، لا أدري كيف سأعيش من دونهم»، «أنا معك، الرب معك، أحبك!».

كان يقرأ رسائل زوجته وهو يبتسم ببلاهة، والابتسامة البلهاء هي ابتسامة الحب الصادق، لم يتمكن من مواصلة

قـراءة الرسـائل لشـوقه المتقـد إليهـا، اتصـل بهـا في الحـين، وبعـد ثـوان مـن الرنـين أجابـت:

ـ «ألــو؟ حبيبــي فيليــب! لا أكاد أصــدق هــذا! كيــف حالــك؟».

ـ «صبـاح الخـير يـا أجمـل امـرأة في غواتيـمالا! اشـتقت إليـك كثـيرا! أنـا... أنـا بخـير، كل مـا ينقصنـي هـو زوجتـي العزيـزة، تبـا! متـى تنتهـي هـذه الحـرب حتـى أراك مجـددا!».

ـ «لا بـأس يـا بطـلي، أنـا في بيتنـا، أنتظـرك بشـوق متقـد، يكفينـي فخـرا أن زوجـي في الحـدود يدافـع عنـي، وعـن جيراننـا، وعــن قريتنــا، وعــن مدننــا، وعــن بلادنــا الحبيبــة؛ أتــدري يـا فيليـب؟ أنـا لا أتوقـف عـن التفاخـر بـك أمـام جاراتنـا، ولا أتـرك أي فرصـة تمـر دون أن أخبرهـن أن أسَـدي هـو مـن يحميهــن، ويحمــي أزواجهــن أيضــا! آه يــا عزيــزي كــم أنــا مشــتاقة إليــك!».

ـ «أتتذكريـن صورتـك التـي طلبتهـا منـك في أيامنـا الأولى، وأخبرتـك مازحـا أننـي سأسـتعملها لغـرض عمـل طقـوس سـحرية لـك حتـى تقعـي في حبـي؟ في الواقـع، هـي لا تغـادر جيـب بذلتـي، وإني لأشـاهدها ألـف مـرة في اليـوم، خاصـة حينـما تشـتد عـلي المصائـب، أو أشـعر بـأن الخطـر يدنـو منـي، أقـوم

بحملها والتحديق فيها، وكأنها أيقونة مقدسة، أستجديها كمريم العذراء فتجيبني، وتحميني، وتبث في قلبي الشجاعة من جديد، حتى أقاتل وأحيا من أجل هذا الملاك المتخفي في هيئة إنسانة رائعة!».

ـ «آه حقا! لقد أسعدتني كثيرا يا حبيبي، إنني المرأة الأكثر حظا في العالم، الزوجة التي نالت أحسن رجل في الدنيا، ليحفظك الرب لي أبد الدهر، أنا أحبك!».

قام فيليب بتوديعها، بينما انحدرت دموع ساخنة من مآقيه حزنا على هذه المرأة المثالية، لقد فعل كل ما يفعله المقاتلون مع أهلهم وذويهم، طمأنتهم بأن كل شيء يسير على ما يرام، فهو لم يخبرها بأنه ذاهب نحو الموت مباشرة، وأنه قد لا يعود أبدا؛ تبا! ما أسوء أن تترك امرأة تنتظرك وأنت تحس داخلك أن انتظارها سيدوم إلى الأبد، أنها ستترقّب وصولك إلى أن يُدق الباب فتهرع مسرعة لفتحه والفرحة تملؤها، وبدل أن تجد حبيب قلبها، تتفاجأ برجل عابس، يرتدي بذلة عسكرية، ينظر نحوها بتجهّم ويقدّم لها تعازيه الحارة لأن زوجها قد مات من أجل الواجب! لقد أدّى حقا واجبه نحو وطنه، لكن ماذا عن واجبه نحو زوجته؟ أليس من التزاماته أن يعود إليها؟ أن يحتضنها ويحتويها؟ أن يعتني بها؟ أين هي الوعود والعهود؟ هل تستحق امرأة مثل

إيزابيلا أن تترمل؟ هل هذا أمر عادل؟!

قام بقطع الاتصال، نادى رجاله واستهل كلامه قائلا:

«لست خطيبا سياسيا حتى ألقي على مسامعكم خطابا كاذبا كلكم تدركون ماهيته، ولست أستاذ تنمية بشرية حتى أحدثكم عن النجاح، والقوة، والعزيمة، وتحقيق الأهداف، وكل تلك الألفاظ المنمَّقة التي لا تحفز سوى الأغبياء، ولست رجل دين حتى أتكلم باسم الرب وأضمن لكم الجنة لكي أجعلكم تحاربون بقناعة، وأهددكم بالنار إن أنتم أدبرتم؛ أنا ملازم أول في سلاح القوات الخاصة، وإني أعلمكم أنكم ذاهبون نحو الموت مباشرة؛ كما أنكم قد تعيشون بعد هذه المهمة حياة عادية، أو قد تحيون بإعاقة مستديمة، لكنكم في أغلب الأحوال ستلقون حتفكم؛ لا أضمن لكم شيئا بعد موتكم، فكم من جبان سمي بعد الحرب بطلا، وعلقت له الأوسمة والنياشين، وذُكر في التاريخ أبدا، وكم من بطل رُدم داخل أقرب حفرة، وتم نكران جميله، ومسحه التاريخ من ذاكرته كما يمسح العرق من الجبين؛ أنتم الآن أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن تذهبوا معي طوعا، وتلاقوا الموت بصدر رحب، إلى أن تلقوا حتفكم مطمئنين راضين عن أنفسكم؛ وإما أن تحجموا، فتموتوا جبناء رميا بالرصاص؛ نحن مغاوير القوات الخاصة وهذه هي حياتنا، نحن آلات

موت بشرية، نَقتُل ونُقتَل، نزرع الرعب أينما حللنا، ونعيش الذعر في المقابل إلى أن نلقى حتفنا، شرفنا هو موتنا في ساحة المعركة، عارنا هو وفاتنا وفاة طبيعية؛ إن أتى الموت فمرحبا به، لكننا لن نتركه يأخذ أرواحنا إلا بعد أن نقاتله بشراسة، حتى نستنفذ كل قوتنا، وكامل طاقتنا، كي نكون كابوس عدونا الوحيد، كي ننفذ المهمة التي أُرسلنا من أجلها!

علينا بالتقدم نحو العدو الغاشم واستطلاع حده الأمامي، ثم معرفة عدته وتعداده ونواياه، ونقلها بالتفصيل إلى مركز القيادة، بعد ذلك نقوم بالتمركز في مكان منعزل، وننتظر الأوامر لتنفيذ المهمة اللاحقة.

إن أردتم مشورة مني، فإني أنصحكم بالاتصال بزوجاتكم، وحبيباتكم، وعائلاتكم، اطلبوا منهم الصفح والمغفرة، ثم هلموا إلى الحرب، سأترك لكم بعض الوقت لكتابة وصية أخيرة ثم بعد ذلك سننطلق إلى المنية ننشدها!».

بدأ فيليب في كتابة وصيته، حمل ورقة وقلما وخط ما يلي:

«أبي وأمي العزيزان،

إن أكثر ما يؤلمني هو درايتي التامة بأن موت الآباء أهون من وفاة الأبناء، وإن هلاك فلذة الكبد يترك جرحا

أبديا في قلب الوالدين... جرحا لا يبرى!

إن كنتما تقرآن هذه الرسالة، فاعلما أن شريط حياتي قد انتهى، وأن الرب قد كتب لي رحلة أقصر من رحلتكما، وعذابا أهون من عذابكما.

أبي... أمي... لقد لقيت حتفي بشجاعة أثناء تأديتي لمهمة كان الغرض منها حماية الوطن من هذه الحرب الغاشمة، وإن كل ما أتمناه هو أن ينتهي هذا الصراع بعد موتي قبل أن يصل إليكما، فرغم علمي أن الموت رحمة، إلا أنني لا أريد أن تموتا في حرب وأنتما مدنيان أعزلان، أيديكما لم تتلوث بالدماء.

لقد فاضت روحي بشرف، وبعد شجاعة وبأس عظيمين أبديتهما أمام العدو، لذلك فأنا أريد منكما أن تفخرا بي، أريد أن تعرفا أنني قد أسلمت روحي وأنا فخور بنفسي، لقيت حتفي وأنا أبتسم!

لا تبكيا علي كثيرا فهذا يرهق روحي كثيرا، أريد أن أراكما سعيدين، فحققا لي هذه الرغبة من فضلكما، أنا أراكما الآن من فوق السحاب، وإن ابتسامتكما تأخذني إلى الجنة، ودموعكما تجرني نحو الجحيم، ألا فرفقا بي!

أريد منكما أن تعتنيا بإيزابيلا، أنا أعلم أن خبر وفاتي

سينزل عليها كالصاعقة، وهي المرأة التي اعتنت بابنكما مثل عنايتكما بي تماما، هي تستحق أن يعتنى بها أيضا؛ وبما أنني لا أستطيع فعل ذلك من السماء، فإنني أرجو كما أن تفعلا ذلك نيابة عني لتكريم ذكراي!

إيزابيلا تحب الجبن كثيرا، أريد منك يا أبي أن تملأ ثلاجة البيت بمختلف أنواع الأجبان، أما أنتِ يا أمي، فأبتغي منك أن تهبي لها جميع كتبك، فزوجتي دودة كتب، وأنا أسألك اليوم أن تطعمي دودتي الجميلة!

إن عاشت إيزابيلا سعيدة من بعدي، فسأحيا منبسط الأسارير في العالم الآخر، أما إن أصابها الحزن أو لم يعتنَ بها كما يجب، فستتخبط روحي داخل هذا العالم القاسي، وستبقى عالقة بين الأرض والسماء إلى الأبد!

أبي وأمي العزيزان،

أنا آسف على كل شيء، لقد آذيتكما كثيرا، وأنا أدرك تماما ما فعلته في حقكما؛ لم أكن أبدا الابن الذي تمنيتما أن تحظيا به، لقد قدمتما لي كل شيء، لكنني لم أكن سوى خيبة أمل بالنسبة لكما؛ لقد كنت مجرد ابن عاق، وإني أترجاكما أن تغفرا لي كل ما فعلته لكما.

لم أكن سوى عبئا عليكما، لم أحقق أحلامكما ولا

تطلعاتكما، بالعكس، لم أجلب لكما سوى المشاكل والمآسي، ورغما عن ذلك، استمريتما بمسامحتي والمغفرة لي، لقد كانت علاقتي معكما كعلاقة العبد بربه، الأول يعصيه والثاني يصفح عنه، لذلك فأنا أدعوكما مجددا للعفو عني لأنني صعدت إلى السماء قبلكما!

أبي... أمي... أحبكما!

فيليب».

أكمل فيليب رسالته الأولى، أخرج ورقة أخرى وشرع في الكتابة:

«عزيزتي إيزابيلا،

أتذكرين يوم وعدتني بأنك ستفعلين أي شيء أطلبه منك فقط لكي ترينني سعيدا أبد الدهر؟ حسنا، أرغب منك اليوم أن تفي بوعدك، لقد توفيت أثناء تأدية الواجب، وإنني أريدك أن تبتسمي ولا تذرفي دمعة واحدة حتى أبقى مبتهجا! افعلي ذلك من أجلي أرجوك!

حينما كلمتك في المرة الماضية، تعمدت ألا أعدك بأنني سأعود إليك، لأنني كنت أدرك أنني لن أفعل، أنا لا أريد أن أعد زهرتي بأمر ولا أفي به، كنت أريد فقط سماع صوتك

للمرة الأخيرة، صوتك الذي يُسري في جسدي تيّارا كهربائيا كلما سمعته!

أنا أحبك يا إيزابيلا، أحببتك حينما كنا أصدقاء، وبعد أن دخلنا في علاقة، وفي مرحلة خطوبتنا، وبعد زواجنا، وأنا أحبك اليوم أيضا في الحياة الأخرى!

هل فهمت الآن سبب حزني الدائم؟ إنه تفكيري المستمر في فراقك المحتوم، كنت أدرك أنني سأموت في الحرب، لو كنت أعزبا، لكان الحماس هو إحساسي الوحيد، أما وجودك إلى جانبي، فهو يجعل ضميري يتألم من أجل هذه الفتاة الوديعة!

حينما يصل جثماني إليك، أريدك أن تبتسمي، أن تنثري الورود على قبري، أن ترُشّي عطرك على كفني؛ سأراك يا إيزابيلا، عيوني تراقبك الآن وأنت تقرئين هذه الرسالة، أريد أن أراك سعيدة كي تكتمل فرحتي، وأي بهجة قد أنالها في العالم الآخر إن لم يكن سببها ابتسامة آسرة منك؟

إن أردت أن تكرمي ذكراي يا عزيزتي فلا تتزوجي من بعدي، ولا تكلمي أي رجل، فإني أقسم أنني أغار عليك وأنا ميت أكثر مما كنت أفعل وأنا حي؛ أنا أعلم أنك ستفعلين ذلك لا محالة، لكنني لم أستطع كبح نفسي من قول

هـذا لـك!

سـيأتي أبي بعـد قليـل لأخـذك إلى المنـزل، أريـدك أن تعيـشي مـع والـدي ووالـدتي، أريـدك أن تكـوني ابنتهـما بعـد أن فشـلت في مواصلـة كـوني ابنـا لهـما، لقـد خذلتهـما كثـيرا يـا إيزابيـلا، ليتـك تعوضـين مـا فعلتـه بهـما مـن أجـلي!

بالنسـبة للجبـن فـلا تخـافي، لقـد حرصـت عـلى أن أخـبر أبي كـي يوفـر لـك مختلـف أنواعـه في المنـزل، وستسـتعملين المطبـخ لإعـداد مـا تريدينـه مـن أطبـاق مختلفـة، أمـا بالنسـبة للكتـب، فسـتهبك أمـي مكتبتهـا بالكامـل، إيـاكِ أن تثنـي الأوراق أو تقطعـي إحـدى صفحـات كتبهـا، قـد تلتهمـك حيـة إن أنـتِ فعلـتِ ذلـك!

آسـف لكـوني قـد بللـت الرسـالة بدموعـي، لم أسـتطع كبحهـا وأنـا أفكـر في أننـي سـأجرحك بمـوتي الغـادر هـذا، سـأجرح المـرأة التـي لم تـؤذني ولا مـرة واحـدة في حياتهـا!

أنا أحبك يا إيزابيلا، اعتنِ بنفسك من أجلي!

فيليب».

بعدمـا انتهـى مـن الكتابـة، قـام بطـي الرسـالتين، ووضـع كلا منهـما في ظـرف منفصـل بعنوانـين مختلفـين، وخبأهمـا في حقيبة

ظهـره، وانتظـر حتـى انتهـى جميـع رجالـه مـن كتابـة رسـائلهم وتوضيبهـا؛ ثـم التفـت نحوهـم وصرخ قائـلا: «جاهـزون؟».

أجاب الجميع بصوت واحد: «نعم يا سيدي!».

تقـدم فيليـب إلى الأمـام شـاهرا سـلاحه: «إلى الأمـام إذا! إلى سـاحة الوغـى!».

(٦)

دخل الجنرال لويس كعادته إلى الفندق الذي اتخذه مركزا قياديا بعيدا عن الشبهات، ليدير فيه عن بعد المعارك اليومية في غواتيمالا، تلك المعارك التي أصبحت حديث العام والخاص، حيث خرج الآلاف من المكسيكيين في مظاهرة منددة بهذه الحرب الغاشمة التي تهدد أمن وسلامة بلادهم، وتعرض جنودهم إلى الموت الزؤام. وهذا ما كان يحدث فعلا، فقد كانت الطائرة ترسو يوميا في مطار «مكسيكو سيتي» محملة بتوابيت عديدة لجنود لقوا حتفهم في هذه الحرب المفاجئة، كانت الأمهات تسقطن مغشيا عليهن كلما دق باب بيتهن شخص لينعيهن أبناءهن الذين ماتوا بشرف في ساحة القتال؛ كانت سماء المكسيك حزينة، توقفت العصافير عن التغريد، تلبدت السماء بالغيوم وأمطرت بطريقة مخيفة، وكأنها تبكي هؤلاء الأطفال الكبار الذين ماتوا في ريعان شبابهم دون أن يتمتعوا بملاذ الحياة،

تلك الملاذ التي لا يتمتع بها سوى الظالمون، بينما لا يلق أصحاب القلوب النقية سوى الويلات والألم.

لكن لويس كان سعيدا، ولما يهتم بموت الجنود؟ فابنه يدرس في «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا» بالولايات المتحدة الأمريكية، أما أبناء شعبه فهم يموتون في تلك الحرب كالذباب، ولا بأس بذلك ما دام ابنه بعيدا عن الأذى!

لذلك فقد دخل إلى الفندق وكله حماس لبداية يوم آخر من القتل والتقتيل، تمشى في الرواق مختالا في بذلته العسكرية المليئة بالأوسمة والنياشين التي وهبت له، رغم أن رجله لم تطأ يوما أرض المعركة، ولج إلى المصعد، وبينما هم بالضغط على زر الطابق الخامس، سمع صوتا مفاجئا يناديه من الخارج: «سيدي، سيدي، توقف أرجوك! أريد أن أصعد أيضا!».

اعتبر لويس هذا النداء وقاحة، التفت ليرى صاحبة الصوت، فوجدها عاملة نظافة شديدة الجمال، ذات شعر أصفر قصير، وجسد مغرٍ يكسوه لباس بعيد كل البعد عن الاحتشام، ابتسمت مجددا وأغمضت عينيها بغنج كاشفة عن أسنانها الناصعة البياض: «أرجوك!»، وفي هذه اللحظات القصيرة لم يصبح نداؤها وقاحة أبدا! من تكلم عن الوقاحة؟! بالعكس! إنه طلب بسيط محترم من امرأة

محترمة ذات ذوق رفيع! كما أنه سيد نبيل، وعليه أن يحترم هذه السيدة الراقية! أشار إليها بيده قائلا: «تفضلي يا سيدة، أنا في خدمتك!».

دخلت عاملة النظافة حاملة في يدها أداة صغيرة لنفض الغبار ودلوا أحمر مملوءا بالمياه، بدأ المصعد في الارتفاع إلى الأعلى، وأدرك الجنرال أن لديه بضع ثوانٍ لتجربة حظه مع هذه الفاتنة؛ استدار نحوها، وابتسم فاتحا مجالا للحديث: «أداة نفض الغبار خاصتك صغيرة جدا، لا أظنها كافية لنفض الغبار عن كامل غرف الفندق!»، نظرت العاملة نحوه، غمزت له بعينها وابتسمت بخبث قائلة: «أنت محق، ربما يمكن استعمالها من أجل أمر آخر عدا نفض الغبار!».

ارتجف لويس بشدة، وهو الأمر المعتاد الذي يحدث لأي رجل حينما يخطط لمغازلة فتاة ما، لكنه يتفاجأ بأنها أسهل مما كان يتصور، اضطرب قائلا: «حقا! كم هو محظوظ من يستطيع معرفة استخداماتها الأخرى!»، أجابته بدلع: «حسنا، أنا ذاهبة الآن إلى الغرفة ست وعشرون ومائة لتنظيفها، إنها شاغرة، يمكنك معرفة استخدامها الثاني باللحاق بي إن لم تكن مشغولا!».

توقف المصعد، خرجت عاملة النظافة بهدوء، بينما تسمّر الجنرال في مكانه، وأخذ يشاهد مشيتها المتغنجة يمينا

وشمالا وهو بالكاد يزدرد ريقه، كان قلبه يخفق بشدة، والدماء تتزاحم داخل جسده، بينما اختلط شهيقه بزفيره إلى أن كاد يختنق؛ قام بفتح عقدة عنقه، واتجه مباشرة نحو الغرفة المنشودة تقوده غريزته الذكرية، وهو يشكر الحظ الرائع الذي ابتسم له في هذا اليوم، ليهب له قطعة أنثوية طازجة مجانية!

انتظرها إلى أن دخلت الغرفة، نظر يمينا وشمالا لكي يتأكد أن الرواق خال من الناس، قام بفتح الباب ودخل ببطء ثم أغلقه بهدوء، استدار ليرى عاملة النظافة مستلقية على الفراش بطريقة مثيرة، همست له قائلة: تعال أيها القوي، أريد أن أعلمك بعض الدروس! تقدم نحوها قائلا بلهفة: «أجل، علميـ...»، لم يكمل لويس كلمته، حتى أحس بضربة قوية خلف رأسه، أصبح كل شيء مظلما فجأة، وسقط أرضا في نفس اللحظة.

***

قام عبد الجليل بمعاينة الجنرال مليا ثم قال: «الحمد لله، إنه حي، تبا! كدت أن أقتله، لم أقصد أن أضربه بتلك القوة»، أجابته نزهة الأحلام: «ربما أصابتك الغيرة!».

ـ «الغيرة! ومما أغار؟».

ـ «منه، حينما رأيتني أغازله!».

ـ «هـل جننـت! أنـت تشـبهين فتيـات الشـارع بهـذا الشـعر المسـتعار واللبـاس الغـير محتشـم!».

ـ «أعلـم ذلـك، وأدرك أيضـا أنكـم ـ معـشر الرجـال ـ تحبـون الشـعر المسـتعار واللبـاس الغـير محتشـم!».

ـ «هذا غير صحيح!».

ـ «بلى هو كذلك!».

ـ «كفـي عـن الثرثـرة وتعـالي إلى هنـا، سـاعديني كـي نُحكم وثـاق هـذا الوغد قبـل أن يسـتيقظ».

ـ «لن أفعل حتى تعترف بأنك تغار علي!».

ـ «أنا لا أغار عليك! وسأقوم بربطه وحدي!».

ـ «تبـا لـك! متجمـد المشـاعر، عديـم الإحسـاس، قاتـل الرومانسـية، عـدو الحـب!».

ـ «كفي عن مناداتي بأسمائي وتعالي ساعديني!».

قـام الثنائـي بإحـكام وثـاق لويـس عـلى كـرسي حديـدي في الغرفـة، ثـم شرعـت نزهـة الأحـلام بصـب دلـو مـاء عليـه،

فاستيقظ فزعا وصرخ قائلا: «من... من أنتما!».

أجابه عبد الجليل: «نحن العدالة المستقلة، نحن من يطبق القانون على من لا تُطبق القوانين عليهم، نحن من سنجبرك على أن توقف هذه الحرب اليوم قبل غد!».

ضحك الجنرال قائلا: «إن كنتما تظنان أنكما بتعذيبي ستنالان شيئا مني فأنتما لا تعرفان الجنرال لويس! أترى هذه النياشين اللعينة التي تزين صدري! أنا هو الدولة! أنا هو القانون! وسيأتي رجالي لتحريري، وحينها سأجعلكما تتوسلان الرحمة! أطلقا سراحي الآن وإلا!».

ـ «وإلا ماذا؟»، قال عبد الجليل: «وإلا ستحقننا مجددا بإنزيم Esperanzas؟».

ـ «ماذا؟ أي إنزيم؟».

ـ «أنا على علم بكل شيء، كل شيء بمعنى كل شيء، أنا أعرف كل أمر عنك، وعن مروان، وعن سيباستيان، وعن هذه الحرب اللعينة، هل أخبرك أيضا بما أعلمه؟ أنا أعرف شابا رائعا يدعى «إيريكو»، يدرس بمعهد «ماساشوستس للتكنولوجيا»، أنظر، هذه صورة له مع صديقته «سارة» التقطها أصدقائي له ليلة البارحة، آه! كم هما ثنائي رائع! أتدري يا لويس! أصدقائي الذين أخذوا هذه الصورة

ليسوا مصورين فوتوغرافيين كما تظن، كلا! إنهم رجال سيئون! فاسدون جدا! من ذلك النوع الذي لم يتلقَ تربية صالحة من أبويه في الصغر، أتمنى ألا يؤذوا الصغير إيريكو، حسنا، سأحاول إقناعهم كي لا يفعلوا، ما رأيك؟».

أحس لويس بالرعب حينما رأى صورة ابنه، تحول فجأة من أسد شرس إلى حمل وديع وأجابه متوسلا: «حسنا! سأفعل أي شيء، سأخبرك بكل أمر! فقط لا تؤذ ابني أرجوك! عدني بألا تفعل!».

ـ «لن أفعل بشرط واحد، وهو أن تتعاون معي».

ـ «أجل سأفعل، أنا في الخدمة!».

ـ «حسنا، لنبدأ بشريكك في الجريمة، أين هو مروان؟ بحثنا عنه في كل مكان ولم نقتف له أثرا».

ـ «لقد كان شريكا لي، أما الآن فقد أزحته عن طريقي، إنه مقيد في قبو الفندق، تحت مرآب السيارات، لكن رجالي في كل مكان، ولن يتركوا لك الفرصة للوصول هناك».

ابتسمت نزهة الأحلام قائلة: «لا تخف يا عزيزي، لقد اهتممنا برجالك قبل أن نهتم بك، أنتم ـ الرجال ـ ضعفاء جدا، تدّعون القوة إلى أن تأتي فتاة ضعيفة، فتصطادكم

الواحـد تلـو الآخـر!».

اتجـه عبـد الجليـل وصديقتـه إلى قبـو الفنـدق، بينـما تولـت أمـال مهمـة مراقبـة لويـس واسـتخراج جميـع المعلومـات منـه ونقلهـا إلى البقيـة.

دخلـت نزهـة الأحـلام إلى القبـو لتجـد أباهـا مقيـدا في حالـة يرثـى لهـا، أحسـت بالأسـى كـما تحـس أي فتـاة تـرى أباهـا يتعـذب أمـام عينيهـا، لكنهـا أخفـت مشـاعرها، ونظـرت إليـه نظـرة متكـبرة قائلـة: «عمـت صباحـا يـا أبي العزيـز!».

رفـع مـروان رأسـه نحوهـا، حملـق فيهـا مليـا ثـم قـال لهـا بغـير اكـتراث: «ضعـي الطعـام أمامـي وارحـلي، أريـد أن أغنـي أغنيـة قـرن الدلفـين وحيـدا».

صعقـت ابنتـه مـن إجابتـه الجافـة وصرخـت قائلـة: «أي طعـام؟ أنـا نزهـة الأحـلام يـا أبي! أنـا ابنتـك التـي رميتهـا في قبـو مماثـل لهـذا وقيدتهـا مثلـما أنـت مقيـد الآن! إنهـا الأقـدار يـا أبي، وهـا قـد وقعـت في نفـس الحفـرة التـي حفرتهـا لي بعـد أن خرجـت منهـا أنـا سـالمة! أنظـر إلي الآن! واجهنـي!».

نظـر إليهـا مـروان مجـددا، حملـق فيهـا مليـا ثـم قـال: «مـن أنـت يـا فتـاة؟! أنـا لسـت متزوجـا فكيـف تكـون لي ابنـة؟ أنـا دلفـين، هـا هـا، أنظـري إلى ظهـري، إنـه مقـوس نحـو الأعـلى

مثل الدلافين، وسباحتي دوما من أجل الأفعال الشريرة... لا يوجد مخرج من هنا يا فتاة، نحن في غواصة... ما بالك تبكين؟! دموعك شديدة الملوحة مثل الأعماق التي أعيش فيها...».

كان عبد الجليل واقفا أمام الباب يشاهد بأسى هذا المشهد الكئيب، بينما جثت الفتاة أمام أبيها باكية، وأخذت تحتضنه قائلة: «أنا آسفة يا أبي! كل هذا كان خطئي! ما الذي فعلوه بك حتى فقدت عقلك؟ آه يا عبد الجليل! لقد قادوه إلى الجنون! ساعدني لفك وثاقه! آه يا أبي العزيز!».

قام عبد الجليل بتحريره، ثم احتضن نزهة الأحلام بقوة كما احتضنها في أول مرة التقيا فيها، بينما استمر مروان في الهذيان واللعاب يسيل من فمه كلما فتحه، كانت عيناه غائرتين، لكنه كان على الأقل سعيدا، فالجنون هو الطريقة الذكية التي يتخذها العقل لتخليص الإنسان من ألم رهيب حل به، وبالنسبة لمروان فقد خلصه من الجحيم!

قام الثنائي بأخذ مروان إلى المنزل، أين وقف إدواردو مشدوها حينما رآه، وبعدما فسرا له كل ما حدث، بكى بكاء شديدا على سيده الذي كان أبا روحيا له، ثم قام بدوره بأخذه إلى مصحة عقلية يديرها صديق له، على أن تبقى هويته الحقيقية سرا إلى الأبد.

بعد رجوعه من المصحة، دخل إدواردو إلى البيت ليلاحظ مجددا ما كان يخاف حدوثه منذ دخول عبد الجليل إلى حياته، حيث شاهد بعينيه تعلق نزهة الأحلام الكبير به، وضحكتها العفوية معه؛ فالمرأة حينما تحب، لا تحتاج إلى براهين ودلائل لتثبت ذلك، الحب يبدو تلقائيا في عينيها، في صوتها، في ضحكتها، وفي كامل حركاتها!

ـ «عبد الجليل!» وجه إليه إدواردو الكلام قائلا: «أحتاج أن أكلمك في موضوع ما».

ـ «أكيد، تفضل أنا في الاستماع».

ـ «ليس هنا، لنذهب إلى غرفة أخرى».

دخل الاثنان الغرفة، أغلق إدواردو الباب ونظر نحو غريمه بجدية ثم قال:

«أتدرك ما هو أسوء شيء في هذا العالم؟ إنه حينما يبتسم لنا الحب بعد سنين من الخذلان؛ لا نصدق في البداية، تصيبنا الدهشة، تخفق قلوبنا، ترتعد فرائصنا، نحمد الرب على رحمته بنا، ووهبنا نصفنا الآخر الذي طالما حلمنا به في طفولتنا وفي مراهقتنا، في أحلامنا وفي يقظتنا، في مخيلتنا وفي واقعنا؛ ثم نهيم بحب ذلك الشخص، نتعلق به إلى درجة عبادته، إلى درجة وهبه روحنا وجسدنا، إلى درجة الخوف

من فقدانه يوما ما؛ وحينما يكون كل شيء على ما يرام، لما تصبح الابتسامة جزءا لا يتجزأ منا، حين يصبح الحظ والسعادة صديقين لنا، يدخل شخص آخر بيننا وبين من نحب ليدمر كل شيء! ليسرق أحلامنا وأماننا، ليغتصب منا نصف روحنا ونصف جسدنا، ليهبنا حزنا مزمنا وشقاء أبديا!

أنت أناني جدا يا عبد الجليل، ووغد كذلك! لقد عشقتُ نزهة الأحلام لسنوات، وافترقنا ثم عدنا من جديد، رجعنا بحب أقوى وأمل كبير، اجتمعنا نتيجة الابتهالات الكثيرة التي وهبتها للعذراء؛ وها قد أتيتَ من حيث لا أدري، وسرقت قلبها كما لو أنني لا شيء أمامك، كما لو أنني دخان، سحاب، بخار، طيف من العدم! توقف لا تقاطعني! ولا تلعب دور البريء، فأنا أعرف جيدا أمثالك! أنت من النوع الحقير الذي لا يهمه إن كانت السيدة مرتبطة أم عزباء، متزوجة أم مخطوبة، كبيرة أم صغيرة، كل ما يهمك هو إقامة علاقة قصيرة معها ثم المضي قدما، تاركا وراءك عائلة مهدمة، قلوبا مكسورة، أرواحا معذبة، كما روحي الآن، كما قلبي الآن!».

كان عبد الجليل مصعوقا، وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه، أجاب مدافعا عن نفسه:

«أنت مخطئ جدا في ظنك يا صديقي، وأنا لا ألومك على هذه الزلة، لأنك ببساطة لا تعرفني!

لقد أحببت مرة فقط، مرة واحدة في حياتي، وكان اسمها «ميا»، قبّلتها بشغف قبل ذهابي إلى المكسيك، وعدتني بأنها ستنتظرني، بأن تكون وفية لي أبد الدهر، حاربت في جبال «سييرا مادري»، سالت دمائي، مات صديقي، عدت إلى الجزائر رجلا محطما، لجأت إليها لكي تلملم جراحي فوجدتها متزوجة، أجل يا صديقي، النساء لا ذمة ولا ضمير لهن، لا همّ لهن سوى الزواج، في الواقع، أنا لم أحزن كثيرا، ولم أعلّق آمالا مثل تلك التي علقتها، فأنا أعرف جنسهن تمام المعرفة، إنهن أنانيات، شريرات، مخادعات؛ لكن أمثالك لا يدركون ذلك، أمثالك وأمثال صديقي سيف رحمه الله؛ قلوبكم ليّنة، مشاعركم رهيفة، عقولكم صغيرة! أتحدثني عن نزهة الأحلام؟ أتظنني أكترث لتلك الفتاة الغبية؟!».

ـ «لم أقل أنك تكترث لها، بل إن المشكل العويص هو أنك قد جعلتها تكترث لك!».

ـ «حسنا! أنا لم ألاحظ هذا، وإن كنت تظن أنني قد تعمدت فعل ذلك، فأنت مخطئ جدا في حقي، ألم تسل نفسك لما تعلقت بي ولم تتشبث بك؟ ألا ترى أنك أوسم مني وأفضل بكثير؟ هل تريد أن أجيبك على علامات

استفهامك وتعجبك أيها الطفل الكبير؟ حسنا سأفعل!

المرأة تنجذب للرجل الذي لا يكترث لها، ذلك الذي يبادلها الحب بالجفاء، التعلق بالتجاهل، الودّ بالفضاضة، أجل صدّقني! المرأة تحب الرجل الفظ، الصلب، العنيف!

أنظر حولك أيها الغبي! ألا ترى أن أغلب الفتيات يتعلقن بالأوغاد الذين يستغلونهن ويعاملونهن شرّ معاملة، بينما يبقى عصافير الحب والرومانسية أمثالك بلا حب ولا حبيبة؟ أحقا لم تلاحظ ذلك؟! إن المرأة تزدري الرجل الحنون، لأن الحنان صفة أنثوية، وتنفر من التودد الكثير، لأن الودّ للنساء، وتحتقر الرجل الخانع الخاضع لها، لأن الخنوع والخضوع يجعلها تحس بأنها مع صديقتها سلمى!

المرأة تعشق الرجل الخشن الصارم، العنيف البارد، المهيمن والمسيطر! هي تحب من يعطيها الأوامر لا الطلبات، من يعاقبها بشدة حينما تخطئ، من يتصرف معها بسادية مطلقة!

إن أحبتك المرأة للطفك وحنانك ومودتك، فإنها سرعان ما ستمل منك، وستنجذب لأي قوة تمتلك صفاتً تعاكس صفاتها الأنثوية، فالحنان ينجذب نحو القسوة، واللطف يميل نحو الخشونة، والمازوشية تأسرها السادية!

لذلك لا تلمني أرجوك! فجهلك بأمور النساء ليس ذنبي، وعدم قدرتك على فرض سيطرتك الذكورية على أنثاك ليس خطئي! تجاهلها يا إدواردو، تجاهلها وستحبك أكثر من ذي قبل! أقسو عليها وستدمنك إلى الأبد، اجعلها تحس أنها مع رجل يحميها ويحتويها، لا مع امرأة تشاركها النواح والعويل!

لقد أخبرني صديق لي في الجزائر بأن زوجته تعشقه بجنون، وأنه بالرغم من ذلك يصفعها مرة واحدة على الأقل كل شهر بسبب أو من دونه، وحينما سألته عن دوافعه لفعل ذلك، أجابني بأن المرأة تحب أن تُصفع من حين لآخر! ربما كان في كلامه بعض من المبالغة، لكن هذا واقع حتى ولو أنكرته جميع النساء لأنه منافٍ لعقولهن، لكن، متى كان للغريزة الأنثوية عقل من الأساس!».

لم يتحمل إدواردو الإهانات واللهجة الساخرة التي كان يحدثه بها عبد الجليل، فقام بإخراج مسدسه، وجّهه نحوه وصرخ قائلا: «ربما لا أعرف النساء حقا كما تقول، لكنني أعرف هذا! هل تعرفه أيضا؟ إنه مسدس أمريكي الصنع من نوع Colt1911، صنع سنة إحدى عشر وتسعمائة وألف على يد العالم «جون براونين»، ولا زال بإمكانه قتل الأوغاد مثلك إلى يومنا هذا، عياره ١١,٤٣مم، وزنه ١,١٠٥كغ،

مخزنه يسع سبع رصاصات، وسرعة انطلاق الرصاصة من فوهته تقدر بـ ٢٥١ متر/ الثانية، أي أنني أستطيع تفجير دماغك الفاسد وقلبك المتحجر في أجزاء من الثانية!».

في هذه الأثناء، دخلت نزهة الأحلام إلى الغرفة، بعد أن استرقت السمع قبل ذلك، وألّمت بمعظم حديث الرجلين، ذهبت مباشرة نحو عبد الجليل، وقفت أمامه، ثم استدارت نحو إدواردو قائلة:

«أنت مخطئ يا إدواردو، أنا لم أقع في حبك أبدا، لقد ظننت فقط أنني أحبك، ربما لأنني كنت مسجونة من طرفك، ذاك السجن دمرني وجعل أحاسيسي تضطرب، أنا لا أحبك إطلاقا! وآسفة لأنني أوهمتك بعكس ذلك، ربما فعلت ذلك للنجاة منك، أو ربما.... لا أدري! أنا أيضا لا أفهم أحاسيسي، المشاعر معقدة جدا ولا يمكن تبريرها، أنا فقط لا أحبك الآن وكفى! أما بالنسبة لعبد الجليل فأنت محق، لقد تعلقت به، بل أنا أعشقه، رغم أنني لم أخبره بمشاعري نحوه، ليقيني التام بأنه لا توجد أي فرصة لي لكي أحظى به لنفسي، فقد نقع في حب شخص ما مع علمنا أنه لن يكون لنا أبدا، وهذا ما حدث لي، لكنني رغم ذلك أكتفي بحبه، ولا يهمني إن بادلني الشعور أم لم يفعل، هيامي به يسعدني وهذا كفاية! إن كنت تريد أن تغتاله فاقتلني

قبلـه، فـلا سـعادة لي مـن بعـده ولا رجـاء!».

كان الموقـف صعبـا، أو لنقـل يائسـا، في غرفـة اختلطـت فيهـا الحيـاة المفعمـة بالحـب والمشـاعر بالخـوف المـليء بالتوجـس والريبـة، لقـد كانـت ملامـح إدواردو توحـي بأمـر واحـد فقـط، أنـه سـيرتكب جريمـة شـنيعة سـيذهب ضحيتهـا هـذا الكائـن التافـه الـذي سرق منـه أغـلى مـا يملـك! بالنسـبة لـه، فأمثالـه لا يسـتحقون العيـش عـلى هـذه الأرض، ولا تدنيـس ترابهـا المقـدس، إنهـم يسـتحقون المـوت فقـط كعقـاب عـادل لمـا اقترفوه في حـق الحـب، يسـتدعون تلقـي جـرح مماثـل للـذي أحدثـوه في قلـب مـن اغتصبـوا منـه نصفـه الآخـر، يسـتوجبون القصـاص لتدميرهـم لعلاقـة ناجحـة كانـت لتنتهـي بالـزواج!

قـام إدواردو بتصويـب مسدسـه نحـو رأس غريمـه، ضغـط عـلى الزنـاد بقـوة وصرخ قائـلا: «إلى الجحيـم أيهـا الوغـد!»، انطلقـت الرصاصـة بسرعـة نحـو هدفهـا، واخترقـت جسـد نزهـة الأحـلام التـي ارتمـت بروحهـا قبـل جسـدها عـلى حبيـب قلبهـا، ثـم سـقطت عـلى الأرض تسـبح بيـأس في بركـة دمائهـا!

«نزهـة الأحـلام! حبيبتـي!» صرخ إدواردو بـكل جـزع: «مـاذا فعلـت يـا رب!»، التفـت يمينـا وشـمالا التفاتـة المذنـب الـذي يـدرك أنـه قـد فعـل لتـوه أمـرا شـنيعا يسـتوجب العقـاب، فتـح البـاب بسرعـة ثـم لاذ بالفـرار، أمـا عبـد الجليـل فقـد انحنى

بجسده على نزهة الأحلام، وشرع في تقطيع ملابسه، وتكوير قماشها، وضغطها بقوة على الجرح الذي توسط قفصها الصدري ليوقف النزيف، «نادوا الإسعاف فورا»، صرخ بكل ما أوتي من قوة، وهو يحاول بث الحياة مجددا في هذا الجسد الجريح.

(٧)

كان أنخيل في خيمته، يتأمل جمال السماء التي اصطبغت بزرقة لا تشبه زرقتها المعتادة، كان الفضاء خاليا من الطيور نتيجة الدخان الهائل الذي كان يتصاعد هنا وهناك، الجثث متراصة في كل مكان بعد أن تم عدّها وترصيصها، والدماء أبت إلا أن ترسم لوحات فنية على أرض بيتين الجريحة.

استمر في وجومه إلى أن استأذنه مسؤول الاتصال في الدخول فأذن له، قام بأداء التحية العسكرية ثم تحدث قائلا:

ـ «سيدي، لقد وصلت برقية شفوية من قيادة الكتيبة فيها مهمة لك».

ـ «مهمة لي؟ لكن مهمتي واضحة، وأنا لم أكملها حتى تسنَد إلي مهمة أخرى!».

ـ «إنها أوامر القيادة العليا يا سيدي، هل أطلعك على نص البرقية؟».

ـ «أكيد! ماذا تنتظر؟!».

ـ «حسنا، لقد أتت البرقية كالتالي:

من كندا ١٥ ميم إلى كندا ٢١ ميم،

تعليمات كندا ١٥،

يجب على كندا ٢١ شرب الماء مع مجموعة من الأشجار، ثم استخدام المطرقة لنزع الثلاجة، نفذ!».

ـ «حسنا وهل قمت بفك شيفرتها؟».

ـ «أجل يا سيدي، وتحصلت على التالي: يجب على الملازم أنخيل القيام باستطلاع العدو برفقة مجموعة من الرجال، ورفع تقرير مشفر إلى القيادة ثم الرجوع مجددا إلى المعسكر».

ـ «آه! إنه أجمل خبر سمعته في حياتي! شكرا يا أحسن مسؤول اتصال في العالم على هذه البشرى السارة!».

قام أنخيل باختيار أقوى الرجال وأشدهم كفاءة ثم كلمهم قائلا:

«أنا أعلم أنكم قد مللتم مثلي من الجلوس في خندق لعين وعدم فعل شيء سوى الطبخ والأكل مثل الفتيات السمينات، لذلك فقد أتيتكم بخبر رائع! سنتقدم... سنتقدم نحو العدو بكل ما أوتينا من قوة وبأس، سنقتل كل من نصادفه في طريقنا، وسنستطلع قوة جيش غواتيمالا، وتجهيزه، وإمداداته، حتى نضربهم ضربة واحدة تكون هي الفيصل!

إنهم خائفون منا، ومن لا يفعل؟! نحن وحوش ضارية! نحن أسود شرسة! نحن هم الموت إذ حَلّ والسيف إذا سُلّ! لن نكلّ ولن نملّ حتى نعلق رؤوس أعدائنا فوق قمة كل تلّة!

نحن رعب أعدائنا وكابوسهم الدائم، رصاصنا ومقذوفاتنا تنهال كما الشتائم... وأيادينا الخشنة تصنع لكل عدو التابوت الملائم!

نحن القوة والشجاعة والجرأة والشراسة، نحن الإرادة والعزيمة والذكاء والفراسة، نحن من ندمّر جدران العدو ونهدّم أبراج الحراسة!

أجيبوني الآن: من نحن؟!».

أجاب الجميع بصوت واحد: «نحن قوة جمهورية المكسيك العظمى!».

تقدم أنخيل وتبعه رجاله، أخذوا يتسلقون الجبال الشاهقة، ويقطعون الوديان العميقة، وكلما خيم الليل قاموا بالمبيت في هذه الهضبة أو تلك، بعد اصطياد عشائهم، وطهيه على نيران حطب الغابة.

النوم في وسط الغابة يختلف باختلاف وضع المبيت، فليس أن تخيّم في غابة ما من أجل التسلية مثل أن تخيّم وأنت تدرك أن العدو يتربص بك، وهو ينتظرك كي تخلد إلى النوم حتى ينحر عنقك ويستولي على سلاحك ثم ينكّل بجثتك! لذلك، فقد كان الرجال يتناوبون على النوم والحراسة، مستخدمين الحطب الملتهب لتدفئة أجسادهم ووقايتها من صقيع الليل الذي لا يرحم.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحا، حينما أيقظ أحد الرجال قائده، وهمس له بلهجة مرتعبة: «سيدي، هنالك شخص ما يتحرك بين الأشجار، إنه يرتدي بذلة خضراء اللون ويحمل سلاحا رشاشا!»، قام أنخيل بتهدئة روعه، ثم تقدم للتأكد مما رآه الحارس، لقد كان يدرك أنه من المستحيل رؤية الألوان في الليل أو تمييز نوع السلاح، ومادام الرجل قد رأى لونا أخضر في الظلام، فهذا يعني أن خياله هو من صوره له، قام أنخيل بالابتعاد والغوص في الظلام، سمع الجميع صوت طلقة نارية فتأهبوا للقتال، إلى أن رأوا

قائدهم قادما، وهو يجر ذئبا بحبل معلق في رقبته، نظر بسخرية إلى الحارس وقال: «ها هو ذا المقاتل الأخضر!».

لم يلم الرجل لقلة خبرته، لأن هذا الأمر يحدث لأي إنسان، إن التحديق مطولا في الظلام يجعلك ترى أي شيء تخافه، الأمر أشبه بالنظر ليلا إلى نافذة بيت سمعت أنه مسكون، وبما أنك تتوقع أن ترى جنيا فإن عقلك سيجعلك تتخيله وراء زجاج الغرفة، ينظر نحوك بترقب ليسكن روحك الآثمة!

مضت الأيام تباعا، إلى أن اقترب الرجال من ضواحي إدارة «ألتا فيراباز»، قاموا باحتلال مرتفع لمراقبة الأرض والسيطرة عليها، وما إن وصل الرجال إلى قمة المرتفع حتى تهالكوا على الأشجار الكثيفة التي كانت تميز الموقع، وفجأة، سُمع دوي انفجار هائل هز المكان، التفت الجميع ليجدوا صديقهم مرميا على الأرض، ورجله اليمنى مرمية في مكان آخر، كان الرجل يحاول النهوض وهو يصرخ: «ماذا...ماذا حدث لي؟!»، قام أنخيل بسرعة بالجثو قربه ومنعه من رؤية رجله المقطوعة وهو يقول: «لا شيء، لا شيء، مجرد جرح بسيط! ألفونسو! أحضر الضمادات!».

كان الرجل يرتعد وهو يصرخ ألما: «جرح بسيط! لكنني لا أحس بقدمي، آي! ما هذا الألم الفظيع؟! دعني

أرى أرجوك! أنا لا أحس بقدمي!»، نظر إليه أنخيل بعطف قائلا: «سنقوم بتضميد جرحك أولا، هيا يا ألفونسو، اعتن به!».

حقنه الممرض بالمورفين، ثم قام بإيقاف النزيف وتضميد مكان القطع، بعد ذلك نزع الشظايا المتفرقة من جسده، وخاط جميع جروحه، نظر المقاتل إلى الأسفل فرأى أن قدمه قد بُترت ابتداء من ركبته، فشرع في البكاء والنحيب: «يا رب! لماذا أنا؟! لقد قُطعت رجلي وسأعيش مقعدا إلى الأبد! لن أستطيع حتى التبول مثل الرجال! آه يا رب لماذا؟! ماذا سأقول لخطيبتي؟! أنا متأكد أنها ستتخلى عني! فما من امرأة ستقبل بالزواج من رجل سيكون عبئا عليها!».

كان المشهد حزينا، كئيبا جدا إلى درجة أن الجميع شرع في البكاء والنشيج؛ كلّمه أنخيل قائلا: «لا عليك يا صديقي، لقد فقدت رِجلك من أجل الواجب! من أجل وطنك، وهذا شرف لك! سنقوم بإجلائك إلى المعسكر، ومن هناك إلى بلادنا الحبيبة مجددا، وسيتم الاعتناء بك جيدا في المستشفى العسكري، سيصممون رجلا اصطناعية من أجلك لا تختلف عن رجلك الحقيقة، وستمشي من جديد، وستتزوج خطيبتك التي ستكون فخورة بك أيما فخر،

ومعتـزة بـك أيـها اعتـزاز!».

نظـر الرجـل بحقـد نحـو أنخيـل والـشرر يتطايـر مـن عينيـه وزمجـر قائـلا: «كل هـذا بسـببك أيهـا الوغـد! أنـت مـن أمرتنـا أن نحتـلّ هـذا المرتفـع الملغّـم دون أن تقـوم حتـى بتفتيشـه، إنـه خطـؤك أنـت، لـن أسـامحك أبـدا، وسـيقتص الـرب لي منـك! أتمنـى أن تمـوت أبشـع ميتـة أيهـا النـذل! لقـد قُطعـت رجـلي بسـببك... بسـببك أنـت أيهـا القائـد الفاشـل!».

سـكت أنخيـل، وابتعـد عـن الرجـل، ثـم جلـس وحيـدا والألم يعتـصره، لقـد كان يعلـم أن الرجـل محـق فيـما قـال، وأنـه يتحمـل مسـؤولية جميـع أفـراده بـما فيهـم هـذا الرجـل الـذي قُطعـت رجلـه بسـبب خطـأ قيـادي وسـوء تدبـير منـه! أحـس بذنـب قاتـل، وتمنـى لـو كانـت رجلـه هـي التـي قُطعـت مكانـه، ومـا أشـد العـذاب النفـسي الـذي يسـكن روح القائـد، ويجعـل كوابيسـه مليئـة بقراراتـه الخاطئـة التـي ينـال منهـا لـوم الجميـع!

أتـت الطائـرة المروحيـة، وحطـت عـلى سـهل قريـب مـن الهضبـة، قـام الرجـال بإجـلاء صديقهـم ثـم عـادوا مجـددا إلى مكانهـم، كانـت معنوياتهـم منخفضـة، لأن مـا جـرى لـه كان ليقـع لأي واحـد فيهـم، وبعبـارة أخـرى، لقـد شـاهدوا بأعينهـم مـا سـيحدث لهـم قريبـا!

أن تكـون مكسـيكيا ـ أنـا أتحـدث عـن المكسـيكي الحقيقـي، وليـس عمّـن يرتـدي بذلـة المكسـيكيين لكنـه يعمـل في مكتـب أنيـق ـ معنـاه أن تكـون مسـتعدا لأن تفـرّط في كل شيء، ابتـداء مـن أجـزاء جسـدك، وصـولا إلى عائلتـك وأحبابـك، رِجلـك سـتكون شـيئا مقبـولا لتتخـلى عنـه عنـد أول لغـم يصادفـك، ومـا أكثـر الألغـام الغـادرة وراء خطـوط العـدو!

أمـضى الجميـع ليلتهـم في نفـس المـكان، بعـد أن قامـوا بتفتيشـه جيـدا وتفجـير جميـع القنابـل التـي كانـت تنتـشر في كل مـكان، وفي الصبـاح الباكـر، بـدأوا بالاقـتراب بحـذر عـبر الغابـة نحـو الجيـش الغواتيـمالي، كان أنخيـل يمسـك في كل مـرة منظـاره في محاولـة منـه لرؤيـة شيء مـا، ثـم يتقـدم مـن جديـد، ويعـاود الكـرة، كان الأمـر غريبـا، لأن المـكان الـذي كان مـن المفـترض أن يكـون معسـكر الجيـش الغواتيـمالي قـد بـدا خاليـا تمامـا مـن أي شـخص، وهـذا يعنـي أن الجيـش قـد قـام بمنـاورة مـا قـد لا تحمـد عقباهـا؛ أحـس أنخيـل بالخطـر فنـادى رجالـه قائـلا: «تراجعـوا إنـه فـخ!»، تراجـع الجميـع لكـن ليـس بعيـدا، لأنهـم وجـدوا أنفسـهم داخـل كمـين محكـم، والأسـلحة موجهـة نحوهـم مـن كل حـدب وصـوب، وأحدهـم يـصرخ فيهـم بقـوة: « نحـن نتفـوق عليكـم عـددا وتسـليحا، ارمـوا أسـلحتكم وإلا جعلنـا مـن المـوت قدركـم المحتـوم!».

فكـر أنخيـل في المقاومـة، أراد أن يحتمـي بالشـجرة المقابلـة ويبـدأ في إطـلاق النـيران باسـتماتة، حسـنا، هـذا مـا فكـر فيـه قبل أن يتذكـر كلـمات الرجـل التـي لم تبـارح عقلـه: « لقـد قُطعـت رجـلي بسـببك، بسـببك أنـت!»، هـذه الكلـمات تعذبـه الآن، وهـو لا يريـد أن يسـمع أرواح رجالـه تـصرخ فيـه مجـددا: «لقـد متنـا بسـببك، بسـببك أنـت!»، لذلـك فقـد قـام برمـي سـلاحه فـورا، ثـم اسـتدار نحـو رجالـه قائـلا: «ارمـوا أسـلحتكم!»، قـام الجميـع بفعـل ذلـك، ثـم رفعـوا أيديهـم نحـو السـماء في إشـارة إلى الاستسـلام، قامـت المجموعـة الأخـرى بتقييدهـم والاسـتيلاء عـلى أسـلحتهم، ثـم تـم أخذهـم إلى مـكان آخـر كانـت تخيـم فيـه، أيـن قامـت بإطعامهـم والاعتنـاء بهـم جيـدا.

في الليـل، تقـدم قائـد المجموعـة نحوهـم، سـألهم قائـلا: «مـن هـو القائـد هنـا؟»، أجـاب أنخيـل: «أنـا هـو القائـد، ولـن أعـترف لـك بـشيء حتـى ولـو سـلخت جلـدي عـن لحمـي!».

ـ «نحـن لا نعـذب الأسرى يـا هـذا! ولا نـؤذي أناسـا عـزّل، نحـن جيـش نظامـي، ولسـنا بمرتزقة!».

ـ «مـاذا تقصـد؟ ألـن تقتلونـا؟ ألـن تنحـروا أعناقنـا الواحـد تلو الآخـر؟».

ـ «كلا، فـلا مسـتوانا التعليمـي يسـمح بذلـك، ولا مسـتوانا

الأخلاقي، أنتم أسرانا، وبذلك فأنتم ضيوفنا».

أحس أنخيل بصغر نفسه فأجاب بقلق: «لكننا نعذب أسراكم ونقتلهم شر تقتيل! افعلوا بنا المثل يا جبناء! أم أنكم تخافون من قوتنا وجبروتنا فتعاملوننا برحمة علّكم تجدون العطف منا؟! كن على يقين أنكم لن تلقوها، وسنعذبكم أشد عذاب، ونقتلكم أشد تقتيل!».

ضحك القائد بسخرية وأجابه: «من الغباء أن تعض كلبا عضك! على كل حال، سترافقوننا خلال مهمتنا إلى أن نعود مجددا إلى المعسكر، ثم نسلمكم إلى قيادتنا لتخضعوا لمحاكمة عادلة على حسب جرائمكم التي اقترفتموها، إن احتجتم إلى أي شيء فأنا في الخدمة، بالمناسبة اسمي فيليب، وأنا ملازم أول بالقوات الخاصة في جيش غواتيمالا الأبي!».

عاد فيليب إلى مكانه، وبدأ برمي الحطب للنار التي كادت أن تخمد حتى يستطيع رجاله وأسراه الصمود في هذه الليلة الباردة، بينما أمضى أنخيل ليلته يتألم لكل ما رآه وما سمعه، وهو يحس باحتقار كبير اتجاه نفسه؛ لقد كان يدرك أنه قد تعلم في مدرسته العسكرية نفس ما لقّنه له فيليب منذ قليل، كما أنه قد كان يشبهه كثيرا قبل أن تندلع هذه الحرب الضروس، لكن منذ انطلاقه لخوض هذا الصراع، أحس أنه قد تحول إلى وحش ضار، ولم يفهم ما هو السبب

الـذي جعلـه يتجـرد مـن كل مـا هـو أخلاقـي؛ فكيـف لـه أن يعلـم أن هنالـك إنزيـما خطـيرا يـسري في دمائـه، تأثـيره عـلى السـلوك أسـوء بكثـير مـن تأثـير كروموسـوم الإجـرام؟!

بـدأت خيـوط الصبـاح تتسـلل بـين أشـجار الغابـة لتعلـن بدايـة يـوم آخـر مـن القتـال، انطلـق فيليـب ورجالـه يجـرون معهـم الأسرى، متجهـين نحـو الخطـوط الأماميـة للجيـش المكسـيكي، توقـف أحـد الكشـافين بعـد مسـيرة نصـف يـوم، اسـتدار نحـو سـيده وقـال لـه هامسـا: «سـيدي! لقـد رأيـت دخانـا، أنظـر هنـاك!».

اسـتخدم فيليـب منظـاره، فشـاهد مجموعـة مـن الرجـال يقومـون بطهـي طعـام الغـداء عـلى نـار متقـدة في وسـط الغابـة، أعطـى إشـارة بيديـه، فقـام الجميـع بأخـذ وضعيـة الارتـكاز، وأخـذوا يثبـون مـن شـجرة إلى أخـرى باحترافيـة قتاليـة عاليـة، وحينـما تقدمـوا عـلى بعـد أمتـار منهـم، أعطـى إشـارة أخـرى، فارتمـى الجميـع أرضـا، وبـدأوا بالزحـف كالأفاعـي الضاريـة باتجـاه تلـك المجموعـة، وفجـأة وقفـوا كالأشـباح وقامـوا بإحاطتهـم مـن كل جانـب، وفي لحظـة واحـدة، بـدا الوجـوم عـلى الجميـع، إلى أن صرخ أحـد أفـراد تلـك المجموعـة: «سـيدي... أنـت هنـا!»، أجـاب فيليـب: «أجـل أيهـا الخونـة!».

كانـت تلـك المجموعـة هـي نفسـها مجموعـة الأفـراد الذيـن

هربوا من ساحة القتال في معركة بيتين، نظر فيليب إليهم باحتقار وصرخ قائلا: «انزعوا أسلحة هؤلاء الفتيات فإنهنّ لا يستحققنها!».

قام الرجال بنزع أسلحتهم، وأجبروهم على الجلوس راكعين، واضعين أيديهم على رؤوسهم، حمل فيليب بندقيته وتحدث قائلا:

«هل تتذكرن ستيفان؟ ذلك الطفل الصغير الذي انضم حديثا إلى فصيلتنا، وكنتن تضايقنه كثيرا، وتدعونه بالفتاة الصغيرة، لقد لقي حتفه في تلك المعركة، أسلم روحه في خندقه معانقا سلاحه كما يموت الرجال، قضى نحبه بسبب بعض الفتيات اللائي هربن من ساحة المعركة كما تهرب شواطئ الشوارع من قوّاديها، مات لأنه كان يخالكن رجالا لا مجموعة ديوثين لا فرق بينهم وبين نسائهم!

بلى هنالك فرق! لو كانت نساؤكن تحاربن معنا لما هربن مثلما فعلتن أيتها الشواطئ! إنني لأتأسف كثيرا لهذه الرتب العسكرية التي تحملنها فوق أكتافكن والتي لا تستحققنها البتة! إنني أجردكن من رتبكن، وأحكم عليكن بالإعدام رميا بالرصاص!».

بدأ جميع الرجال في طلب الرحمة والمغفرة راجين العفو

والصفح من قائدهم الكريم، لكن فيليب وجّه بندقيته باتجاههم وصرخ بقوة: «من أجل فيليب الصغير الذي لم يهرب من ساحة القتال!» ثم بدأ يطلق النار عليهم الواحد تلو الآخر حتى أرداهم قتلى جميعا، نظر بعد ذلك نحو أنخيل وقال: «نحن لسنا عطوفين كما تظننا، إننا رجال صارمون متخلقون، نرفق بالأسرى، لكننا لا نسامح الخائن أبدا!».

قام الرجال بعد ذلك بدفنهم، ثم واصلوا طريقهم مجددا؛ كان فيليب يمشي والدموع تنهمر من عينيه، لقد تذكر ستيفان الصغير، ذلك البرعم الذي مات دون أن يُقبّل فتاة أحلامه، تذكر إيزابيلا، وسأل نفسه إن كان يستطيع تقبيلها قبل أن يموت؛ فتح جيب معطفه، أخرج صورتها وأخذ يلثمها ويبللها بدموعه الحارقة؛ فكر مرارا لما اختار هذه المهنة الصعبة؟ وإن كانت من أجل غاية ما في نفسه، فلما ورّط معه امرأة مسكينة؟ امرأة سيناديها الجميع بعد مدة بالأرملة، وسيطمع في جسدها آلاف الأوغاد، في وقت لا يحترم فيه الناس زوجة رجل حي، فما بالك بأرملة مسكينة!

تذكر فجأة زوجة أحد أصدقائه الذين توفوا في إحدى المعارك، والتي لم يوفر لها زوجها بيتا يسترها هي وأولادها بعد وفاته، طردها مالك المنزل بعد تخلفها عن دفع

مستحقات البيت لمدة شهرين، وكذلك بسبب رفضها القاطع بأن تدفع له بطريقة أخرى، لجأت إلى الوالي لكي يهبها سكنا يأويها وصغارها، لكنه رفض ذلك لأنها تمنعت عن طلباته الدنيئة هو الآخر، أمضت أياما في العراء، أين انكسرت وهي ترى أطفالها يموتون بردا وجوعا، إلى أن استسلمت في الأخير للكثير من «المحسنين» الذين قدموا لها إقامات دورية في منازلهم مقابل شرفها!

أجل! العالم قاسٍ جدا! هذا ما كان فيليب يدركه تمام الإدراك، وهذا ما جعله يضع كل مدخراته في حساب خاص، حتى لا تلقى زوجته نفس مصير زوجة صديقه بعد وفاته!

أما أنخيل، فقد كان يشاهد غريمه وهو متأثر به وبأخلاقه أيما تأثر، وأقسم بينه وبين نفسه أن يصبح مثله لو أن الحياة كتبت له فصلا آخر ضمن فصولها.

هكذا، وفي خضم الحرب، وبين أشجار الغابة المخيفة، تقدم الجميع بثبات إلى أن وصلوا أخيرا إلى تلّ مطل على ساحة بيتين، شاهد فيليب كل شيء ثم حمل جهازه اللاسلكي وبدأ برفع تقرير مفصل عن حالة العدو، وعدده، وعتاده، ونواياه، ثم بقي ثابتا مكانه بانتظار المهمة اللاحقة.

(٨)

دخل عبد الجليل إلى الفندق، واتجه مباشرة نحو الغرفة التي يمكث فيها لويس كسجين، قامت أمال بفتح الباب، وما إن رأت تعابير وجهه حتى سألته قائلة:

ـ «خيرا إن شاء الله!».

ـ «لقد...خرجت الأمور قليلا عن السيطرة...».

ـ «ماذا؟ كيف ذلك؟ أين هي نزهة الأحلام؟ أين هي ابنتي؟».

لقد اجتمعت في أمال غريزتان في وقت واحد، غريزة المرأة التي تجعلها تدرك أن هنالك شيئا ما على غير ما يرام، وغريزة الأم التي تخبرها أن أحد أطفالها في خطر، لذلك فقد كانت تحتاج فقط لأن تسمع الخبر المفزع من شفتي عبد الجليل الذي أجابها مرتبكا:

ـ «إنهـا تمكـث الآن في «Mexico Urgencias»، لقـد فقـدت الكثـير مـن الدمـاء، ودخلـت في غيبوبـة، لكـن الأطبـاء في غرفـة الطـوارئ طمأنـوني بـأن فرصتهـا في النجـاة ليسـت منعدمـة».

ـ «آه! ابنتي المسكينة! كيف حدث لها ذلك!».

حكـى لهـا باقتضـاب كيـف أن إدواردو أحـس بالغـيرة منـه، وأطلـق النـار عليـه، لكنـه أخطـأ الهـدف وأصـاب ابنتهـا، لم يكمـل تفاصيـل القصـة حتـى سـقطت أمامـه مغشـيا عليهـا، فاضطـر إلى حملهـا ووضعهـا عـلى السريـر ثـم إنعاشـها بصـب المـاء البـارد عـلى رأسـها ووجههـا.

اسـتيقظت مجـددا، فقـام عبـد الجليـل بطمأنتهـا، وإعطائهـا أدويـة مهدئـة، ثـم اتفقـا عـلى أن تبقـى أمـال بصحبـة ابنتهـا إلى أن تسـتيقظ مـن غيبوبتهـا، بينـما يُتـمّ هـو مهمتـه مـع لويـس؛ انطلقـت بعـد ذلـك بسرعـة عـلى متـن سـيارتها، بينـما أَغلـق البـاب، ووضـع كرسـيا أمـام غريمـه، ثـم كلمـه قائـلا:

«لويـس العزيـز، أنـا لا أعلـم حقـا مـاذا فعلـت لمـروان حتـى جعلتـه يفقـد عقلـه، لكننـي لـن أفعـل ذلـك لـك إطلاقـا فأنـا لسـت متوحشـا، ربـما سـأجعلك تفقـد ابنـك الوسـيم، وأعضـاءك التناسـلية أيضـا حتـى لا تنجـب طفـلا آخـر، مـا

رأيــك في هــذا؟».

أجابــه لويــس والعــرق يتصبــب منــه: «لقــد أخبرتــك أننــي ســأتعاون معــك في كل شيء ترغــب بــه، فقــط اتــرك ابنــي الوحيــد وشــأنه!».

ـ «حســنا كل مــا أريــده منــك الآن هــو أن تحــضر لي سيباســتيان، فهــو الآن أكثــر قيمــة منــك، اتصــل بــه وادعــه ليحــضر حــالا، وإيــاك أن تجــازف، فابنــك في أيــادٍ جــدّ آمنــة!».

اتصــل لويــس بــه، وأخــبره أنــه يحتاجــه في أمــر عاجــل، ودعــاه للحضــور فــورا إلى الغرفــة، ومــا إن دخــل حتــى وجــد مسدســا موجهــا نحــوه ورجــلا صارمــا يقــول لــه: «تفضــل ســيدي، اجلــس مــن فضلــك!».

جلــس سيباســتيان والخــوف يســيطر عــلى كل أنحــاء جســده، أخــبره عبــد الجليــل بــكل مــا يحــدث، ثــم أكمــل قائــلا: «والمطلــوب منــك الآن أن تصنــع لنــا إنزيــما مضــادا لــ «Esperanzas» ، وتحقــن بــه جميــع المصابــين بعــد أن يأمرهــم الجنــرال بالعــودة فــورا إلى معســكرات البــلاد، أمامــك أربــع وعــشرون ســاعة لفعــل ذلــك وإلا ســأعتني جيــدا بماكارينــا!».

إن التهديــد بإيــذاء الأبنــاء هــو أخطــر تهديــد قــد يتعــرض إليــه أي شــخص في هــذه الحيــاة، وهــو أمــر شــائع جــدا لــدى

العصابات في كافة أنحاء العالم، فالرجل قد يتقبل فقدان زوجته، ووالديه، وكافة مقربيه ببساطة وببرودة دم، لكنه ينكسر بسرعة إن مس الأذى أحد أبنائه أو بناته، وقد يفعل أي شيء، ويحطم كل ما بناه طيلة حياته من أجل إنقاذ فلذة كبده من الخطر أو الهلاك.

أنا هنا لا أتحدث عن أولئك البشر الذين يعيشون في مناطق متخلفة، ويؤمنون بالخرافات والأساطير، فيئدون بناتهم، أو يتخلصون منهن لأنهن جلبن العار لهم، لأنك لو لاحظت ـ أيها القارئ ـ فقد وظّفت مصطلح «البشر» وليس «الكائنات»، لأن تلك الكائنات لم ترق بعد إلى مستوى «إنسان»، نتيجة جهلها العظيم، وغبائها الحاد، ومعتقداتها البالية.

كان سماع اسم «ماكارينا» كفيلا بأن يجعل سيباستيان يتجه بسرعة نحو المختبر، ويبدأ في إنتاج مثبط الإنزيم بكميات هائلة، بينما قام الجنرال بالاتصال بقادة جيشه، وأمرهم بالانسحاب فورا والعودة إلى المعسكرات. كانت هذه الأخبار لتكون سعيدة لو كانت نزهة الأحلام حاضرة، لو كان إدواردو مشاركا، لو كانت أمال مبتسمة، لكن عبد الجليل كان يعلم جيدا قانون الحياة الذي لا تستمر من دونه أبدا: إن أصابك الحزن والشقاء، فسيبتسم لك الحظ في أمر

مـا، وإن جاءتـك جرعـة سـعادة، فسـتأتي مملـوءة بـالألم!

أمـضى العـالم يومـا كامـلا في مختـبره، وبـدأ في إنتـاج كميـة لا بـأس بهـا مـن مثبـط الإنزيـم، والـذي سـماه عبـد الجليـل «Libertad»، وهـذا لأنـه يحـررك مـن العبوديـة، ويجعلك إنسـانا حقيقيـا، لا آلـة مدمـرة تعشـق البـارود والدمـاء!

جلـس بعـد ذلـك عـلى كـرسي المختـبر، أحـضر حقنـة جديـدة وقـام بتحريرهـا مـن غلافهـا البلاسـتيكي، أمسـك زجاجـة المثبـط الصغـيرة الحجـم وقـام برجهـا جيـدا ثـم قلبهـا رأسـا عـلى عقـب وأدخـل الإبـرة أسـفلها سـاحبا إياهـا بهـدوء إلى أن أفـرغ محتويـات الزجاجـة عـن آخرهـا، وضعهـا جانبـا، ثـم ضغـط أسـفل الإبـرة إلى أن خـرج كل الهـواء الـذي كان بداخلها، وتأكـد مـن ذلـك بعـد خـروج كميـة صغـيرة مـن السـائل مـن رأسـها، مـد ذراعـه اليمنـى، وقـام بلـف شريـط مطاطـي عليهـا، ثـم قـام بتعقيـم مـكان الحقـن في سـاعده بالكحـول، وأحكـم قبضـة يـده، ثـم أمسـك الإبـرة، وأدخـل رأسـها في منتصـف العـرق البـارز مـن سـاعده بزاويـة عشريـن درجـة، بعـد ذلـك قـام بنـزع الشريـط المطاطـي مـن ذراعـه، وبـدأ تدريجيـا بالضغـط عـلى مؤخـرة الإبـرة مفرغـا محتوياتهـا داخـل دورتـه الدمويـة تدريجيـا، بعـد ذلـك قـام بإخراجهـا بـكل هـدوء مـن معصمـه، واضعـا قطعـة قطـن معقمـة عـلى مـكان الحقـن، ثـم قـام بتثبيتهـا

بضمادة لاصقة وهو يبتسم.

كان سيباستيان يشاهده بذهول ثم سأله قائلا: «هل أنت ممرض بالجيش؟»، ابتسم عبد الجليل مجددا وأجابه: «وهل أبدو لك كممرض؟ أنظر إلى هالات عيوني السود، ربما كنت ممرضا لنفسي، أداوي روحها بحقن جسدي بتلك المواد الجميلة التي تجعلني سعيدا! هل توضحت الفكرة؟ أم أزيدها وضوحا؟».

ـ «سواء كنت ممرضا أم مدمن مخدرات، فإن الأعراض الجانبية لهذا المثبط وخيمة، ستنشأ معركة وشيكة داخل جسدك بعد حين، معركة أشد من آثار الانسحاب للهروين، أنصحك بالمكوث في المنزل تحت رعاية طبية إلى غاية حلول فجر آخر».

بدأت الحمى تفعل فعلتها به مساء ذلك اليوم، كان ينام قليلا ثم يستيقظ على رجة عنيفة تزعزع جسده، سكن البرد عظامه، ولم تكن كل تلك الملاءات كافية لتدفئته، لأن البرد كان ينبع من داخله وليس من الخارج، كان يرتعد وهو يشاهد سقف غرفته، لقد كان مليئا بدماء سيف وصرخاته، كان الأخير يترجاه أن يخبر ماروشكا أنه لا زال يحبها، وهو يغفر لها كل شيء، ويسامحها على كل خطأ، كان يكلم عبد الجليل وهو غافل عن الأعداء الذين كانوا يتقدمون نحوه

ببطء، أراد أن يحذره منهم، لكنه لم يستطع الصراخ، قاموا بعد ذلك بالإمساك به، وتقطيعه إربا إربا، حتى تلطخ كامل السقف بدمائه، وسال على فراشه وأغطيته، أتت أمه بعد ذلك وبدأت بتنظيف السقف، نظرت إليه نظرة عتاب، وأخبرته بأنها امرأة عجوز الآن، وهي لا تستطيع القيام بأشغال البيت لوحدها، ترجته أن يكف عن توسيخ الأرضية بحذائه المليء بالطين، وتلطيخ السقف بأفكاره المشبعة بالدماء، أخبره أبوه أنه لا أحد يشتاق إليه في الجزائر، وأن مكوثه في المكسيك خير له ولهم، لكن الزعيم قام بطرده حالا، طرده قائلا أنه لا يريد من خائن المكسيك أن يعيش بينهم، وأن روحه ستلعنه أينما ذهب! اشتد البرد، وأغمض عبد الجليل عينيه كي لا يشاهد السقف المخيف مجددا، رفع يديه المرتعشتين وبدأ يناجي الله في سريرته قائلا:

«لماذا يا الله؟ لماذا اخترتني لكي أكون من بين عبادك الأشقياء؟ لما كل الأمور صعبة في حياتي؟ مختلطة ومعقدة! هل كنت روحا آثمة في حياة سابقة، وأنت تعاقبني الآن في هذه الحياة على ما اقترفته من فضائع يندى لها الجبين؟ هل هذا هو الجحيم الذي وعدتنا به؟ لأنه إن كان كذلك حقا، فهو أسوء بكثير مما وصفته لنا!

لما لا ترحمني وأنت من وعدتنا بالرحمة؟ لما لا تسعدني

ولـو لمـرة واحـدة في حيـاتي حتـى أرى لطفـك ومحبتـك؟ لمـا لا تشـفيني والصـبر قـد نفـذ منـي؟ لأننـي سـأضع حتـما حـدا لحيـاتي إن أنـت لم تفعـل!

آه! روحي تتألم! اشفني يا رب أرجوك!».

استيقظ عبـد الجليـل في الصبـاح الباكـر ليجـد نفسـه يسـبح في بركـة مـن الميـاه، لقـد كان يتصبـب عرقـا ويهـذي طـوال الليـل، كانـت درجـة حرارتـه قـد اعتدلـت، لكنـه أمـضى وقتـا لا بـأس بـه في فراشـه يتسـاءل: مـن أنـا؟ أيـن أنـا؟ مـاذا أفعـل هنا؟ كـم السـاعة؟ واسـتغرق وقتـا طويـلا حتـى اسـترجع ذاكرتـه، ثم قفـز مـن فراشـه بنشـاط، واتجـه نحـو الحـمام، أيـن وقـف تحـت مـرش الميـاه، وبـدأ بالاغتسـال وهـو غـارق في بحـر أفـكاره، مستشـعرا هاتـه الأحاسـيس الجديـدة التـي دخلـت قلبـه، والتـي افتقدهـا منـذ زمـن بعيـد.

شـعر بالغربـة، وهـو المقاتـل الـذي كان يعتـبر المكسـيك وطنـه وسـكانها أهلـه، أحـس بالشـوق إلى بـلاده، وهـو الرجـل الـذي غـادر الجزائـر قانطـا، عاقـدا العـزم عـلى ألا تطـأ أقدامـه ترابهـا مجـددا، شـعر بالحنـين اتجـاه عائلتـه، وهـو فـرد العائلـة الـذي اعتـاد جميـع أفرادهـا غيابـه كـما اعتـاد فراقهـم، أحـس بالمشـاعر الإيجابيـة مجـددا، وبأنـه يسـتطيع أن يكـون شـيئا آخـر مـا عـدا ملـكا للمـوت!

لبس أحسن ثيابه، قام بحلق لحيته الكثيفة، تعطر جيدا، وانطلق بسيارته نحو المستشفى، أين وجد نزهة الأحلام نائمة على سريرها وأمها تنتحب بجانبها، قام بتهدئتها، وطلب منها أن تأخذ قسطا من الراحة في بيتها بينما يقوم هو بمراقبتها طوال اليوم، خرجت أمال من الغرفة وهي تنظر بحزن نحو فلذة كبدها، بينما أحضر عبد الجليل كرسيا ووضعه إلى جانبها، وشرع في مشاهدة هذا الملاك النائم وكأنه يراه لأول مرة في حياته: امرأة جميلة وهادئة، ملاك ساحر، أنثى فاتنة!

تحركت مشاعره نحوها، تلك المشاعر التي كانت مثبطة لسنوات عديدة، أمسك يدها الصغيرة، ضغط عليها بلطف وأخذ يكلمها والدموع تنهمر من عينيه:

«عزيزتي نزهة الأحلام،

سأستغل نومك الهادئ هذا لأبث لك ما يختلج في قلبي، لا تحلمي بسماع ما سأقوله لك الآن مجددا حينما تستيقظين، لأنني سأعبس في وجهك، وأدعي اللامبالاة، لأن تلك بكل بساطة: شخصيتي!

أنت امرأة استثنائية، امرأة لم أر مثلها في حياتي أبدا، عنيدة، قوية حينما يستدعي الأمر ذلك، ولينة عطوفة في

طينتك الحقيقية، روحك روح سامية، نادرة، أرستقراطية؛ أنت أشبه بسلطانة تمارس الحرب، ملكة تعرف كيف تتحدث، وتمشي، وتتصرف تماما كالملكات!

لا أتعجب أن إدواردو قد حاول قتلي في سبيلك، أنت تستحقين أن تقوم حرب من أجلك، والموت فيها بالنسبة للرجال هو سقف آمالهم، ونيل رضاك هو منتهى غاياتهم!

أنت أنثى فاتنة، جميلة، مغرية، تجعلين من الرجل خادما لك بابتسامة منك، ومن المرأة عدوة إن أنت فقط مررت بجانبها!

أنا آسف يا نزهتي، آسف على تجاهلي لك طيلة تلك المغامرات التي خضناها معا، منذ أن تعرفت عليك في الفندق، مرورا بعراكنا في الحانة، وصولا إلى إنقاذك لي مرتين، مرة عند هروبي من المنظمة، وأخرى من الموت على يد إدواردو.

أتعلمين ما يجذبني نحوك يا صغيرتي؟ إنه شجاعتك التي تفوق بأس الرجال، مواقفك البطولية التي تثبت أن المرأة يمكنها أن تكون بطلة في الحرب بينما يجبن الرجل، شخصيتك القوية التي تزعزع نفس كل من يقف أمامها!

أظنني واقع في حبك يا أميرتي، متعثر تحت تأثير

سحرك الذي لا يقاوم؛ فإن كنت تحبينني كما اعترفت لي قبل إصابتك، فارحميني بالنهوض مجددا إلى جانبي، فإني والله لا أستطيع العيش من دونك أبدا!

بالمناسبة، لقد صنع سيباستيان مثبطا لإنزيم «Esperanzas»، وقد أخذت جرعة منه، وأنا اليوم حر يا ملاكي، حر طليق! استيقظي وهيا لنرحل مع بعض بعيدا عن هنا، بعيدا عن هذه البلاد التي لم تجلب لنا سوى الألم، لنرجع إلى الجزائر، ولنشتري لنا سكنا في حي «حيدرة»، ولنلعب التنس لبقية حياتنا!

أنا أحبك يا نزهة الأحلام! أنا أحبك أيتها «العنابية» الفاتنة!».

(٩)

تقدم فيليب نحو شجرة ذابلة وقام بقص أغصانها الواحد تلو الآخر، جمعها معا في حزمة واحدة، وأخذها نحو النار المتقدة التي كانت تدفئ رجاله، ثم بدأ برمي كل واحد منها في منتصف اللهيب الذي كان يمتصها بشراهة، فيزيد اتقاده أكثر فأكثر، واستمر في فعل ذلك كأسلوب إلهاء ينسيه حالة الانتظار القاتلة التي كان يعيشها، ويجعله يمعن التفكير جيدا في مستقبله، وفي مصير زوجته التي تنتظره في المنزل كقطة وديعة.

كانت روحه هادئة نوعا ما، واستمرت في ذلك إلى أن قاطع سكونها أحد رجاله، والذي صرخ قائلا: «سيدي سيدي!».

ـ «ماذا هناك؟».

ـ «المكسيكيون الأوغاد!».

ـ «ما بالهم؟».

ـ «إنهم ينسحبون!».

صرخ فيليب وأنخيل بصوت واحد: «ماذا قلت؟!».

ـ «إنهم ينسحبون يا سيدي، تعال وشاهد بنفسك!».

تقدم فيليب نحو قمة التل بسرعة، شاهد العدو من خلال المنظار خاصته، فرأى العدو وهو ينزع الخيام التي نصبها، ويضع أوتادها على متن عرباته، ويعود برّا من نفس الطريق التي دخل منها باتجاه الحدود المكسيكية؛ قال وهو يكاد لا يصدق ما يراه: «لا بد أنه فخ ما! علي أن أخبر الكولونيل حالا!».

اتصل به، وأخبره بما رآه فصدم بالجواب المقتضب: «أجل، نحن نعلم ذلك، قم بتحرير الأسرى وارجع إلى المعسكر، لقد انتهت الحرب، سنعود إلى بيوتنا!».

لم يستطع فيليب الوقوف فجلس فورا، كان يحاول تهدئة نفسه، لكن تلك الكلمات وقعت عليه وقوع الصاعقة: «لقد انتهت الحرب، سنعود إلى بيوتنا!».

قد يكون هذا الخبر بالنسبة للسياسيين أمرا محزنا، وقد يستهجنونه بشدة، ويطالبون بمواصلة القتال، ورد الصاع صاعين، وهذا تصرف بديهي لأناس ينادون بالحرب ثم ينامون في منازلهم مع زوجاتهم، وفي الغد يصطحبون أطفالهم إلى المدرسة، ثم يذهبون إلى العمل لينادوا بالحرب مرة أخرى.

قد يكون الخبر غير سار كذلك بالنسبة للمدنيين، فالحرب بالنسبة لهم مجرد مباراة كرة قدم، يصفقون لهذا ويشتمون ذاك، وهم جالسون في المقهى يدفئون كراسيهم، ولا يقوون حتى على الوقوف والمشي لمسافة تزيد عن مائة متر!

لكن بالنسبة لفيليب فالأمر ليس كذلك، بالنسبة لأنخيل، وعبد الجليل، وكل مقاتل على وجه الأرض، فهذا هو أسعد خبر قد يسمعه في حياته يوما: «لقد انتهت الحرب، سنعود إلى بيوتنا!».

بدأت الدموع تنهمر بغزارة على وجنتي فيليب وهو يعيد تلك الكلمات في ذهنه كما يفسرها عقله: «لقد انتهت الحرب، لقد خلُص القتل والتخريب والدماء، لقد انقضى الظلم والاعتداء وإيذاء الإنسان لأخيه الإنسان، لقد توقف موت الرجال من أجل قضايا غير عادلة، من أجل الوهم والأكاذيب وبغض البشر لبعضهم البعض! سنعود إلى بيوتنا،

سنرجع إلى زوجاتنا وأطفالنا ونحتضنهم بعمق، سنخبرهم بأننا نحبهم جدا ولا نستطيع العيش من دونهم أبدا، سنرى أباءنا وأمهاتنا وسنتوقف عن عقوقهم كما اعتدنا دوما أن نفعل، سنبرّهم أبدا، وسنستجدي صفحهم، علّهم يغفرون لنا إساءاتنا!

لقد انتهى الألم، انقضى بُعد الحبيب عن حبيبه، ستُضمّد الجراح، وتُمسح الدموع، وتُزهر الحياة من جديد!».

تقدم نحو أنخيل وقام بنزع وثاقه، أخبره بأن الحرب قد انتهت ثم قام بمصافحته قائلا: «أنا أسامحك يا صديقي لأنك ببساطة لست عدوي، أنت مجرد رجل يحارب من أجل وطنه تماما كما يفعل كل رجل أبي، فالرجل الحقيقي هو من ينصر بلاده ظالمة كانت أم مظلومة، فلسنا نحن من نصنع الحرب يا صديقي، نحن مقاتلون، نخوض الحروب التي خطّها السياسيون، ليس من أجلهم، كلا! بل لنحفظ كرامة عائلاتنا، وندافع عن شرفنا وشرف بلادنا، ونمسح الفوضى التي سبّبها صناع القرار باتخاذهم لقرارات خاطئة أدّت إلى عواقب وخيمة، مصير ستدفعه عائلاتنا بشدة إن نحن لم نقم بحمايتهم كما يفعل كل رجل من أجل أرضه، وبلاده، وعائلته، وشرفه».

نظر إليه أنخيل والدموع تترقرق في عينيه وأجابه قائلا:

«نِعـمَ الرّجـل أنـت يـا فيليـب، إني لم أصـادف أبـدا رجـلا بمثـل قوتـك، ومروءتـك، وشـجاعتك، لقـد دافعـتَ عـن بـلادك يـا صديقـي، دافعـت كـما لم يفعـل أحـد ذلـك أبـدا، إني أحترمـك كثـيرا، وأتمنـى لـو تتـشرف بقبـول صداقتـي، فربـما جمعنـا القـدر هاهنـا لنكـون أصدقـاء إلى الأبـد!».

قـام الرجـلان بمعانقـة بعضهـما البعـض، وتعاهـدا عـلى الصداقـة وسـط تهليـلات وتصفيقـات رجالهـم الذيـن كانـت السـعادة تهـز أجسـادهم هـزّا، وكيـف لا تفـرح وقـد حـل السـلم فجـأة في خضـم حـرب ضروس بـدأت عـلى حـين غـرة؟!

قـام فيليـب بعـد ذلـك بالعـودة نحـو المعسـكر وهـو يـكاد لا يصـدق أنـه قـد عـاد حيّـا، ومـا إن وصـل هنـاك حتـى وجـد الفرحـة تعـم وجـوه جميـع المقاتلـين، والمعنويـات العاليـة باديـة عـلى وجوههـم البشوشـة، شـكره الكولونيـل كثـيرا عـلى خدمتـه الجليلـة، وشـجاعته الفـذة، وإقدامـه النـادر، ثـم قـدم لـه وسـام البطولـة في حفلـة أقيمـت عـلى شرف أبطـال الحـرب بعـد عودتـه إلى بـلاده. كانـت نهايـة أنخيـل مشـابهة لنهايتـه، لكنـه لم يحـظ في هـذه الحـرب بمجـرد وسـام يعلـق عـلى الصـدر ليفـرق البطـل عـن الجبـان، بـل كان جـل فائدتـه كنـز الأخـلاق الـذي تعلمـه مـن صديقـه الجديـد، والـذي بقـي عـلى تواصـل معـه طـوال حياتـه، حيـث زار الصديقـان بعضهـما البعـض لمـرات عديـدة،

أيــن تعمّقــت أواصر الصداقــة بينهــما أكثــر فأكثــر، إلى درجــة أنهــما صــارا يرجعــان الفضــل في ذلــك إلى تلــك الحــرب التــي خــرج كلاهمــا منهــا فائزيــن بصديــق حقيقــي قلــما تجــد مثلــه في هــذه الحيــاة العاديــة المليئــة بالمنافقــين، وأصدقــاء المصلحــة، والاســتغلاليين!

***

اســتيقظت نزهــة الأحــلام مــن غيبوبتهــا، فتحــت عينيهــا ببــطء، فشــاهدت عبــد الجليــل وهــو ينظــر إليهــا بحنــو بعينيــه اللتــين اســتحالتا إلى قرصــين مــن فــرط الســعادة؛ كانــت أولى الكلــمات التــي ســمعتها هــي: «حبيبتــي! وأخــيرا قــد عــدتِ إلي! اشــتقت إليــك كثــيرا يــا نزهتــي!».

نظــرت إلى يدهــا، فلاحظــت أن عبــد الجليــل يمســكها بحنو وأصابــع يــده ملتحمــة مــع أصابعهــا، أغمضــت عينيهــا مــن جديــد غــير مصدقــة وســألته قائلــة: «هــل أنــا أهــذي؟ أم أننــي توفيــت ودخلــت إلى الجنــة؟!»، ضحــك عبــد الجليــل قائــلا: «أرجــح الاحتــمال الأول، لأنــك لــو كنــت ميتــة حقــا، فســتفتحين عينيــك لــتري النــار والجحيــم!».

لم تنبــس ببنــت شــفة، بــل قامــت بالضغــط عــلى يــده مجــددا لكــي تتأكــد بأنهــا حقيقيــة، ولم يــدر بخلدهــا الموســيقي ســوى

أغنيـة «SET YOU FREE» لفرقـة «REYKO» التـي كانـت كلماتهـا تـدوي في وجدانهـا بصـوت «SOLEI» العميـق، وكأن عبـد الجليـل يخاطبهـا بهـا:

« واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

أغمضي عينيك واتركيها تسير...

فحينما يذهب التردد، لن تقومي بالعد مجددا!

خمسة، ستة، سبعة، ثمانية...

ليس هنالك داعٍ لكي تكوني خائفة...

ربما أنت تتساءلين لماذا؟ لكنك ستحسين كذلك قريبا!

قومي بالعد من واحد إلى ثلاثة... أخبريني بإحساسك...

أطلعيني على تفكيرك، فأنا هنا لأحررك فقط!

قومـي بالعـدّ مـن أجـلي حينـما يعتريـك البكاء...وسـأقوم بمسـح دموعـك!

قومـي بالعـدّ مـن أجـلي حينـما تحسـين بأنـك تغرقـين ببـطء... فأنـا هنـا لأحـرك فقـط!»

قـام عبـد الجليـل بتقبيلهـا بـين عينيهـا، ثـم حكـى لهـا عـن

هـرب إدواردو، وانتهـاء الحـرب، وشـفائه مـن مرضـه عـن طريق مولـد الضـد «LIBERTAD»، سـألته قائلـة: «مـاذا عـن سيباسـتيان ولويـس؟»، أجابهـا: «لقـد أجبرتهـما عـلى معالجـة جميـع المقاتلـين، ثـم قمـت بإعـلان الحقيقـة للمواطنـين، وتركـت العدالـة تأخـذ مجراهـا فيهـما، ربـما سـتجعلهما السـنوات المتبقيـة لهـما في السـجن المؤبـد يـدركان حجـم فعلتهـما، وكيـف قامـا بإيـذاء الآلاف مـن النـاس مـن أجـل طمعهـما الغـير شريـف في المـال والسـلطة».

نظـرت إليـه نزهـة الأحـلام بحنـو وقالـت بـدلال: «أريـد أن أطلـب منـك شـيئا يـا حبيبي».

ـ «تفضلي، أنا رهن أمرك يا عزيزتي».

ـ «أريـدك أن تعفـو عـن إدواردو، افعـل ذلـك مـن أجـلي أرجـوك!».

ـ «مـا دمـتِ قـد عفـوتِ عنـه فقـد غفـرتُ لـه كذلـك، لا تخـافي يـا قطتـي، فأنـا لم أعـد نفـس الشـخص الدمـوي الـذي كنتـه مـن قبـل!».

ـ «شـكرا جزيـلا لـك يـا حبيبـي! ومـاذا سـنفعل الآن؟ هـل نحتفل؟».

ضحـك عبـد الجليـل وأجـاب: «ليـس قبـل أن تتماثـلي جيـدا

للشفاء، إنني أفكر في العودة مجددا إلى الجزائر، والاستقرار هناك مع عائلاتنا وذوينا، ما رأيك؟».

ـ «أي مكان إلى جانبك سيكون الجنة يا حبيبي!».

عانق عصفورا الحب بعضهما البعض، ثم استمر بعد ذلك عبد الجليل وأمال في العناية بها يوما بعد يوم، أين كانت سعادة الأم لا توصف برؤية ابنتها حية من جديد بعد فقدانها للأمل في نجاتها، بعد ذلك تم السماح لها بمغادرة المستشفى بعد استقرار حالتها، واتجه الجميع صوب منزلهم ليخططوا للمستقبل المليء بالمفاجآت.

مضت الأيام، وسافر الجميع مجددا إلى الجزائر، هذه المرة في عودة أبدية، عودة كانت بالنسبة لهم نهاية سعيدة قلّما توفرت لشخصيات روايتي الذين اعتادوا أن يموتوا ألما وكمدا في نهاية كل رواية، لكنهم نجوا هذه المرة من مخالب حبري، لأن الحب قائم، والأمل كائن، والسعادة موجودة، شئتُ ذلك أم أبيت!

الخاتمة

الشَّمسُ قَدْ مَالتْ إِلَى الغُروبِ وَالأَضْواءُ مَنسيَّة...

وَأَنَا ضَابطٌ بِالجِيشِ فِي وِحدةٍ قِتاليَة...

وَصلتنَا مَعلوماتٌ عَنْ اِضطرابٍ فِي الأَوضاعِ الأَمنيَّة...

الشَّاهدُ قَالَ: تَسليحهمْ خَفيفٌ، وَعَددهمْ غَامضٌ كَالأحجيَّة...

وَالأمنُ فَسّرَ: رَهْطُ مشاةٍ مُسلَّحٌ بِبنادقَ آليَة!

تَفهّمتُ المُهمَّة، قَدَّرتُ المَوقفَ، حَسبتُ الوَقتَ، اِتّخذتُ القَرار، وَقَدّمتُ أَمرًا قِتاليًّا...

وَأَرسلتُ العُيونَ زَاحفةً عَلَى أَتربةِ الأَراضِي البَريَّة...

جَهَّزتُ الفَصيلةَ... وَأَعطيتهَا النِّقاطَ الإِشاريَة...

كَانَ الجَميعُ مُستعدًّا وَمُتحمسًّا للذَّودِ عنْ أَلواننَا الوَطنيَّة!

صَرختُ قَائلاً: «نَحنُ للجَزائرِ نَبني، نَحمِي، وَنَدينْ...

فَهلمُّوا يَا أَبناءَ وَطنِي إِلى نَصبِ الكَمينْ...

قُلوبنَا لِلعدوِّ لَا تَحنُّ وَلَا تَلينْ...

أَفكارنَا مُتشبّعةٌ بالقِيمِ... بالأَخلاقِ وَاليَقينْ...

مَشاعرنَا جَيّاشَة... أَسلحتنَا رَشّاشَة...

وَبُذورُ النَّخوةِ فِينَا تُنتشُ إِنتاشَا!

سِرتُ أُفقًا وَمَعِي عَساكِرِي وَجُنودِي...

الكُلُّ مُكتملٌ مُترابطٌ كَثمراتِ العُنقودِ...

مُتسلسلٌ وَمُندمجْ، بِتشكيلٍ مُزدوجْ...

فَأَنَا مُقيّدٌ، وَقوةُ القِيادةِ مُقيمةٌ فِي قُيودِي!

أَكملنَا المَسيرَ حَتَّى وَصلنَا إِلَى المَكانِ المُناسبْ...

الأَوامرُ وَاضحَة: القَضاءُ عَلَى العَدوِّ وَالاستيلاءُ عَلَى الأَسلحةِ وَالمَكاسبْ...

وَضعتُ كلَّ فَردٍ فِي مَكانهِ، وَحدّدتُ لَهُ مَنصبًا مِنَ المَناصبْ...

ثُمَّ عَيّنتُ عُنصرَ الإِنذارِ كَأوّلِ جِدارٍ فِي وَجهِ الغَاصبْ!

أُحسُّ بِالنشوَة... كُلّمَا تَذكّرتُ تِلكَ اللّيلَة...

كَانَ الجَميعُ مُتموّهًا وَالقَمرُ ضَيّاءْ...

أَتَى المُجرمونَ كَمَا يَأتِي السُّوقةُ وَالغَوغاءْ...

يَرتدونَ البَرانسَ... يُطلقونَ اللُحَى... وَيَقلبونَ نَعلَ الحِذاءْ...

وَهَدفهمْ سَماعُ بُكاءِ الأَطفالِ... عَويلِ النِّساءْ...

وَرُؤيةِ الجُثثِ والدِّماءْ!

اِنتظرنَا العَدوَّ، إِلَى أَنْ أَتَى مَارًّا بَينَ المَسالكِ وَالدُّروبْ...

أَطلقنَا عليهِ الرَّصاصةَ الأُولَى...

فَمنْ غَريزةِ الإِنسانِ الرُّجوعُ إِلَى الخَلفِ إِذَا أَرادَ الهُروبْ...

صَارَ إِطلاقُ النِّيرانِ كَثيفًا...

وَبَرزتِ النُّيوبُ فِي الحُروبْ...

وَفِي خِضمِ المَعركةِ... نُدركُ النَّقائصَ وَالعيوبْ!

كَانَت الطَّلقاتُ مُباشرَة، نَحوَ الأَفئدةِ مُهاجرَة، بأَرواحِ القَتلةِ مُتاجرَة، لِإراقةِ دِمائهمْ عَاجلَة!

مَاتَ المُجرمونَ وَأَبَى خَامسهُم الإِقبالْ...

فَرَّ هَاربًا، فَوقعَ بَينَ أَيادِي عُنصرِ الِاستقبالْ!

«لِيبقَ كُلُّ فَردٍ فِي مَكانِه!»، أَعطيتهمُ الأَمرَ بَعدَ النِّزالْ...

نِزالٌ شَبيهٌ بِثورانِ بركانٍ... أَوْ قَصفِ زِلزالْ!

فِي الغَدِ حَملنَا الجُثثَ، وَقفلتُ رَاجعًا مَعَ فَصيلتِي وَأَنَا سَائرْ...

جَفنُ العَينِ عَلَى مَحيايَ غَائرْ...

لَقدْ مَاتَ الجَائرْ!

لاَ تَندهشْ يَا حَائرْ...

لَقدْ أُطفئتِ الأَنوارُ وَأُسدلتِ السَّتائرْ...

فَلتحيَا قَبائلُ بِلادِي وَالعَشائرْ...

وَليَحيَا الجَيشْ... وَلِتحيَا الجَزائرْ!».

الفهرس

الإهداء: ٥

تنويه: ٦

الفصل الأول: ٧

تيخوانا، عاصمة الفساد! ٧

الفصل الثاني: ٨٥

مظليون مغاوير ٨٥

الفصل الثالث: ١٧٠

وراء خطوط العدو ١٧٠

الخاتمة.. ٢٧٥

حينما

يختلط الدم بأحمر الشّفاه

ديراو داتسيدا

رواية

أنا أحبك يا إيزابيلا، أحببتك حينما كنا أصدقاء، وبعد أن دخلنا في علاقة، وفي مرحلة خطوبتنا، وبعد زواجنا، وأنا أحبك اليوم أيضا في الحياة الأخرى! هل فهمت الآن سبب حزني الدائم؟ إنه تفكيري المستمر في فراقك المحتوم، كنت أدرك أنني سأموت في الحرب؛ لو كنت أعزبا، لكان الحماس هو إحساسي الوحيد، أما وجودك إلى جانبي، فهو يجعل ضميري يتألم من أجل هذه الفتاة الوديعة! حينما يصل جثماني إليك، أريدك أن تبتسمي، أن تنثري الورود على قبري، أن ترُشّي عطرك على كفني؛ سأراك يا إيزابيلا، عيوني تراقبك الآن وأنت تقرئين هذه الرسالة، أريد أن أراك سعيدة كي تكتمل فرحتي، وأي بهجة قد أنالها في العالم الآخر إن لم يكن سببها ابتسامة آسرة منك؟

إصدارات أخرى للكاتب

9 789947 797211

المثقف للنشر والتوزيع
Elmouthakaf Publishing & Distribution
E-mail: elmouthakaf2@gmail.com
Elmouthakaf